أنيس منصور

وأنت ما رأيك؟!

RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM



وأنت ما رأيك ؟!

منذ خمسة وعشرين قرنا أمسك الفيلسوف اليونانى ديوجين عصاه وضرب بها رجلا كان يلعب مع ابنه فى أحد الميادين ، وتوقف الرجل ليسأل فقال له الفيلسوف: سمعت ابنك يقسم كاذبا، ولا بد أنه تعلَّم ذلك منك، أو تعلَّم هذه العادة السيئة من غيرك ولكنَّك سكت على ذلك !

ولا أعرف كم عصا نحتاج إليها فى مصر، وإننا فى حاجة إلى أن نزرع غابة ونقلعها بعد ذلك وننزل بفروعها على رءوس الألوف من الذين لا يفرِّقون بين أن يلعب الطفل بالنور أو بالنار .. أو بين أن يلعب وهو يتعلَّم أو يتعلَّم وهو يلعب!

هذا رأيى ومشاهدى ودراستى وخبرتى ، وأنت ما رأيك فى كل الذى رويت ؟

أنيس منصور







أنيس منصور

وأنت ما رأيك؟!



أنتم الناس أيها الشعراء!

نصف بيت لأمير الشعراء شوقى. أما مَنْ عداهم فليسوا ناسًا. وليس ذلك حماسًا للشعر والشعراء أو للفن والفنانين.

وإنما هى حقيقة.. فلا يزال الفنان هو أقدر الناس على الإحساس بالناس. وأقدر الناس على التعذيب بالناس.. والخلاص من ذلك بالتعبير الجميل. فالشاعر، والرسام والموسيقار، إنما يصنعون الموسيقى بدموعهم. إنهم لا يجففونها، وإنما هم يرسمونها وينقشونها، ثم يجعلون لسقوطها إيقاعًا موسيقيًا لونيًّا.

نسأل شاعرًا: ماذا تريد؟

يقول: أن أكون ربابًا.. أن أكون نايًا.. أن أكون بين أصابع القضاء والقدر.. أن أكون بين شفتى الجمال.. أن ينفخنى الجلال.. أن أتساقط قطرات على صفحات التاريخ..

وأنت يا رسام: ماذا تريد؟

أن أزف الألوان إلى الألوان.. أن.. أكتب كتابى على الظلال، أن يكون أهل العروسين من أوراق الشجر وشعاعات القمر.. أن أعيش وأموت فى زفة أبدية.. ولا يهمنى من تكون العروسة.. أن أكون أنا العريس، والعروس، والمأذون وأهل العروسين.

وأنت أيها الموسيقار: ماذا تريد؟

أن أكون شاعرًا رسامًا، وأن أكون شقيق الموج.. متدليًا من ضفائر القمر عاشقًا لنجوم السماء.

لا لون ولا جنس ولا دين ولا دولة ولا حزب ولا علاقات ولا أحد.

إنهم الناس هؤلاء الشعراء.

– وأنت أيها السياسى: ماذا تريد؟

– أن ألقى القبض على هؤلاء المتعطلين!..

.. عجبى!

مقشة الحكيم!

فى يوم من الأيام، قرر توفيق الحكيم أن يدعو إلى نظافة مصر.. شوارعها وأحيائها الفقيرة والغنية. فقد كانت مصر نظيفة يوما ما.. وكانت شوارعها تلمع بالصابون. عندما كان عددنا أقل عشرين مليونا، وعندما كان فيها مئات الألوف من الخواجات. وكان شعار توفيق الحكيم: انظر وراءك فى غضب، وأمامك فى يأس.. ولكن عندما قرر أنه فى الإمكان تنظيف القاهرة، فلم يكن يائسًا من الغد.. وإنما كان عنده أمل. بعض الأمل.. ولكن بسرعة قد تبدد هذا الأمل.. ووقف توفيق الحكيم ومعه عدد من الأدباء، وأمسكوا المقشات، وراحوا يكنسون جانبا من الشارع، والتُقِطَت الصور التاريخية.

ونُشِرت.. وانتهى الموضوع، وعادت القذارة إلى الشارع، واللامبالاة إلى الناس!

فكما هى العادة، وقف الناس يتفرجون على الكاتب الكبير، وماذا سيعمل: بص شوف توفيق حيعمل إيه.

ولم يعمل توفيق الحكيم أكثر من الإشارة والبداية.. والباقى مفروض أن يكمله الآخرون من الأدباء، أو من القرّاء.. وتوهم الناس أن توفيق الحكيم سوف يكنس الشارع، أو الحى، والرسالة التى قصدها الحكيم لم تصل إلى الناس.. وانتهى كل شىء عند هذه الصورة التاريخية والنية الطيبة!

والذى فعله الرئيس مبارك من الذهاب إلى السياح، يجب ألا ينتهى عند ذلك.. وإنما يكون هذا هدف الوزراء والوكلاء والمديرين.. أن يلتقوا بالضيوف، وأن يسمعوا إليهم. وكل شكاواهم يجب أن تلقى عظيم الاحترام، فهم الزبائن. والزبون على حق ـ ألف باء التجارة الناجحة!

وما تفعله السيدة سوزان مبارك أيضًا ـ فهى لن تبنى كل مدارس مصر، ولن تلتقى بكل التلاميذ الصغار ولن تفتح صفحات الكتب للأطفال، وتنتظرهم حتى يفرغوا من القراءة.. وإنما هذه خطوة.. قدوة.. يجب أن تتولاها كل السيدات فى كل أحياء القاهرة والمحافظات.. وقد نجحت سوزان مبارك.. ومن الممكن أن تواصل النجاح سيدات أخريات، فهى قد وضعت القاعدة، وأشارت إلى الطريق وإلى الهدف!

ولكن من ضمن عيوبنا أننا ولدنا متفرجين ثم لا يعجبنا العجب، ولا الصيام فى رمضان ورجب.. فما لم نقفز من كراسى المتفرجين، لنكون الممثلين واللاعبين، فسوف يبقى الحال على ما هو عليه ليزداد سوءًا!

خط الوزير!

طلبة المدارس الابتدائية فى بريطانيا أرسلوا خطابات إلى وزير التعليم السيد كينيث كلارك بأسلوب قاس لم يكن يتوقعه الوزير.. وفى نفس الوقت لن تكون له أية فائدة، فقط ليشعر الوزير بشىء من الخجل، ولابد أنه شعر.

فقد تلقت إحدى المدارس خطابًا من الوزير كينيث كلارك، والخطاب بخط يده، وكان من الصعب قراءته.. لا الكبار استطاعوا، ولا الصغار أيضًا، فخط الوزير ردىء ولابد أنه كتبه بسرعة جدًّا فتطايرت معه الحروف، وتلاشت النقط.. واتخذت الحروف شكل التراب الذى يثار وراء سيارة مسرعة!

ولذلك طلبت المدرسة من الطلبة أن يبعثوا بخطاب إلى السيد الوزير، هذا نصّه:

«عزيزى السيد كلارك»

مع أخلص تحياتى

ونشرت الصحف صورة لخطابات التلامذة الصغار فيما بين الخامسة والثانية عشرة. ومن المؤكد أن خط الأطفال أجمل وأوضح من خط الوزير!

طبعا لم تقل المدرسة للطلبة الصغار: إنه من الممكن أن يكون خط الإنسان رديئا، ويصبح بعد ذلك وزيرًا.. ولا أحد قال لهم: بل

من الممكن ألا يعرف الإنسان خبر «إن»، واسم «كان»، ثم يصبح وزيرًا.. أو ينطق السين مثل الزين، فيقول: «أزبوع» بدلاً من «أسبوع»، ويصبح نائبًا لرئيس الوزراء.

عندنا فى مصر حاجات زى كده! ولكن قيل للطلبة الصغار: إنه شيء سيئ أن يكون خطك رديئًا.. وأن الوزير غلطان فكان من الواجب أن يحسّن خطه، ولكن أحدًا لم ينبهه إلى ذلك وهو صغير، ولابد أنهم قالوا للأطفال: لقد كان الوزير يتيما فى سن صغيرة، فلم تكن مشكلته كيف يكتب، ولكن مشكلته كيف يأكل؟ وكيف يشرب؟ أى كيف يعيش؟ ولو كان الوزير بلا مشاكل حيوية لأصبح خطه واضحًا، وليس من الضرورى أن يكون جميلا، فالذين لهم خطوط جميلة قليلون فى هذه الدنيا.

ولا أعرف أحدًا من وزراء التربية والتعليم عندنا جميل الخط، إلا د. عبد الرازق السنهورى.. وكان أديبًا أيضًا. وأذكر أن أول خطاب نشرته له. كان فى مجلة «روز اليوسف» من أربعين عامًا، كان قد بعث به إلى أحد الزملاء الذين طلبوا نصيحته، وكان خطابه تحفة فى المضمون والشكل!

أعلمه الرماية!

من أروع الحكايات التى جاءت فى رواية «الإخوة كرامازوف» للأديب الروسى العظيم دستوفيسكى حكاية أن المسيح عليه السلام نزل فجأة فى مدينة إشبيلية.. وخرج الناس من الكنائس إلى الشوارع يمشون وراء المسيح طبيعيًا، فتضايق كاردينال المدينة، وخرج إلى السيد المسيح يقول له: لم يعد الآن فى الإمكان تنفيذ كل تعاليمك.. فأنت قلت: إن الأغنياء لا يدخلون الجنة إلا إذا دخل الجمل من ثقب الإبرة.. ولكن الأغنياء يا سيدنا هم الذين بنوا الكنائس، وحاربوا من أجل نشر دينك.. ثم إننى لا أستطيع أن أمشى حافيًا.. فإما أن تخرج من المدينة الآن، وإما أن أضعك فى السجن بتهمة العداء للمسيحية! بالذوق كده ومن غير ضجة!

فالكاردينال يريد أن يحاكم السيد المسيح بتهمة العداء للمسيحية.. تصوروا؟!

أما الترجمة الحديثة لهذه القصة القديمة، فهى أن «يلتسين» الذى انتخب رئيسًا لجمهورية روسيا يتهم «جورباتشوف» بالعداء للإصلاح والبريسترويكا، وتقويض حركة التحرر التى أوجدها ونفذها.. فأطلق سراح دول أوربا الشرقية من قيود الشيوعية.. وحرر الاتحاد السوفيتى نفسه من أسطورة السيطرة الشيوعية سبعين عامًا من الجوع، والقهر، والأحلام الكاذبة

بانهيار أمريكا.. وتقديس تمثال من البلاستيك للزعيم «لينين».. فلم تكن الشيوعية إلا تمثالا من البلاستيك دقيق الصنع، ولكن بلا حياة.

وهذه الحرية والهُتافات بالصوت العالى، والنجاح الجماهيرى للزعيم «يلتسين» كلها من صنع جورباتشوف.. ولولا جورباتشوف ما كانت الحرية، والديمقراطية، والتعددية، ومئات ألوف الملايين من المساعدات الأمريكية الأوربية لروسيا.

وشاعرنا القديم هو الذى قال عن أمثال «يلتسين» وعلى لسان «جورباتشوف»:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى ... فلما قال قافية هجانى

وحتى لو أصبح يلتسين رئيسًا للاتحاد السوفيتى كله؛ فالفضل لجورباتشوف.. وحتى إذا اغتالوا جورباتشوف، فقد قُتِل أنبياء، وخلفاء راشدون، وزعماء.. فنحن نعيش فى عصر جورباتشوف!

.. مات مسمومًا!

أحد المؤرخين الأمريكان يريد استخراج جثة الرئيس الأمريكى «تايلور» الذى توفى منذ قرن ونصف قرن.. فقد اكتشف أن الرجل مات مسمومًا ـ تمامًا كما مات نابليون، فالإنجليز قد وضعوا السم يومًا بعد يوم لنابليون فى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة، حتى مات.. وقد أعلن الطب الشرعى ذلك بعد تحليل شعر نابليون.

ولو كان الملك فاروق له أهل، لطلبوا تحليل جثته أيضًا، فقد ادعى كثيرون من ضباط المخابرات المصرية أنهم هم الذين وضعوا له السم فى طعامه، فمات فى شقته الصغيرة فى روما.

دعنى أنقل قصة موت الملك فاروق كما سمعتها من الضابط «أ.ب» قال لى: إنه سافر إلى روما، ولاحظ أن الملك فاروق يجلس على مقهى «الدونة» فى شارع «فينتو» بروما.. وأنه راقبه وسار وراءه.. ورصد الشقة التى يسكنها، وسكن فى شقة فوقه.. ثم فى الشقة المجاورة له.. ثم فى الشقة التى تحته ـ كل هذا كلامه.. ووجد الحل النهائى عن طريق الخادمة التى كانت تعمل عنده.. وتم اغراؤها بإهدائها مصوغات خان الخليلى.. ولقن الخادمة ماذا تقول للملك إذا رأى الخواتم والأقراط والعقود المصرية فى رقبتها.. كانت تقول: إن المصريين لا يكادون يعرفون أنها تعمل عنده، حتى يغمروها بالهدايا.. أى إن الشعب المصرى لا يزال يحبك ويقول: يوم من أيام الملك... إلخ.

ووضعت هذه الفتاة السم للملك فاروق فى اللبن والعسل!

وهناك رواية أخرى سمعتها من الضابط «ح.ش» قال: كانت التعليمات التى صدرت إليه من القاهرة، هى قتل الملك فاروق دون إراقة دماء.. يعنى خنق الملك.. جائز إغراق الملك. جائز. ولكن السم فى العسل واللبن هو ألطف وأرق وسائل الموت..
ويقول الضابط «ح.ش»: إنه ارتدى ملابس قارئ كف هندى، وتوقف عند المقهى الذى يجلس عليه الملك.. وقال للملك: العمر الطويل لك.. والطريق مفتوح أمامك إلى بلاد الأهرامات.

ووضع السم فى البيرة. وعاد الملك إلى بيته.. فنام ولم يقم!

وعندما كنت أتعشى مع الملك السابق أحمد فؤاد.. كان أحد الضابطين يجلس على مدى عشرين مترًا منا ـ مصادفة غريبة. وقلت هذه المصادفة لكل المدعوين.. إلا الملك أحمد فؤاد.

.. أعطه جزمتك!

سألت جاري: هل تعطى صوتك لهذا النصّاب ذى الألف وجه والمليون قبلة؟

فقال جارى: لا حيلة لى.. لقد جاء إلى الست، وباس القدم.. والحذاء الذى إلى جوار القدم.. وبكى .. رجل يبكى؟! وأنت؟

ـ أبدا لن أعطيه صوتى.

وكنا نعطى أصواتنا للمرشحين لجوائز الدولة التقديرية.

وسألت جارى فى الناحية الأخرى: وأنت سوف تعطيه صوتك؟

قال: إنه كان يطاردنى فى البيت، وفى المكتب.. وفى المصعد.. كلَّم زوجتى.. سافر إلى أهلها وقدم لهم روشتات المخ والقلب والشرايين.

وإنه إذا لم يفز بجائزة الدولة التقديرية، فسوف يموت.. لقد جعلنى أشعر فجأة بأننى الذى سوف أقتله.. وقال لى أيضًا: لن يعطينى أحد صوتًا.. فهم يكرهوننى.. وأنا لا أطمع فى الجائزة ولن أفوز بها.. ولكن أريد أن يعترف بى ولو صوت واحد.. فقط صوت واحد، وأموت راضيًا!

وسألت ثالثًا: وأنت أعطيت لفلان صوتك؟

فأجاب: وكيف لا أعطيه.. إنه هو الذى أنقذ ابنتى من تحت عجلات الأتوبيس.. فقد كان الأتوبيس يقف بالقرب من مبنى التليفزيون، وفجأة: جرت ابنتى تلحق بأمها.. بينما كان هو

متجهًا إلى التليفزيون فأمسكها من يدها، وحملها على صدره.. وذهب إلى أمها.. وقدم لها نفسه.. وعرف من أنا.. وفى اليوم التالى اتصل بى يطمئن على سلامة ابنتى.. وظل ساكتًا عامًا كاملاً.. ثم فاجأنى بالزيارة ـ أى بالثمن ـ قبل انعقاد المجلس الأعلى للثقافة!

وقلت لأحد الأصدقاء عضو المجلس الأعلى للثقافة: لقد تراهَنَّا على أنك لن تعطى صوتك لهذا الكذاب المنافق الهجاص المهياص.. فأجاب: إنه جارى الذى لا يكِلُّ ولا يمل، ولا يخجل!.

وكما ترى فليس من الضرورى أن تكون صاحب موهبة، ولا أنك رجل مبدع، كل هذا لا يهم. المهم هو أن تكون لك علاقات عديدة.. وأن تكون صفيقًا لا تخجل، وأن تكون دموعك قريبة.. ورأسك أقرب إلى أى حذاء.

والقاعدة هى: حيث لا قانون فالعلاقة الشخصية هى القانون!

قلت له: انزل!

عندنا هيصة.. أناس يسرقون الكتب، وأناس يكتفون بسرقة عناوينها.. واللص أجرأ من صاحب الكتاب المسروق.. أحد الصحفيين سرق عنوان كتاب لى. ولما أخذته قال: يا أخى عندك كتب كثيرة!.

أذكر أن أحد الشبان استوقفنى يومًا؛ لكى يركب سيارتى، وكان الجو حارًا جدًا. وتحدثنا وعرفت أنه طالب وسألته: لماذا كنت على يقين من أننى سوف أستجيب لإشارتك وأقف بسيارتى؟ فقال: ولا حاجة.. سيارتك فاضية.. وفيها مكان لأكثر من واحد!

فتوقفت بالسيارة، وقلت له: انزل!

وقد حدث أن سطا كثيرون على كتبى، وسرقوا ونهبوا، وكان ذلك فى بلاد بعيدة. ولم أعرف ما الذى أفعله. وكذلك فى الإذاعة والتليفزيون، وفى الصحف. إنها ظاهرة. ومن الصعب محاربة الظواهر. وهى ظاهرة قائمة على الغش والجرأة، فليس من عاداتنا أن يستأذن الإنسان صاحب الكتاب؛ إذا اقتبس منه، أو حتى إذا قرر السرقة.. ولا من عادة المنتجين أن يستأذنوا إذا سرقوا أسماء الكتب.. إنها مسألة أخلاقية!

ومنذ أيام نشرت الصحف الأمريكية أن عميد كلية الآداب فى بوسطن اعتذر فى خطاب بعث به إلى إحدى الصحف.. فقد ألقى محاضرة فى الجامعة، وقد اقتبس من ناقد فنى ثلاثين سطرًا، ثم

نسى تمامًا أن يذكر اسم هذا الناقد.. وهى غلطة فظيعة وقع فيها. ولابد من الاعتراف بذلك أمام نفسه وأمام تلامذته واعتذر.

وقد قرأ الناقد الفنى هذا الاعتذار، وكان مفاجأة له.. فالناقد يعيش فى الهند.. والمحاضرة ألقيت فى بوسطن على عشرين طالبًا!

وفوجئ عميد كلية الآداب بخطاب جاءه من الناقد الفنى يقول له: إنه شرف عظيم أن تقرأ مقالى، وأن تجد فيه شيئًا يستحق الاقتباس.. ويستحق أن تضعه فى كتاب بعد ذلك!

ولم يكتف العميد بما نشرته الصحف، بل كتب اعتذارًا علَّقه على باب قاعة المحاضرات ـ عجبى!

وقد قرأت فى الملحق الأدبى لصحيفة «التايمز» البريطانية إعلانًا لشركات كاستات، تعتذر عن غلطة مطبعية، تقول الشركة: رئيس مجلس الإدارة، ومدير الإذاعة، ومدير الإعلانات، والرسام يعتذرون للسيد فلان الفلانى، فقد وقع خطأ فى كتابة اسمه!

واحْتَجتُ إلى عدسة معظَّمة؛ لكى أقرأ الاسم على غلاف الكاسيت!

حفيد تولستوى..

من مائة وعشرين عامًا أصدر تولستوى الكاتب الروسى العظيم روايته الشهيرة «آنا كارنينا» وفى هذه الرواية حاول تولستوى تحطيم القيصرية بتقاليدها وقيودها.

وهذه الرواية الواقعية تعتبر من أجمل أعمال تولستوى.. إنها حكاية «آنا كارنينا» التى جاءت إلى موسكو؛ لتفض خلافًا بين أخيها وزوجته، فسقطت فى شبكة العلاقات الاجتماعية المنحلة التى سادت موسكو فى القرن التاسع عشر.. فقد أحبها أحد النبلاء وأحبته وحملت منه، فقرر زوجها أن يعترف بالمولود خوفًا على طموحاته السياسية، وهربت مع عشيقها، وعادت لتعيش معه ثم اكتشفت علاقته بامرأة أخرى، فألقت بنفسها تحت عجلات القطار.

وقبل أن يموت تولستوى سنة ١٩١٠، رأى بوادر التفكك فى الإمبراطورية القيصرية، وأسعده ذلك!

وفى ليلة الانقلاب ضد جورباتشوف، أُلقِى القبض على واحد من أحفاد تولستوى؛ لأنه وقف ضد الانقلاب ـ فقد آمن بأن جورباتشوف هو الرجل الذى سوف يقوض الإمبراطورية الحمراء ـ ودخل أندريه تولستوى «٤٣ سنة» السجن لمدة ثلاثة أيام، وخرج ليملأ عينيه بأمل جدِّه العظيم: انهيار الظلم والقهر وإعدام النظريات التى تجعل الإنسان حيوانًا يتعالى على البشرية كلها!

يقول تولستوى الكبير: أعطنى نظرية.. أية نظرية تجعلنى أفخر

بإنسانيتى.. أعطنى أية نظرية تجعلنى أزداد حبًا للسلام والخير وسيادة الأخلاق.. أعطنى أية نظرية تجعل دموعًا جاهزة على خدى؛ إذا جُرِحت أصبع لطفل صغير.. أعطنى أية نظرية تجعلنى مستعدًا لأن أضحى دائمًا بكل ما فى يدى من أجل مشهد جميل أخلاقى!

يقول حفيد تولستوى: إننى أكثر سعادة من جدى العظيم.. فقد كان يحلم ..أما أنا فأرى بعينى انهيار الظلم والظالمين.. لم أكن أتصور أن هذا ممكن. أما جدى العظيم فقد كان على يقين من أن الحلم سيكون حقيقة.. وقد تأكدت أحلامه بعد وفاته بثمانين عامًا!

وتلقى أندريه تولستوى تليفونًا من جورباتشوف يهنئه بسلامة العودة إلى البيت..

قال تولستوى الصغير: سيدى الرئيس لا أستطيع أن أحول هذه المكالمة إلى جدى، فقد كان ينتظرها من مائة عام!

اختصروا اسمى!!

من أجمل الروايات الواقعية والساخرة أيضًا رواية «الجائزة» للكاتب الأمريكى العظيم «أرفنج والاس». وأنا ترجمت هذه الرواية فى ألف صفحة، ولكن تصادف أن كانت فى مصر ضجة حول رواية إحسان عبد القدوس «أنف وثلاث عيون».

فكان لابد من اختصار الصفحات الجنسية بهذه الرواية البديعة.. فاختصرت ٣٠٠ صفحة.. أما المطبعة فقد اختصرت سطرًا واحدًا هو: «ترجمها وكتب مقدمتها أنيس منصور».

ولم يبق إلا سطر صغير فى نهاية المقدمة يشير إلى أن لى علاقة بهذا العمل الأدبى الجميل.

أما موضوع الرواية فهو عن الفائزين بجائزة نوبل، وأين كانوا يوم أُعْلِن فوزهم.. وقد تفنن الكاتب الأمريكى فى اختيار أماكن وجود الأدباء فى الحانات، والكباريهات، وحمامات السباحة.. وفى خناقاتهم العائلية.. وقد اعتمد المؤلف على حقائق تاريخية فى كل ما كتب.. ولكن الصياغة والنسج والحبكة هى من صناعة فنان كبير.

وقد أُعطيت الجائزة للسيدة «سوتش» من بورما - وهى محبوسة فى بيتها.. وقبل ذلك أعطوها لصمويل بيكت الذى هرب لأسباب شخصية.. ولم يهتدوا إليه إلا بالمصادفة فى تونس.. وقبل ذلك أعطيت لماركويث.. ولولا أن واحدًا من أصدقائه دق الباب بعنف؛ لينقل إليه الخبر لكان الأديب قد مات.. فقد كان فى

البانيو وغلبه النوم، وبدأ ينزلق بالتدريج إلى ما تحت الماء.. ويبدو أنه كان مخمورًا أيضًا، ولكن دقات الباب انتشلته، فانكتب له عمر جديد!!

وأديبة جنوب إفريقيا «نادين جورديمير» كانت تتمدد تحت سيارتها تصلحها.. عندما خبطها فى رجلها أحد المارة ليهنئها بثلاثة أرباع مليون جنيه قيمة جائزة نوبل!

وقد رفضها برنارد شو واعتذر عنها سارتر.. وأُرغِم على الاعتذار «باسترناك» و«سو لجنتسين» وتسلمها سيد مرعى بدلاً من السادات، فقد كانت مناصفة مع مناحم بيجين.

أما أديبة نيوزيلندا «كرى هولم» فكانت تسبح فى المحيط، عندما راحت الزوارق تصرخ حولها وهى ترفض أن تلتفت إلى أى أحد.. وكانت مشغولة بصيد السمك وشيء آخر.. فقد انفسخ المايوه بشكل واضح.. والصيادون من بعيد يهللون بفوزها بالجائزة.. ولكنها ظنت أنهم لاحظوا ما حدث لها، وغضبت، واندهشت لقدرة الناس على الملاحظة من بعيد، وقلة أدبهم أيضًا.

إنهم يفضلون الراقصات!

ما الذى أصاب رؤساء العالم؟

فالرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان يقول فى مذكراته: إنه قبيح الرأس الأصلع.. وإنه كان يتفادى النظر فى المرآة.. وإنه كان يُصَاب بهياج جنسى أثناء انعقاد مجلس الوزراء، وإنه أثناء مناقشات الميزانية كان يتخيل قبلات وأحضانًا ناعمة فى أماكن أخرى!

والرئيس الأرجنتينى كارلوس منعم، يطارد الفتيات الجميلات فى سيارات سباق.. وقد انفصلت عنه السيدة سليمى زوجته لأنها كانت تجد الفتيات تحت السرير، فصهينت، ولكن عندما وجدت الفتيات على نفس السرير، طلبت الطلاق. وحصلت عليه، وفى الأرجنتين لا يرون فى ذلك عيبًا، وإنما كل الرجال يفعلون ذلك!

والرئيس الفرنسى ميتران، لم يجد حرجًا فى تعيين صديقة له من ربع قرن رئيسة للوزراء، إنها فى غاية الذكاء، والقوة، والكفاءة، وليس ذلك غريبًا فى تاريخ البلاط الفرنسى، فقد حكمت العشيقات عشرات السنين!

والرئيس الكوبى كاسترو، لا يمكن إحصاء الفتيات الصغيرات فى حياته أيام زمان والآن.. وهو كرجل لاتينى يُضَاف كل ذلك لحساب رجولته، وفحولته التى هى قدوة لشباب بلاده!

والرئيس نوريجا، رجل المخابرات الأمريكية الذى جنده

بوش، وحبسه بسبب اتجاره فى المخدرات.. كان من الذئاب المدربة تدريبًا جيدًا على خطف البنات، وتطليق الزوجات، والهرب فى الغابات!

وهارولد ولسون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق كانت له سكرتيرة - صديقة يعنى - جعلها عضوة فى مجلس اللوردات، بعد سنوات طويلة من المشاركة فى التفكير والتدبير، وعلى عينك يا تاجر!

والملك الإفريقى بوكاسا كانت له زوجاته الكثيرات جدًّا، وأولاده الذين لا عدد لهم، والأولاد الذين أكلهم، ولكن عندما علم أن وزيرة الخارجية قد احتضنها أى واحد فى مطار باريس، أصدر قرارًا بفصلها فورًا؛ لأنها تمنعت أن تكون بين أحضانه!

وكان الرئيس الإندونيسى الأسبق سوكارنو، له مغامرات فى القاهرة، نعرفها ونسكت.. أما الملوك فلهم مسلسلات أخرى - إنهم يفضلون نجوم الشاشة، ويفضلون الراقصات أكثر!

أجراس البقر..

أنت تقرأ فى كتاب أو فى صحيفة ساعة وراء ساعة.. أنت إذن تستمع إلى من يتكلم.. ففن القراءة هو فن الاستماع إلى من يكتب أو يرسم أو يعزف. وأكثر الناس تعلمًا أكثرهم إنصاتًا.. والذى يتكلم معظم الوقت هو الذى يعيد ويزيد ما يعرفه، ولكن الذى يتعلم كيف يسكت، كيف يتأمل، هو الأكثر علمًا، أو الأكثر استعدادًا لذلك.

وكلما زاد الإنسان حضارة؛ ازدادت رغبته فى الاستماع الهادئ.. وصار يضيق بالضوضاء. وهناك أمراض تتولد من الضوضاء، مثل: ارتفاع الضغط، والسكر، وتسوس الأسنان. وكل التجارب التى أجريت على سكان الغابات أو الجبال، تدل على انخفاض نسبة السكر وضعف النظر.

وإذا قال لك أحد: إن الهدوء الشديد قد أوجع أذنيه، فالتعبير صحيح..

فقد اعتادت الأذن على أن تتوكأ على الأصوات هنا وهناك.. فلما لم يجد الأصوات، كان كالذى يتوكأ على عصا أو درابزين، فلما لم يجده، اختل توازنه.. وأنا جربت شخصيًا الدخول فى غرفة جدرانها من الفلين فى مصانع سفن الفضاء، وقد انعدم فيها الصوت، فكدت أقع وقد نبهنى العلماء إلى ذلك!

ولما ظهر الراديو الترانزستور؛ قاومه كثير من الدول.. فقد انتشر فى الحدائق، وكان عدوانًا على حرية الصمت عند الناس، فحرَّمته فرنسا فى الحدائق، والقطارات، والأتوبيسات.

وتشكلت جمعيات لمقاطعة هذا المعتدى الصغير.. فكما أن حرية الكلام للجميع، فحرية الهدوء أيضًا...!

ومنذ أيام قرأت أن الفلاحين فى سويسرا جددوا الاحتجاج على رنين الأجراس فى رقاب البقر. فهم يضعون الجرس فى عنق البقرة؛ حتى يعرف صاحبها أين شردت.. ولكن ألوف الأجراس تفسد هدوء الجبال والغابات، وتوجع آذان الذين ولدوا فى الصمت، والنظافة، والصحة، والذين مثلهم: ساعة اليد والحائط؛ الدقة الهادئة.

وانعقدت المحاكم، وصدر القرار بأن يتعلق جرس واحد فى كل عشر أبقار؛ حتى لا تؤدى هذه الأصوات النحيلة ـ على رأى طه حسين ـ إلى إفساد القراءة، والكتابة، والنظر إلى جمال الطبيعة!

لا حياة لمن تنادى!

فى بعض الأحيان يشعر الكاتب أنه يؤذن فى مالطة ـ أى فى مكان ليس فيه مسلمون يقومون إلى الصلاة.. أو أن هناك مسلمين، ولكن هذا الأذان ليس مسموعًا هنا فى القاهرة.. إذن هو يؤذن لغير أذان.. أى لا فائدة من هذا الأذان، والدعوة للصلاة؛ لأنه لا أحد هناك..

والشاعر القديم يقول:

لقد أَسْمَعتَ لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادى!

ولا شىء يطمئن الكاتب على أنه يؤذن، وأن له مستمعين إلا رسائل القراء، إنها رد فعل. إنها تجاوب. إنها عائد مادى وأدبى.. وحيوى.. ومشاركة.. وكل خطاب يجىء للكاتب يجعله يشعر بالسعادة والامتنان، ويقبل عليه بعقله وبقلبه، ويتوقف عنده. وكثير من القراء لهم آراء سديدة. ولهم ملاحظات صائبة، وكثيرًا ما صوب القراء أخطاء الكاتب، أو كانت إجابتهم مفاجأة له.. فقد فهموا غير الذى قصد.. وهم يطالبونه بالتصحيح أو الإيضاح.

والحق معهم فى كثير من المرات، فالكاتب يجب أن يكون قريبًا منهم.. فالذى على قلمه هو الذى على لسانه، والذى فى أذنيه هو بالضبط ما يقولون.. وهو يجب أن يقول، وأن يوضح، فيشعر القارئ أنه ليس وحده وأن همومه هى همومى، ومتاعبه مشاكلى، وأحلامه هى واقعى.

ويكون الكاتب صديقًا للقارئ. وهو مثل أى صديق هو موضع سره، ومرشده، وهاديه، والذى يتحمل متاعبه، أو يشاطره أحزانه. هنا تهون مشاكل الدنيا، وهنا تكون مقالات الكُتَّاب وأعمالهم الفنية والأدبية صورة من الناس. ويكون رد الفعل هو صدى الناس.. ومن هذه المشاركة اليومية والتعاطف المستمر، والنظرة الموازية أو النافذة -من كل ذلك- يتكون، ويتكوم رصيد الكاتب عند قرائه، ورصيد القراء عند كاتبهم.

وعندما يكون الكاتب على سفر فإنه يسأل: ماذا جاء فى رسائل القراء؟ وكيف كان صدى المقال الفلانى؟. مَنْ أيده ومن اعترض عليه؟ ومن طالب بمزيد من الإيضاح.. ويوم لا يجد الكاتب أحدًا قد قال أو عاتب، يشعر أن انقطاعًا هائلاً قد حدث: فى التليفون، وفى النور، والماء، ونقص الأوكسجين فى الهواء!

مشاكل الكاتب!

حتى لو كان كل الوزراء زملاء الطفولة، ولا يزالون أصدقاء للكاتب، فهناك حدود لهذه العلاقة. وهناك قواعد وأصول.. وهناك مشاكل كثيرة عند الجميع.

ومن الممكن أن أتصل بأحد الوزراء، وأطلب منه مساعدة قارئ له مشكلة.. ممكن، وقد حدث كثيرًا. ولكن هذا الوزير أو هذا المسئول يتلقى طلبات من مئات الناس. وكلها عاجلة.. من زملائه الوزراء، والوكلاء، وأبناء دائرته الانتخابية، ومن ألف عضو فى مجلسى الشعب والشورى، ومن قيادات الحزب، وقد حدث كثيرًا أن اتصلت بكبار المسئولين أؤدى واجب مساعدة بعض القراء.. حدث.. ووعد الوزير.. وكذلك مَنْ حوله من المستشارين. ولسبب لا أعرفه بالضبط، لم يتحقق ما أردت. وقد يتسع وقت الوزير أن يتصل بى شخصيًّا معتذرًا، أو على أمل فى وقت آخر. وقد لا يتسع وقته. وأنا أعذره.. فكلنا غارقون فى أعمالنا. ويغضب القارئ.. ومعه حق.

أذكر أننى تحدثت بشأن مشكلة لقارئ مع وزير الصحة. والرجل رقيق، ولطيف، ومجامل جدًّا. ووعد أن يتصل بى. ومضى أسبوع، واثنان، وثلاثة، ولم يفعل. انشغل؟ سافر؟ ممكن.. وفجأة وجدت برقية شتيمة من القارئ، فاتصلت بالوزير وأحالنى إلى المدير الذى قال لى: إن المريض قد نُقِل إلى المستشفى، وأُسْعِف وعُولِج بتاريخ كذا وكذا.. والأغرب من ذلك أن غدًا زفافه. وأن الوزير تلقى دعوة لحضور الفرح!

المعنى: أن القارئ غَضِبَ. معه حق. ولكنه عندما تحقق له ما يريد؛ لم يشأ أن يكلف خاطره فيقول لى.. ويبعث برقية أخرى.. ولا يهم أن يدعونى لزفافه.. فبالذمة من الذى يغضب؟!

وفى كثير من الأحيان ألتقى بواحد من المسئولين ويقول لى: يعنى لا قلت لى شكرًا ولا حاجة..

ويفاجأ الكاتب بأن أحد القراء الطيبين قد حشر اسم الكاتب فى خطاب بدعوى أنه قريب جدًا للكاتب وأنه وأنه...

وكل ذلك أهون كثيرًا من مقالب ومصائب أخرى، يجد الكاتب نفسه قد وقع فيها!.

لو أننى أستطيع

لا أستطيع أن أطلب من القارئ أن يكتب بخط أوضح أو أجمل ـ فأنا شخصيًا خطى سيئ، ولا يوجد إلا سكرتيرى، ومن عشرين عامًا، هو الذى يعرف كيف يقرؤه.. وأحيانًا أسأله عن هذه الكلمات الغريبة الشكل التى كتبتها أنا!

ولكن لا أمل من أن يكون خط بعض القراء واضحًا ـ الحبر أغمق، والكلمات أكبر. أما الورق فبعض القراء يبعثون برسائل على ورق مطبوع عليه وَرْد وحيوانات، فلا أستطيع أن أستخرج الكلمات من هذه الغابات!

وبعض الرسائل كأنها مكتوبة برمش العين.. خطها صغير جدًا ومنمنم. وأجد صعوبة فى قراءتها.. وأكثر القراء عندهم عقدة «سلة المهملات» فهم يتصورون دائمًا أن الكاتب لا يكاد يرى هذا الخطاب حتى يلقيه فى الزبالة. ولذلك فهم يناشدون الكاتب ألا يفعل، وأن يمضى فى قراءة الرسالة حتى آخرها.. وأُحِب أن أؤكد للأعزاء القراء أن الكاتب سعيد بهذه الرسائل، وأنه يقرؤها من أولها حتى آخرها ـ هذه حقيقة.

وبعض القراء، لأن الكتابة ليست صناعتهم، فهم يعرضون مشكلتهم فى صفحات طويلة جدًا.. هذا هو الذى يجعل من الصعب على الكاتب أن يقرأ وأن يستوعب.. فالكاتب عنده قراءات أخرى كثيرة.. يقرأ عشرين صحيفة يوميًا بعدة لغات، ومجلات أسبوعية، وكتبًا، وأبحاثًا، ورسائل ـ فلو اختصر القارئ ما يكتبه، كان أفضل!

بعض القراء يطلبون سرعة الرد على رسائلهم. يحدث. ولكن بعض الصبر مطلوب، ثم إن هناك رسائل يصعب الرد عليها.. أو ليس واضحًا بالضبط ماذا يريده القارئ.

ولكن رسائل القراء هى من أعظم هبات الله لنا!

ولو استطاع الكاتب أن يرد على كل رسالة لفعل، لو استطاع الكاتب أن يهدى كل كتبه لكل قارئ؛ ما تردد.. ولكن هناك صعوبات عملية ومادية، ثم إن بعض الكتاب يحتاج إلى سكرتارية كبيرة.. وليس هذا ممكنًا فى معظم الأحيان!

أو لو كان عنده متسع من الوقت لالتقى شخصيًا بكل من يريد أن يلقاه.. ولكن كيف؟... وإذا كان اللقاء العابر صعبًا، فكيف بمن يريد «ندوة» أو صالونا أسبوعيا؟!.. إن الكاتب يتمنى ذلك.. ولكن لا يستطيع !

لا بد من الخطأ!

الله سبحانه وتعالى هو الذى لا يخطئ ـ هو المعصوم من الخطأ.

أما أنا، وأنت، والأنبياء، والمرسلون، فمن الطبيعى أن نخطئ.
وبعض القراء يبعثون لنا برسائل سريعة يصوبون الأخطاء الإملائية والنحوية التى تظهر فى هذه المقالات.

وبعض القراء يرى أن باب النجار مخلع بدليل هذه الأخطاء الكثيرة، وأننا يجب أن «نلايمها».. ونحترم القراء وأنفسنا، وأنه لا داعى لأن ننصح الناس ونحن غرقى فى الخطأ، الخطأ الإملائى هل هذا معقول؟

فعلاً ليس معقولاً. ولكن مثل هذه الأخطاء كان من المستحيل وقوعها.. بمعنى أنه من المستحيل أن أقع فى خطأ إملائى، أو أنى لا أعرف اسم أن وخبر كان.. فقد تجاوزت مثل هذا النوع من الخطأ من عشرات السنين، وحتى لو أخطأت ففى «الأهرام» عدد كبير من المصححين ـ أى الذين يصوبون الأخطاء التى يقع فيها الكاتب، إذا هو أخطأ، أو تقع فيها أجهزة جمع الحروف.

إذن، كيف يظهر الخطأ؟

هناك أسباب أخرى.. فالمقال يدخل غرفًا متعددة، ويمر على أجهزة إلكترونية، وعلى هذه الأجهزة أناس مثلنا من الممكن أن يقعوا فى الخطأ، خاصة أنهم ليسوا من خريجى أقسام اللغات العربية.. بل أكثرهم لا يتقن النحو والصرف. وإنما هو يتقن فنًا

آخر: هو نقل الكلام من الورق إلى الشاشات الإلكترونية. وفى عملية النقل هذه يقع الخطأ. وقد يكتشف المصححون هذا الخطأ، بعد نقل المقال إلى الأجهزة الإلكترونية.. ويتم التصحيح، ولكن يقع خطأ فى مكان آخر، وكان من النادر من عشرين عامًا أن تجد خطأ فى مقال.. والآن أصبح من النادر جدًا جدًا ألا يقع، والسبب هو حجم الكلام المكتوب، والكلام المطبوع، والكلام المحذوف، وتغيير الصفحات والطبعات.. وتعدد الأيدى والعيون التى تلاحظ وتصحح الخطأ. وتخطئ فى الصح.. ثم تعدد الصحف والمجلات والكتب التى تطبع فى نفس الوقت.. وقبل وبعد وأثناء كل ذلك: الإرهاق البشرى!

أنا قررت الانتحار..!

شكرًا للقراء الكرام الذين يتصورون بحسن نية أن الكاتب قادر على كل شىء، يكفى أنه كاتب وأنه مشهور، وأنه موجود فى القاهرة، وأنه يتحدث إلى رئيس الدولة والوزراء.

وأنه يستطيع أن يتصل بهم تليفونيًّا وأن يتغدى معهم، فكيف لا يستطيع أن يحمل مشاكل القراء؟! إنها كلمة منه.. إشارة.. تهديد فى مقال، أو فى مكالمة ـ فلماذا لا يفعل الكُتَّاب ذلك من أجل قرائهم؟!

مثلاً: يبعث القارئ بقصة طويلة.. أو قصة قصيرة.. أو قصيدة.. ثم ينتظر يومًا أو يومين أو أسبوعًا، ولا يجد لهذه القصة مكانًا فى الصحيفة، ولا القصيدة، ولا الأغنية، ولا اللوحة التى رسمها للرئيس مبارك مثلا، ومن حق القارئ أن يقلق على نشاطه الأدبى وأين يذهب.. وكيف لا يلقى ما يستحقه من عظيم التقدير.

ولكن الكاتب ليس هو الجهة، ولا هو هذا القادر على كل شىء. ولا هو الوحيد الذى له مطالب عند كل هؤلاء الذين يعرفهم.. وليس الكاتب بالضرورة شاعرًا يفهم ويعرف أصول النَّظْم، وقواعد العَرُوض، ولا هو بالضرورة رسامًا.. ولا حتى إذا كان يتذوق الرسم، يكون قادرًا على أن ينشر هذه اللوحات، أو حتى يبدى رأيه «العلمى» فى قيمتها.. وإنما هو يحيل هذه الأعمال الأدبية والفنية إلى زملاء له وأصدقاء.. ولا سلطان له عليهم. ولا

يدرى هو أيضًا إذا طالبهم بأن يردوا على القراء، وأن يفعلوا بسرعة.. وأن يكون الرد مريحًا للقراء.

أو يبعث أحد القراء رسالة عاجلة. وفى الرسالة عشرات القصص القصيرة على أمل النشر مع تحذير مرعب: هذه القصص هى النسخة الوحيدة التى عندى!

ومعنى ذلك أنه يحملنى مسئولية ضياع هذه القصص التى وضع آماله كلها فيها وأقام عليها مستقبله الأدبى .. ثم لا يترك عنوانه لكي أعيدها إليه. ولذلك أتحمل وحدى كارثة الاحتفاظ بها. وتمضى شهور وربما سنوات ولا يجيء المؤلف يسأل عنها.. ولا حتى رسالة منه تجدد اتهامى بأننى المسئول عن انتحاره مثلا ـ هو ألقاها ومضى لحاله وأنا أضرب دماغى فى الحائط! أو برقية عاجلة تقول: هذا آخر يوم لى فى هذه الدنيا.. فقد قررت الانتحار.. ثم يعطى عنوانه فى قرية المطاعنة.. فما الذى يمكن عمله وأنا لا أعرف من هو ولا أين هى!!

إبراهيم الوردانى..

إبراهيم الوردانى أديب ليس لأسلوبه نظير فى أدبنا الحديث، وليس له عمر.. لأنه شاب أبدًا. اقرأ كتابه الأخير «فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة» ـ «سلسلة كتاب أكتوبر».وسوف تحتاج من صفحة إلى صفحة أن تعود إلى قراءة اسم الكتاب ـ فليس المؤلف فلاحًا كما يقول، وإنما هو موهبة ليس لها توصيف. موهبة أدبية ساخرة متدفقة بالحرارة والحياة، عينه كاميرا، وأصابعه إبرة فونوغراف لا تكاد تلمس شيئا؛ حتى ينطق أنيقا جميلاً سريعًا ضاحكًا. وعلى الرغم من أنه يريد أن يؤكد لك أنه غريب عن هذه الدنيا الباهرة القاهرة على عتبات صاحبة الجلالة: الصحافة، فإنه يظل طويلاً عريضًا.. لا شيء يجعله صغيرًا عاجزًا.. إنه يرى كل شيء مضيئا ملتهبًا صارخًا كأنه إبراهيم صاحب الرسالة الذى يدخل النار ولا يحترق، ونوح الذى يطفو ولا يغرق. ويونس الذى يبتلعه حوت العاصمة الكبرى ولا يأكله.. إنه هو صاحب الجلالة الأدبية التى لم تنل ما تستحقه فى دولة الأدب ـ التى لا هى مملكة ولا جمهورية.. وإنما دولة يدخلها كل من يحمل جواز المرور وتصريح الإقامة.. العباقرة والمجانين.. والشحاذون أكثرهم! إنها دولة عجيبة، كل مواطنيها من الأمراء وأصحاب الفخامة.. يتمناها الملوك ويدعيها الرؤساء.

وكتاب الأستاذ إبراهيم الوردانى مذكرات أو لمحات صحفية فى أوائل الأربعينيات.. إنها ومضات تخطفك فتقرأ وتبتسم، ومن

النادر أن تضحك.. ولكن من المؤكد أنك فى صحبة أديب موهوب وصاحب أسلوب سريع مشحون، أضواؤه لاسعة، ولسعاته مضيئة! وإذا أردت «تسكين» إبراهيم الوردانى أو «توصيفه» فهو أديب تأثيرى، انطباعى، وعبثى، ووجودى، ثم إنه لا ينتمى!!

شىء واحد يضايقك هو أن هذا الشاب الكسول إبراهيم الوردانى لم يكمل الأربعين عامًا التى بدأها ١٩٤١ وأنهاها ١٩٤٥ ـ فلم يحدثنا عن كثير جدًا مما حدث بعد ذلك. فإذا كانت هذه عينة، فقد أعجبتنا، ولن نبرح مكاننا حتى يقدم لنا الوليمة الكبرى عن حياته فى الأربعين عامًا الماضية، وهو لا يزال فى «عز شبابه» الأدبى!

من يفتح مدرسة؟!

أسعد الأطفال هم الذين ولدوا، والكتاب فى أيديهم..

ولم نكن من هؤلاء السعداء.. فليس بيننا من وجد كتابًا كاملاً، وإنما كنا نجد الأوراق على الأرض وعلى الجدران.

وكانوا يضربوننا لأننا وضعنا الجبنة والحلاوة فى جيوبنا؛ لنتمكن من قراءة الأوراق التى كانت ملفوفة بها.. فإذا وجدنا هذه الورقة الملوثة المبقعة، ألصقنا ظهورنا بأعمدة النور نقرأ.. فإذا طلع النهار، ربطنا أنفسنا بجذوع النخل نقرأ. ونحتفظ بهذه الأوراق لنعيد قراءتها، فمن يدرى ربما لم نجد غيرها قريبًا..

أما اليوم فالطفل أسعد حالاً.. فهو يجد الكتاب الكامل الملون، ويقرؤه على سريره، وتحت مصباح هادئ، ويطل من النافذة، ويتفرج على التليفزيون، ويبتلع شيئًا من الحلوى من جيبه.. ولسبب لا يفهمه الطفل الآن، فإنه لا يرى يد أمه وأبيه وقد انقضت على خده وقفاه.. ولم نكن نرى إلا هذه الأيدى، لأننا نسينا الطعام، ولم نعد نذكر إلا هذه الأوراق المكومة المكرمشة الملوثة فى جيوبنا!

ثم إن الطفل يجد المكتبات العامة.. واسعة مريحة مضيئة أنيقة، والكتب من كل لون، ومن كل حجم. والطريق إليها نظيف.. بل ظهرت الحدائق الجميلة. والحديقة وأشجارها وممراتها ومقاعدها. وقفت نظيفة لامعة تحية لهذا القارئ الصغير.. ولألوف القراء الذين يبنون مستقبل مصر على القراءة، والعلم،

وحب الكتب، واحترام المفكرين والعلماء، واحترام العقل والنور الإلهى الذى يتفجر في الكلمات!

وإذا أحب المكتبة العامة، كان حريصًا على المكتبة الخاصة، فأصبح الكتاب ضرورة، والقراءة عادة، والتفكير أسلوبًا، والصدق هدفًا، والتقدم أملاً.. فينتشر الكتاب ويتضاعف المؤلفون.

والكلمة هى بداية الخلق والإبداع.. فالآية الأولى فى التوراة تقول: فى البدء كانت الكلمة. والكلمة هى الله. والقرآن الكريم أول آياته تقول: اقرأ.. ومعناها: فكر والتفكير يبدأ بالقراءة وحب القراءة..

وإذا كان الذى يفتح مدرسة يقفل سجنًا، فإن الذى يفتح مدرسة يبنى مستقبلا، ففى البدء كانت الكلمة، والكلمة فى كتاب، والكتاب فى يد طفل.. ومستقبلنا فى يده الأخرى!

ميلاد أديب!

اجتمعت ببعض الناشرين الإنجليز.. سألت: كيف تجدون أديبًا ثم تفتحون له الأبواب والنوافذ بعد ذلك؟

كانت إجابات متنوعة. إحدى الإجابات أن دور النشر تطلب من كل من يجد فى نفسه قدرة على الإبداع أن يبعث إليهم ببعض ما كتب، أو ما رسم، أو ألف فى الموسيقى.. وفى دور النشر لجان لاكتشاف المواهب. فإذا وجدوا واحدًا؛ ذهبوا إليه.. عرفوه.. نصحوه.. ساعدوه ماديًا وأدبيًا.. بعض دور النشر تهديه مكتبة كاملة..

وبعض دور النشر تعطيه راتبًا شهريًا..

قال لى أحد الناشرين: إنهم عثروا على مؤلف روائى موهوب، ولكنه مريض وفقير، فأدخلوه أحد المستشفيات وأدخلوه الجامعة أيضًا وأقرضوه مبلغًا من المال. وتعاقدوا على أن يحتكروا أعماله الأدبية.

وكانت قصة الأديبة «فرنسواز ساجان» حديث الليلة كلها. فقد كانت طالبة فى إحدى مدارس الراهبات. كتبت رواية طويلة جدًا. قراؤها وجدوا أنها رواية لا شك فى ذلك.

ولكنها لا تهتم كثيرًا بالشكل وتكاليف الرواية الطويلة. اختصروها ثم طلبوا من الأديب الكبير «اندريه موروا» أن يجرى قلمه على سطورها، حتى كانت فى النهاية أولى رواياتها التى دخلت بها التاريخ: مرحبًا أيها الحزن!

وبعد هذه الرواية دَاخَلَهَا الغرور، والخوف، والكسل، فدفعوها إلى الرواية الثانية والثالثة.

فليس مهمة دور النشر أن تلقى بالورق إلى المطبعة. وإنما أن تحمل المؤلف على كتفيها وتكون الصاروخ الذى يرفعه ويدور به فى فلك حول المجد!

أما القصة الثانية الغريبة العجيبة، فهى عن حياة وظهور الأديب «كولين ولسون» الذى قفز إلى المال والمجد بكتابه «اللا ننتمى». فقد بعث بالفصل الأول من الكتاب، وطلب الرأى، فإذا بالناشر يبعث إليه بقيمة الكتاب، فبعث إليه بالفصل الأخير.. وتعاقد الناشر مع المؤلف الشاب، ورفض الأديب أن يبعث بالكتاب كاملاً إلا بعد أن أعاد صياغته فى أربع سنوات.. ثم أطلق هذه القنبلة الأدبية.. وبعدها عشرون تحفة أدبية!

آخر الصعاليك!

عندما أصدرت كتابى «أنتم الناس أيها الشعراء»... لم أضع قائمة بالشعراء الذين هم الناس.. وإنما أنا «عشت» التجربة الشعرية.. أقرأ وأتذوق، وأنقل الشعر الكثير جدًا الذى حفظته، والذى تمنيت أن يحفظه غيرى.. حتى الشعر بلا قافية، لأنه شعر، قد عرضته ـ إنصافًا وليس حبًا.

فإن لم يكن الشعر موسيقى فليس شعرًا. وإذا لم يكن فى داخله موسيقى، كما فى خارجه تمامًا، فلا أنا قرأت، ولا أنا سمعت، ولا أنا طرت، بين السماء والأرض...

والشعر الذى لا يضيف ريشًا إلى أجنحتى ليس شعرًا!

وإنما أنا دعوت إلى وليمة من الجمال والفن والصدق.. والشعراء ملوك مفلسون. هم الذين توجوا أنفسهم، وهم الذين بنوا عروشًا، وتخيلوا شعوبًا. إنهم ملوك عراة...

ولو قلت لهم: بدلاً من الشعر اشتروا رغيفًا وقميصًا؛ لأضحكتهم هذه النكتة السخيفة، كما تضحك لنوبات الكرم عند الشعراء الصعاليك مثل ديك الجن وغيره ـ لقد كان الصعاليك يقتلون الأسود ليصيدوا الغزلان لا يأكلونها وهم جياع، ولا يشربون لبنها وهم يموتون من العطش!

لقد كان شاعرنا الرقيق كامل الشناوى آخر المتحدثين الظرفاء، وآخر الشعراء الصعاليك.. فهو الشهم الخائف، وهو الكريم الفقير، وهو المغوار المريض الإمبراطور الذى لا يجد قوت

يومه، وهو العملاق الشعر، القزم القلب، وهو على رأس جيش من صنع قلبه وحبه، فلم تكن له عقيدة ولا نظرية ولا طابور ولم يكن له كبير. ولكنه هو النظرية، وهو أول الطابور وآخره..

وهو إذا جلس وحده قلنا عنه: إنه «انعقد» «كأنه لجنة أو كأنه مؤتمر»..

عاش كامل الشناوى كما مات: قنبلة زمنية.. يتفجر بالضحك ويتدفق بالدموع.. وكان لا يمل تكرار الحديث القدسى فى كل مرة يخسر فى لعب الورق، ويستولى على أمواله منافس جاهل.. كان يقول: هناك حديث يقول: «ولأرزقن من لا حيلة له، حتى يتعجب أصحاب الحيل»!

النقش على الحجر!

ونحن صغار كان الواحد منا يركب العصا، ويتخيل أنه يركب حصانًا، وكان الواحد منا يمسك حفنة التراب ويضعها فى عيون الأطفال الأصغر سنًا. وكان آباؤنا يضربوننا، ولكن بعد ذلك يقولون: إن الذى يركب العصا سوف يكون فى سلاح الفرسان والذى يضع التراب فى عيون الآخرين سوف يكون طبيب عيون. انتهى خيال أطفالنا وآبائنا أيضًا.

والآن اذهب أنت إلى معرض كتب الأطفال؛ لترى مظاهر النعمة التى توافرت لأطفالنا. ألوف الكتب أشكالاً وألوانًا وأحجامًا. مئات الألوف من القصص واللوحات الفنية الجميلة الأنيقة المطبوعة على الورق الفخم.. كل تاريخنا القديم والحديث، وتاريخ الحضارة فى متناول الأطفال منذ السنة الأولى حتى الثانية عشرة.

وبدلاً من العصا التى كنا نركبها –وهى تطوير ساذج لعصا موسى عليه السلام التى أطلقها فصارت ثعبانًا يأكل كل الثعابين– تجد بالمعرض لعبًا كهربائية، وساعات، ودوائر معارف إلكترونية.

إن ملايين الرجال فى أوربا واليابان وأمريكا يعملون من أجل أن يعيش الطفل زمانه. وأن يهيأ منذ الطفولة ليكون عالمًا ومخترعًا وطبيبًا ومهندسًا ورائدًا للفضاء.

وكان المثل القديم يقول: التعليم فى الصغر كالنقش على

الحجر. والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء..والمثل ليس صحيحًا تمامًا. فالتعليم واجب فى كل سن، والتعليم نوع من النقش على كل الحواس ولا شىء يضيع.. «الحجر» القديم أصبح الآن: الكتاب والكاسيت والفيديو والطائرات والدبابات. و«الماء» هو الهواء الذى ينقل لنا الإذاعة أو «الأثير» الذى ينقل صور التليفزيون والمطلوب هو ألا نكف عن «النقش» على كل شىء.

شكرًا لوزارة الثقافة أن أعطت لدور النشر هذه الفرصة الرائعة لإسعاد ملايين الأطفال!

ماذا يريدون؟

إذا أنا تحدثت عن ارتفاع أسعار قطع غيار السيارات الكاديلاك؛ فمن المؤكد أننى لا أكتب إليك، لا أحدثك. فهذا الأمر لا يعنيك. فأكثر الناس لا يملكون السيارات، والنادرون لديهم الكاديلاك، وهم لا يقرءون الصحف فليسوا فى حاجة إليها.

ومعنى ذلك أتحدث إلى أحد غيرك على مرأى منك؛ أى إننى أكتب إليك ولكننى أتطلع إلى شخص وراءك، هو عادة لا يقرأ. إذن فلماذا أكتب لمن لا يقرأ، ولا أكتب لمن يقرأ؟!

أحيانًا عندما أطالع الصحف، مثلك تمامًا، فإننى لا أعرف بالضبط ما الذى يقصده بعض الكُتَّاب، وإلى من يتوجهون بهذا الكلام، فإن تحدثوا عن عذاب الناس؛ أوجعوهم، وإن تحدثوا عن آمال الناس؛ أرهبوهم؛ لأنهم يؤكدون استحالة أن يتحقق شىء، وإذا تحدثوا عن البديهيات السياسية، شككوا فيها، وإذا تعرضوا للخطط الاقتصادية، هدموها. وإذا كان الموضوع هو العصر الذهبى لمصر، فنحن أمام رأى واحد لا ثانى له هو البكاء على الذهب عندما كان مسامير فى أحذية أجدادنا عليهم رحمة الله. أى إن العصر الذهبى قد مضى وانقضى، وإننا نعيش الآن فى عصر الصفيح والورق والتراب.. وإنه ليس مطلوبًا منا أن نعجل بقدوم هذا العصر الذهبى.. قد ذهب.

وهكذا يتعاون كتاب العصور الذهبية على أن ييأس الناس من الماضى الذى راح، ومن المستقبل الذى لن يجىء.

أى إننا أمام أناس يرون أن الكاديلاك كان أرخص من الكارو، وآخرين يرون أن الكارو والكاديلاك كلتيهما لعبة، الأفضل هو أن نمشى يائسين إلى مستقبلنا.

فإذا أنت تساءلت: إلى من يكتب هؤلاء الناس؟ فالحق معك!

قد فهمت!

مصادفة غريبة أن أصطدم برجل في مدخل أحد فنادق القاهرة، وقبل أن أعتذر له، نصرخ معًا: أهلاً وسهلاً.

لم أره من ٢٥ عامًا، ولم يكن فى استطاعة أحدنا أن يدبر مثل هذا اللقاء، فقد كان لقاؤنا الأول فى جزيرة بالى بإندونيسيا، كلانا يبحث عن سيارة إلى المطار، وجدناها معًا. تأخرت الطائرة ست ساعات. كانت كافية لنكون أعز الأصدقاء، فنحن أبناء مهنة واحدة -كارثة واحدة- صناعتنا الكتابة، وعندما سألته عن بلاده؛ أخرج خريطة صغيرة، ووضع سن القلم على إحدى جزر المحيط الهادى.

سألته: إن كان لا يزال يعتقد أنه لا توجد وسيلة لأن يكون الكاتب غنيًا إلا إذا أحبته قارئة غنية؟

أجاب: كان هذا رأيى وفشلت، تزوجت وطلقت وعندى ثلاثة من الأولاد.

سألته: إن كان لا يزال يرى أن الكاتب يجب ألا يكون سياسيًا لأن الاشتغال بالسياسة معناه أن تكون فى خدمة الجالس على كرسى السلطة، وأن الكاتب مَلِك، وأن الملك لا يتمنى لملك آخر أن يختاره.

فأجاب: لا يزال هذا رأيى.

قلت كيف أفلحت فى ذلك، وفشل ٩٠٪ من الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء فى العالم كله؟!.

أجاب: لسبب بسيط جدًا هو أنه لا توجد عندنا مشاكل سياسية فى بلادنا، فجزيرتنا جنة لم يزرها إبليس بعد، هل نسيها؟ هل احتقر شأنها؟ هل تركنا لكى يندم كل من يزورنا أنه ليس واحدًا من سكانها.

قلت: لم أفهم..

أجاب ضاحكًا: يا أخى، عندى أسرة تملك هذه الجزيرة، أخى الأصغر هو الحاكم، وأنا الذى أجلسته على العرش، ألا تريد أن تجيء لكى تندم على أقل من مهلك؟.

هكذا! لقد فهمت وندمت.

صالون العقاد..

إنها ظاهرة تستحق الدراسة أن يختار الشبان المثقفون كتابى «فى صالون العقاد ـ كانت لنا أيام» كأحسن كتاب سنة ١٩٨٣، وهى ظاهرة؛ لأن الكتاب دراسة وذكريات أدبية وفلسفية وسياسية ودينية لجيل كامل فى مثل سنى، عاش حائرًا فى الخمسينيات والستينيات بين المذاهب السياسية والفلسفية والدينية، وكان يتردد على أعظم الناس فى زماننا: لطفى السيد، وطه حسين وعبد الرحمن بدوى، وشوقى ضيف، وعبد الرحمن صدقى، وأحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، والشيخ حسن البنا، والدير الدومنيكى، والجماعات الماسونية، وشهود يهوه.. ثم الأستاذ العقاد، إذن هذه الحيرة وهذه التفاعلات القائمة على الحوار ومحاولة الفهم، هى التى تستهوى الشباب، تستهويه لأنه يحتاج إلى هذه الحيوية وهذه الألوان.

ولأن الكتاب جاد -وإن كان قد اتخذ شكل الحوار أو الشكل الروائى أحيانًا لكى أخفف عن القارئ أعباء المعانى العميقة والقضايا الكثيرة- ولأنه فى ٧٠٠ صفحة، وغالى الثمن.. إذن ليس صحيحًا أن الكتب الجادة ليس لها جمهور.. وإلا فكيف نفدت عشرة آلاف نسخة فى خمسة شهور؟!

فليس صحيحًا أن أغلب الشباب فى بلادنا هازل.. وليس صحيحًا أن الكتاب ليست له سوق.. وليس صحيحًا أن الشاب إذا كانت معه عشرة جنيهات وخيرناه بين أن يتفرج على سهرة فى

الأوبرج، وبين شراء كتاب أو عدة كتب، اختار الأسهل وليس الكتاب هو الأسهل.

وليس صحيحًا أن التليفزيون قد صرف الناس عن القراءة الجادة المتأنية.. وليس صحيحًا أننا يجب أن نفقد الأمل فى الإصلاح، وأن نفقد الأمل فى جيل أقوى وأشجع.

إننى أكثر سعادة فقد امتلأ قلبى وعقلى اطمئنانًا على مستقبل كل كاتب جاد؛ لأن هناك مئات الألوف من القراء الجادين أيضًا!

هذه الموهبة!

دور النشر العالمية لكى تقدم مؤلفًا جديدًا؛ تلجأ إلى حيل كثيرة من بينها: البحث عن الأدباء الصغار وتدريبهم سرًّا.. فإذا عثرت على موهبة أدبية نشرت أول أعماله وسط زفة إعلامية واسعة ويفاجأ العالم بالموهبة الناضجة. والحقيقة أنهم لم يجدوها فى الشارع، وإنما عثروا عليها بين عشرات، ثم كانت الحضانة والتربية، ثم أطلقوها صاروخًا فى دنيا الأدب، مثلا فى الخمسينيات ظهرت رواية «مرحبًا أيها الحزن» لفرنسواز ساجان الأديبة الفرنسية، وكانت حدثًا أدبيًّا مدويًّا وعرفنا فيما بعد أن رواية الأديبة الناشئة كانت طويلة ثم أُعطِيت للكاتب الكبير أندريه موروا فاختصرها حتى أصبحت فى خُمس مساحتها. وتوالت أعمالها الأدبية والسينمائية بعد ذلك حتى أصبحت تملك دارًا للنشر.

وأديبة أمريكا كارول أوتس وهى متعددة المواهب؛ شاعرة، روائية، ناقدة، أستاذة فى الجامعة راحت تبعث لإحدى دور النشر بقصصها القصيرة –تسعين قصة– والناشر يقرأ وينتظر هذا الفيض من الإبداع، واستدعى الأديبة الشابة وعرف أن لديها أضعاف ذلك من القصص والروايات والقصائد، وطلب إليها أن تؤجل الغامض من أفكارها، وأن تبدأ بما هو واضح فقط، فإذا عرفها الناس؛ فلتكتب ما يعجبها، ونشرت أكثر من عشرين كتابًا وديوانًا.

ويحدث فى عالم الأدب ما يحدث فى عالم الغناء... أصوات كثيرة يتخيل أصحابها أنها جميلة نعطيهم الفرصة فيواجهون الناس ولا يدل ذلك على أنهم أصحاب مواهب، وإنما على شجاعتهم فى الأداء فقط، وكذلك بعض من يكتبون القصة القصيرة، والمقالة، والقصيدة، والرواية ـ لا يجدون صعوبة فى مطالعة الناس بأعمالهم.

ولكن المهم هو الموهبة الفريدة. هذه الموهبة يجب أن نمد أيدينا إليها، وأن نفسح لها الطريق ونخلى لها الجو، فالتاريخ عربة تجرها المواهب فى العلم، والأدب، والفن، والسياسة، والحرب!.

قراءة الشباب

فى برنامج إذاعى كان السؤال:

بالضبط ماذا يقرأ الشباب؟

واعترضت على كلمة «بالضبط»، فقد جاءت هذه الكلمة مبكرة جدًّا فى هذا الحوار، وإذا كان لابد من استخدامها، قلت: بالضبط يجب ألا يقرأ الشباب شيئًا بالضبط، وإنما يجب أن يقرأ أى شىء، وفى أى وقت. المهم أن يقرأ. وأن يعتاد على ذلك.. إن الشباب عقله مثل معدته قادر على أن يتلقى أى طعام بأية كمية فى أى وقت، والمعدة قادرة على هضم أى شىء.

إنه سليم، صحيح، قوى، وكل وظائف الجسم فى حالة استعداد للعمل طوال الوقت، فكل شىء شاب فى صحة وعافية!

وبعد أن تصبح القراءة عادة.. ضرورة حياة.. لا يمكن أن يستغنى عن الصحيفة، والمجلة والكتاب، ومشاهدة المسارح، والبرامج العلمية والسياحية المفيدة.. سوف يختار.. ويكون الاختيار قائمًا على ضيق وقته، وعلى أن له مزاجًا خاصًا. هذا المزاج قد حددته همومه واهتماماته فى الحياة ـ الحياة العملية والحياة العلمية..

وأنا لا أقول لشاب لا تأكل إلا المسلوق، لا تأكل إلا اللحوم.. لا تذق إلا الفواكه. أبدًا.. وإنما ألفت نظره إلى فوائد الطعام. أو إلى الجمع بين اللذة والفائدة، وكذلك فى القراءة: الجمع بين المتعة والمعلومة.

وسوف يختار الشباب ملابسه وألوانها، ويختار أصدقاءه، ويختار رياضته، ويختار بنت الحلال، والبيت المناسب، ويختار العلاقات الاجتماعية، والعلمية، والسياسية.. ويختار عدد أولاده.

فينصح أولاده ويوجههم بنحوٍ أفضل مما فعل أبواه ـ وهذا هو التطور.. جيل يضيف شيئًا إلى جيل سابق.. وتكمل الأجيال بعضها البعض، وترفض بعضها البعض، ومن هذا الرفض تتولد القوى المحركة للتاريخ.. وقد تعلمنا من كارل ماركس وأستاذه هيجل: أن البذرة نضعها فى الأرض فتخرج النبتة، ومن النبتة تخرج الشجيرة، ومن الشجيرة تخرج الشجرة ـ كل واحدة تقوم على التى سبقتها وترفضها وتنكرها. ولكن لا غنى عنها!

وعقلى مثل معدتى، لا يهم ما الذى أحشره فيه، ولكن ما الذى يقدر على هضمه!

.. لو خطفونى!

ليس أخف دمًا من توفيق الحكيم، إنه يريد أن يقفز من السرير ويهرب، ولكن ساقيه لا تساعدانه. وأمس رأى فى النوم أنه في مدينة الرياض وأنه يمشى فى الغرفة دون عصا، فأسعده ذلك وصرخ: لقد شُفِيتُ. فأيقظته الفرحة. ولكن خياله ذهب إلى أبعد.. وتساءل: لماذا لا يخطفه أحد... فكرة... ولكن من الذى يفعل ذلك؟ وما الفائدة؟ فلا عنده فلوس، ولا أحد مستعد أن يدفع له فدية ـ لا الأدباء الفقراء ولا الدولة المشغولة بالصرف الصحى وحُمى البقر، إذن لابد أن الذى يخطفه سوف يكسب مما يكتب فى الصحف المصرية والعالمية، وسوف يجد فائدة مادية ملموسة.. فكر توفيق الحكيم، فوجد أن الخاطف لابد أن يكون صاحب مشروع استثمارى.

يريد أن يلفت العيون والأقلام والكاميرات والأموال إلى هذا المشروع، وعاد توفيق الحكيم يفكر فى عمل دعاية أكثر لهذا المشروع، فرأى أن يقال: إن عصابة يهودية هى التى خطفته.. ثم راح يتساءل: ولكن ما فائدة الحكيم لليهود؟.

ثم عاد الحكيم يتساءل: ولكن ما فائدتى أنا شخصيًا من الدعاية والخطف والخطف المضاد؟

وتساءل: وما الذى سوف يقوله الأطباء وهم يناشدون الخاطفين أن يعيدونى بسرعة؟

يقول الحكيم: لابد أن الأطباء سوف يصارحون الخاطف بما لم

يقولوه لى.. فهم يؤكدون لى كل يوم أننى فى صحة جيدة، ولكننى لا أرى ذلك.. هنا فقط سوف أعرف طبيعة مرضى. ولو عرفت الحقيقة فربما رجوت الخاطفين أن يحتفظوا بى بعيدًا عن الأطباء الذين لا يكفون عن السعادة والبهجة كلما رأونى! بينما لا تساعدنى يدى أو ساقى.

ونظرت إلى الفنان الكبير صلاح طاهر أقول له: ما رأيك. نخطفه؟

فنحن أولى بعظام توفيق الحكيم!.

فقال: وأين نضعه؟

قلت: فى بيت وزير الثقافة، أو وزير الصحة.. أو وزير السياحة!

وقاطعنا توفيق الحكيم وهو يقول: أبدًا.. فى البنك الأهلى!

وأجبناه إلى طلبه ونقلناه إلى مستشفى المقاولين مرورًا بالبنك الأهلى ومصر الدولى ـ فتحسنت صحته كثيرًا!

كلمات عاشت!

دخلت اللغات كلمات أجنبية.. وانتشرت، وأصبح لا معنى لتغييرها بمرادفات عربية: التليفون والتليفزيون والسينما!

وقد حاولت ألمانيا النازية استخدام كلمات ألمانية ـ وطنية، بدلاً من الكلمات العالمية التركيب ـ لاتينية يونانية ـ ولكنها عدلت عن ذلك.. فعادت إلى الكلمات العالمية.

الفرنسيون أدانوا هذه الكلمات فوصفوها «بالفرنجلية» ـ أى الفرنسية الإنجليزية، ولكن هذه الكلمات انتشرت ولم يعد فى قدرة أحد أن يوقف انتشارها!

وفى لغتنا أيضًا كثير من الكلمات التى انتشرت دون أن نلتفت إلى أصلها: اللوكاندة، والأوضة والزمبة «تركية»، الأوتل «أوربية»، الفندق «ألمانية»، ومن النادر أن نستخدم الكلمة العربية: النُّزل!

وكلمات: الكابينة «أوربية»، والشاليه «فرنسية»، والبلاج «أوربية»، والبلكونة والتراس «أوربية» والرستوران «أوربية»، والكاميرا «إيطالية»، والكاتينة والأسطى والشكاربين والبلينا «الجالينا» وكلها إيطالية.. وفى القرآن الكريم مثل هذه الكلمات الفارسية والآرامية والعبرية والنبطية والزنجية: الأباريق والأسباط والتنور والدينار والفردوس والمشكاة والزنجبيل والسِّجِّيل والقسط والقنطار والسرادق والأرائك والياقوت واليم

والقراطيس والطاغوت والملكوت والسلسبيل والكافور والقسورة والسندس والرقيم والإستبرق والأكواب.. وغيرها..

والاستخدام اليوم للكلمات الأجنبية يجعلنا نقوم بتصريف الكلمات وإدخالها القوالب النحوية العربية، فنقول: تلفن.. وبرمج ومكيج وسشور ودكن - وطنش وطناش «نسبة إلى رجل يونانى اسمه طناشى كان عضوًا فى مجلس الأمة، ولم يكن يتكلم.. فالذى لا يتكلم ولا يسمعه أحد، ولا يريد.. فهو طناش».

والإنسان هو: الحيوان صانع الأدوات.. وهذه الأدوات هى التى يستخدمها فى حياته اليومية.. والحضارة هى المواصلات.. واللغة أرقى وأعمق وأعظم وسائل المواصلات.

وأنت لا تسأل أين صُنِعت الطيارة والسيارة والقاطرة. أنت تستخدمها أولاً وقبل كل شىء..

١ - دعاءُ الملك فهد..

قرأ الملك فهد خادم الحرمين ما كتبته هنا عن أستاذنا العظيم توفيق الحكيم، الذى رأى فى نومه أنه فى مدينة الرياض، وأنه وجد نفسه يمشى بلا عصا.. فأسعده ذلك وصاح: لقد شفيت.. لقد شفيت. فأيقظته الفرحة!

فاتصل الملك فهد بالسفير أسعد أبو النصر ليدعو توفيق الحكيم باسم الملك إلى السعودية فى طائرة مجهزة بأحدث الأدوات الطبية وأكبر الأطباء، لعل تحقيق هذا الحلم أن يكون إشارة إلى شفائه بإذن الله..

وانتقلنا إلى توفيق الحكيم وكان مرهقًا. وشكر للملك فهد هذا الاهتمام الأخوى. وتمنى له النجاح والسداد. فالحكيم يجد راحته الكبرى فى مستشفى المقاولين، وفى الجناح ٤١٤ الذى يحمل اسمه وصورته ويطل على أشجار المستشفى.

ومن الغريب أن الصحف تنشر أن الحكيم فى التاسعة والثمانين من عمره، أو لم يكملها، مع أن شهادة ميلاده تقول: إن حسين توفيق الحكيم قد ولد فى الإسكندرية يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٠٢.

وفى هذه السنة ولد الأديب الأمريكى شتاينبك، ومات الأديب الفرنسى زولا، وهرب تروتسكى الزعيم الروسى من سجون سيبيريا إلى لندن.. وصار بلفور رئيسًا لوزراء بريطانيا.. وتدفقت لأول مرة مياه خزان أسوان، وثار بركان المارتنيك فهدم مدينة

القديس بطرس، وفى هذه السنة ظهرت روائع أدبية: رواية «الخالد» لأندريه جيد.. و«الحضيض» لجوركى، ورواية «فرانشيسكا داريمينى» للشاعر الإيطالى داتسيو، وفاز بجائزة نوبل فى الأدب: الفقير أديب الفقراء «تيودور مومسن»، وظهرت مسرحية «مونا فانا» للأديب البلجيكى «مترلنك».

وفى الموسيقى كتب الموسيقار إيلجار أولى سيمفونياته عن «الأبهة»، ومنذ أيام كان توفيق الحكيم يقول: لو مد الله فى عمرى سنتين، لكتبت شيئًا جميلاً.. ثم سكت ليتساءل: وهل يصدقنى الله؟.. لقد أعطانى عمرًا طويلاً ولم أكتب هذا الشىء الجميل.. كل ما أرجوه هو أن يجربنى هذه المرة!

ومن يدرى.. ربنا كبير!

٢- عن الموت..

فى اللقاءات الأخيرة مع توفيق الحكيم كان هو الذى يتحدث جادًا عن الموت وعن لقاء الله. وماذا يقول لو سأله الله.. وماذا يقول يسأل الله سبحانه وتعالى. إنه لم يفهم من دنياه شيئًا. فما دام لم يفهم، فهو لم يخطئ عامدًا. وإنما عن جهل. ولذلك سوف يكون حسابه هينًا.

يريد أن يعرف ما الذى قاله العقاد وطه حسين. وأنه على يقين سوف يعرف ذلك بعد وفاته، فنحن لسنا إلا حشرات مستنيرة. والفرق بيننا وبين الصراصير هو القليل من العلم، ولكن العلم كله عند الله، ولذلك سوف يحاسب الإنسان ولن يحاسب الصراصير وغيرها من الحشرات!

وكان يقول: إننا - نحن الأدباء والفلاسفة - قد آمنا بالكلمة وقداسة الكلمة. وعشنا ومتنا نقرأ ونكتب.. وكان من نصيبنا أقسى وأقصى درجات العقاب: الفقر! بينما الذين يحتقرون الكلمات ويمسحون بها الأرض ويضحكوننا على ذلك هم أغنى الناس.

وكان يقول: لو كتب الله عمرًا سنتين فسوف أغير من أسلوبى فى الحياة، سوف أتحول إلى أراجوز، ثم يرد على نفسه قائلاً: ولكن الله لن يصدقنى. فقد أعطانى هذا العمر الطويل ولم أصلح من حالى، فهل من المعقول بعد أن كبرت وخرفت أن أغير نفسى وأعمل ما هو أحسن وأفضل!

ليس معقولاً أن الله قد أعطانى موهبة، لأن لها دورًا فى حياتى، ولأن لى دورًا فى حياة الناس، ثم يعطينى بعض الوقت لكى أنسفها ومعها إيمان الناس بكل موهبة!

وعندما طلب منى أن أنقله إلى الجناح الخاص به فى مستشفى المقاولين قال: هناك سوف أجد راحتى الأبدية!

عندما دعاه الملك فهد للعلاج فى الرياض تحقيقًا للحلم الذى رواه وكتبته فى هذا المكان، قال الحكيم: موافق. بشرط أن تنقلوا هذا الجناح إلى هناك!

لقد سبقنا إلى الموت: إلى الشعور به، فكان زواره كأنهم من المشيعين.

آخر العمالقة: يرحمه الله لم يفاجأ بالموت، ولكن هو الذى فاجأ الموت بأنه استعد للقائه ساخرًا منه ومن الحياة معًا!

١- اختلف العقاد وطه حسين

اختلف الأستاذان العقاد وطه حسين حول: التذوق الأدبى.

كان من رأى العقاد: أن هناك استعدادًا فطريًا للإحساس بالجمال، وأن هذا الإحساس غريزة فالذكور فى الطيور والحيوانات أجمل وأفخم من الإناث. وأن الذكور حريصة على إظهار ذلك. وأن الإناث تدفع الذكور إلى هذه الأبهة المثيرة. فكلاهما بالغريزة محب للألوان والاستعراض والقوة والجاذبية.

ولكن طه حسين يرى غير ذلك فهو يخالف العبارة الشهيرة التى تقول: لا تناقشنى فى ذوقى أى إن الذوق لا يصح مناقشته. إنه هكذا فطرة طبيعية، وكل واحد حر فى ذوقه، وأنت لا تفرضه على أحد. طه حسين يرى أن هذا خطأ بل الذوق يمكن تعليمه. ومن الواجب تعليمه للصغار، فيتعلم الصغير: النظام والنظافة والجمال وحب الحياة، وكما أننا نروض الطفل، يجب أن نروض ذوقه أيضًا وأن نوضح له ما الفرق بين الشىء النافع والشىء الجميل.. فمربى الورد شىء لذيذ، ولكن الوردة الجميلة لا نأكلها ولا نشربها، وإنما نشمها ونلمسها ونتزين بها.. فهى جميلة، ولكنها ليست نافعة، ونحن نرى القمر عاليًا مضيئًا فضيًا، ولكننا لا نمد أيدينا إليه، كما نمدها إلى «التورتة» مثلاً.

العقاد يرى ـ مثل سقراط ـ أن كل المعانى والفضائل نائمة فى أعماق الإنسان، يجب أن نوقظها فقط.. إنها هناك.

أما طه حسين فيرى أنه لا شىء هناك فى أعماق الإنسان غير

الغرائز الحيوانية.. أما الذوق فهو إحساس جديد عليه.. فبعد أن وجد الإنسان كل ضرورات الحياة، اتجه إلى تزويق وتلوين وأناقة كل ما هو ضرورى: الطعام والشراب والآنية والفراش والبيت. ولأنه لم يعد يخاف من الغابات؛ فهو يزرعها، ولأنه لم يعد يخاف من الكهوف؛ فهو ينام فى الظلام وحده، وهو يربى الحيوانات ويقتنيها.

فنحن - إذن - من الواجب أن نوقظ هذه الإحساسات بالجمال فى أعماق الأطفال، فإذا صحت وجب عليها أن تجعل يقظتها هادئة محبة للنبات والحيوان والإنسان والسلام.

٢- قفشة العقاد

كانت للأستاذ العظيم عباس العقاد قفشة شهيرة عندما يضيق بالناس، كان يقول: إذا أرادوا الدعوة إلى الإسلام نشروا كتبي.. وإذا أرادوا الحملة أو الهجوم على الشيوعية نشروا كتبى.. وإذا أرادوا ترشيح أحد لجائزة نوبل رشحوا طه حسين!

فالذين يهتمون بالأدب وإحياء ذكرى عظمائه، يحتفلون بمرور مائة عام على ميلاد طه حسين - مع أن العقاد، والمازنى، وعبد الرحمن الرافعى، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضى، والفنان محمد ناجى، قد ولدوا جميعًا فى نفس السنة.. أى بعد قيام الثورة الفرنسية بمائة عام.

أو لعلهم يحتفلون بالحاصلين على شهادات علمية أو شهادات جامعية ومعهم حق، فالعقاد ليس لديه أى مؤهل علمى.. وكان طه حسين يقول: إن العقاد لأنه لم يدرس دراسة أكاديمية فواضح مما يكتبه أنه لا يذكر المراجع التى اطلع عليها عندما يعرض أو يناقش رأيًا من الآراء.

ولكن عشرات الدرجات العلمية قد حصل عليها جامعيون عندما درسوا العقاد. وليس عيبًا فى العقاد. كما أننا لا نعرف ما المؤهل الجامعى الذى حصل عليه العباقرة فى كل العصور، ابتداءً بالمتنبى، وأبى العلاء، وانتهاءً بشيكسبير وفولتير.

إن هذه السنة ١٨٨٩ لهى من أعجب سنوات التاريخ الحديث؛ إذ تصادف فيها ميلاد عدد كبير من النابهين فى الأدب والفلسفة

والسياسة، ففيها وُلِد هتلر، ونهرو، وشارلى شابلن، وكوكتو، وثلاثة من الفلاسفة العظام هم: هيجل الألمانى، ومارسيل الفرنسى، وعميد المؤرخين توينبى، وغيرهم.

إنها فرصة رائعة لأن نعيد التفكير والدراسة والنشر لهؤلاء النابهين من أبناء الأمة العربية فنقرأ، ونحلل، ونتذوق أفكارًا رصينة أكثر جدية وأكثر عمقًا ـ وليس يكفى أن تكون لهم طوابع بريد وإنما ندوات، ومحاضرات، ودراسات، وكتب بعد ذلك!

يارب ماذا ترى؟

فى الأدب العربى عدد كبير من الشحاذين الشعراء.. وسيلتهم الوحيدة فى الحصول على لقمة العيش هو أن يمدحوا الناس أو يهجوهم.. لا شغلة ولا مشغلة وعددهم كبير.

فقراء جدًا، ولكنهم ظرفاء.. يدورون حول الأغنياء، وينامون على بلاط الملوك والأمراء.. حتى العظماء من هؤلاء الشحاذين يعملون بالقطعة.. أى يمدحون وينتظرون المكافأة.. فإن كانت سخية، نظموا قصائد أخرى في المدح.. وإن كانت المكافأة قليلة أو أقل من الشاعر الفلانى هجوا وهربوا إلى ملك آخر.. حتى الشاعر العظيم المتنبى كان واحدًا من هؤلاء، وإن لم يكن شحاذًا.. فهو قد أحب وكره، وتفانى وهجر، وأقام الدنيا لهذا الملك، وهدمها على رأس ذلك الملك.

والسبب: الفلوس والسلطة!

ولا نعرف لهذا المتنبى العظيم عملاً أو وظيفة ـ يكفى أنه شاعر عبقرى عاش ومات قتيلاً يحلم بأن يكون واليًا أى كبيرًا بلا وظيفة!

ويقال: إن أحد الملوك وجد شاعرًا يجلس بجوار أحد المساجد، وقد علق هذه الأبيات وراءه:

يا رب إنى سائل كما ترى
لابس جلبابى كما ترى
وزوجتى قاعدة كما ترى

والبطن منى خالية كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى؟

أى إنه يسأل الله: ما رأيك وماذا ستفعل لنا وحالتنا لا تخفى عليك؟! فهجم عليه الوالى وضربه بالعصا.. وإذا بالشاعر يجرى بمنتهى الحيوية والشباب.. وإذا به يدوس أفعى غليظة فيقتلها.. وكان الناس قد تعبوا من مطاردة الأفعى.. وقد كافأه الوالى على ذلك.. ثم أمر الشعراء بأن يقتلوا الثعابين فى المدينة مقابل راتب شهرى. وهرب الشعراء.. ولم يعد الناس يجدون شيئًا يضحكون عليه.. فاستدعاهم الوالى.. ورفضوا واعتذر، وأغراهم بمرتبات شهرية كبيرة.. ولكن أربعين منهم اتفقوا على مطلب واحد ألا يكون لهم ديوان يترددون عليه، وألا يروا الشمس، وألا تراهم.. أى أن يناموا طوال النهار ـ وليس هذا جديدًا.. فعندنا ملايين مثلهم لا يقولون شعرًا، وينتظرون العلاوات والحوافز، ثم إنهم ليسوا ظرفاء!

ألف ليلة!

لم نكن نعرف ما الذى نقوله للباحثين الأجانب وهم يسألون عن سبب مصادرة «ألف ليلة وليلة» ـ وهو كتاب قديم تاريخى يتداوله الناس من مئات السنين.

ماذا حدث؟ ما الجديد الذى دفع إلى الخوف منه على المجتمع؟ هل الطبعات التى فى الأسواق قد أضيف إليها ما يدعو إلى الخجل منها؟ هل ستكون ألف ليلة أول قائمة الكتب المحرمة فى الأدب العربى القديم والحديث.. هل سيؤدى ذلك إلى مصادرة دواوين الشعراء العظماء بسبب ما فيها من غزل مثير جميل؟

وأخيرًا حكم القضاء بالإفراج عن الكتاب الشعبى الذى اشترك فى تأليفه ما لا نعرف عددهم من الأدباء، وظهر فى شكله الذى نعرفه الآن فى القرن السادس عشر، وترجماته إلى اللغات الأوربية بعد ذلك.. وقد أخذ منه الشعراء الشعبيون في مصر قصص البطولة والمواعظ الأخلاقية والسياسية.. وخرجت «ألف ليلة» سنة ١٨٣٧ من المطبعة الأميرية ببولاق.. والآباء اليسوعيون طبعوها فى بيروت سنة ١٨٨٨ .. ومئات الطبعات فى عشرات اللغات.. وكان حكم القضاة حكمًا للقضاء نفسه.. جاء الحكم دليلاً على اتساع أفق القاضى المصرى وعمق نظرته وشمول حكمته. وقال القاضى المصرى: إن هذا كتاب تاريخى، وإن أحدًا لم يقصد به الإثارة ولا إفساد الناس.

وإن الكلمات الخارجة ليست مقصودة لذاتها.. وإن الإنسان

يحتاج إلى جهد كبير؛ لكى يعثر عليها.. وبهذه المناسبة أتذكر أن الرقيب الأمريكى قد صادر رواية «عشيق الليدى تشاترلى» للروائى الإنجليزى د. هـ . لورانس.

وصادر رواية «لوليتا» للكاتب الأمريكى الروسى نابوكوف. وتشكلت هيئة من المحامين قالت: إن الكتاب المقدس الموجود فى كل بيت وإلى جوار سرير كل فتاة، به قصص عارية، ولا يمكن أن يكون القصد من هذا الكتاب المقدس إفساد الناس، ودفعهم للخروج عن الدين!

ولكن المعقول أن يقال: إن هذه القصص جاءت لحكمة أخلاقية تاريخية. وحكمت المحكمة لصالح الأدب والفن الجميل وحرية التعبير عند الفنان، مادام الهدف ليس إفساد الناس، شكرًا لقضاة مصر.

خرافة: جمال حمدان

شاء العالم الجليل د. جمال حمدان أن يجعل من نفسه شخصية خرافية، نقرأ له ونسمع عنه، ولا نراه... نحن لا نستطيع وهو لا يريد... وقليلون جدًا الذين رأوه وجلسوا إليه فى العشرين عامًا الماضية. وكنت واحدًا من عشاقه والمفتونين به أيضًا.

وقد صدر للدكتور جمال حمدان كتابه الموسوعى «شخصية مصر» فى ثلاثة أجزاء، وسوف يصدر جزء رابع، ولابد أن يكون الناشر عاشقًا له، ومؤمنًا به، وخادمًا مخلصًا للثقافة المصرية - مهما كلفه ذلك من مال. وقد كلفه كثيرًا.

ود. جمال حمدان شاعر يتغنى بروعة الجغرافيا: الصخور والأنهار والبحار والصحارى.. وهو صاحب فلسفة تمشى على ساقين: الجغرافيا والتاريخ.

وله نظرية قادرة على استيعاب الصخور والرمال والنبات والحيوان والإنسان.. إنها نظرية التفسير الجغرافى للتاريخ.. أو التفسير المادى للحياة في مصر. ومادام د. جمال حمدان ينتسب إلى الماضى بشخصه، وإلى الحاضر بفكره فإننى أصفه لك ، لعلك تراه.. إنه نحيف، طويل، ممشوق القوام، دقيق الملامح حاد الأنف والشفتين والنظرة. ومنظاره من زجاج أبيض. فإذا تحدث إليك فإنه غائب عنك، ولن ترى على ملامحه إلا نوعًا من الصرامة والحزن، أو نوعًا من التشاؤم النهائى، أى إنه قرار قد اتخذه ولا رجوع فيه –ولست طرفًا فى هذا القرار– إن الدنيا

راحت تدور أمامه، كما تدور الكرة الأرضية.. فقرر أنها لا تساوى شيئًا.

أما الذى يساوى فهو العلم والبحث عن الحقيقة، وقد تفرغ لذلك. وأقفل بابه راهبًا يقلب فى الصخور ويضعها عند أذنيه ويسمع ويكتب.. ثم يسحقها رمالاً بين أصابعه.. ويبللها بعرقه.. ويضع فيها البذور، ويلقى عليها بالماء.. ويتفرج ويتغزل ويتعمق ويكتب.

إن موسوعة «شخصية مصر» تستحق الاهتمام العظيم من الدولة، ومن كل مؤسساتها العلمية. والمؤلف نفسه يستحق كل احترام وتكريم –فليس كثيرًا فى تاريخ الفكر أن ننحنى إكبارًا لمن زهد فى الدنيا وتزوج الفكر– وكذلك الناشر يوسف عبد الرحمن الذى وضعه تاجًا على رأسه، واكتفى بهذا التفانى من أجل المعرفة.

مات تيمور..

يرحمه الله الأستاذ الكبير محمود تيمور. فقد كان يتعجل هذا اليوم الذى توفى فيه.

ففى كل عام كان يكتب تاريخ حياته. وأهم أعماله الأدبية. والقضايا الأدبية التى أثارها، وموقفه منها. ورأى المؤرخين والنقاد فيه، ثم يسرد أهم أعماله الأدبية التى ترجمت إلى اللغات العالمية.

وهذا يدل على أنه رجل دقيق، وفى نفس الوقت رجل لا يحسن الظن كثيرًا بالنقاد. فهو يعلم أن الكثيرين منهم لا يقرأون ولا يتابعون كل الأعمال الأدبية، ولا يتابعون نشاطه هو بصفة خاصة. ثم هو فى نفس الوقت لا يأمن أقلامهم، ولا يعتمد على ذاكرة أحد.

ومعنى ذلك أيضًا أن الموت قد عايشه، وينتظره بين لحظة وأخرى. ولذلك لم يكن مفاجأة له أنه مات. فقد قاوم الموت بانتظاره، وقاوم النسيان وسوء التقدير بهذه الترجمة الذاتية التى يوزعها على من يطلبها، ومن لا يطلبها من الأدباء والنقاد.. أو لعل محمود تيمور أراد أن يكتب نعيه هو أيضًا، وبذلك يوفر على الناس مجاملتهم له، حيًا وميتًا.

وكان الكاتب الكبير محمود تيمور منظمًا جدًا فى عمله، ودقيقًا فى مواعيده، ومجاملاً، ورقيقًا. وإذا كان جسمه قد ضعف؛ فإن عقله وذكاءه ووجدانه كانت كلها على أشدها. والذى

يقرأ مقالاته الأخيرة عن الأدباء، والشكل الأدبى لهذه المقالات، وهو يقارن بينهم اثنين اثنين. يجد أن الرجل كان فى غاية الذكاء والبراعة. وكنت أداعبه، وأقول: إنه فى غاية الخبث أيضًا:

وكان يضحك رحمه الله، ويقول:

فعلاً أنا رجل خبيث!

وقد حاول محمود تيمور فى كل حياته أن يقف إلى جوار اللغة العربية الفصحى، وأن يكون مادة للفكاهة، وأن تُنسب إليه تعبيرات لم يقلها. وترجمات لا يعرف عنها شيئًا.

وقد داعبته مرة ونسبت إليه ترجمة كلمة كافتيريا، فقلت: إن تيمور قد اختار لها كلمة: قهوشيما، أى: مكان القهوة والشاى معًا.

وكان يضحك ويقول: الكلمة لا بأس بها، ولكننى لم أقلها!.

وكنت أداعبه وأقول له: إن التيمورية أشهر منك!

وكان يتساءل فى بساطة وصفاء: كيف؟

فأقول له: لا أقصد عائشة التيمورية.. وإنما المانجو التيمورية!

كان تيمور من رواد القصة، والرواية، والمسرحية، والنقد الأدبى.. وكان أسبقنا جميعًا إلى كتابة نعيه، وسجل أعماله الأدبية الباقية فى لغتنا وفى اللغات الأخرى!

.. الشاعر اليمنى!

إذا كنت لم تعرف شاعر اليمن عبد الله بن يحيى العلوى؛ فهذه فرصة خاطفة لكى أعرفك به. فهو ممثل اليمن لدى منظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، وهو أول شاعر نظم جلسات جامعة الدول العربية شعرًا.. ليست كل الجلسات فقط، ولكن أى نشاط لأعضاء الجامعة فى المطعم والفراش، ودورات المياه ، وكان تسجيله لكل ذلك دقيقًا، ولأنه كان دقيقًا، كان منفرًا و «مقرفًا» ، وهذه الكلمة الأخيرة من الكلمات الوجودية الحديثة، فمن أهم المعانى التى اهتدى إليها فيلسوف الوجودية سارتر: كلمات القرف، والغثيان، وكلمات أخرى لا أحب أن أذكرها؛ لأننى لا أطيق ذلك. والشاعر اليمنى «وجودى» بهذا المعنى «المقرف»، دون أن يقصد إلى ذلك، وهو بهذه الصورة يعتبر سابقًا لعصره وشعبه.

ولو ترجم ديوانه إلى أية لغة أجنبية؛ لأدخلوه قاعات الخالدين من الأبواب الخلفية.. ولكنه رجل متواضع يعرف حدود نفسه وفنه.. ويمارس نشاطه الوحيد فى كتابة الخطابات المنظومة لكل الناس.. فى مناسبات غير فنية وغير جمالية.

وآخر أعمال الشاعر اليمنى: قصيدته التى تقع فى مائة بيت عن الصراصير.. وأنا أقتطع منها الأبيات التالية، وإذا شاء أحد

من القراء المزيد منها ـ من الصراصير أو من القصيدة ـ فليتصل بالشاعر فى تليفونه رقم ٨٠٠٧٧٤ بالزمالك.

وهو يحب ذلك وينتظره، يقول الشاعر العلوى فى الصراصير واللبن «المبستر»، ولكنه لا يهتم باللبن فهو لا يشربه ولا يحبه، وإنما هو مهتم فقط بنشاط هذه الحشرات وهى تنتقل بين دواوينه وأوراقه وزجاجاته. يقول:

إليك زجاجة «اللبن المبستر»
ففى أحشائها شىء محجر
إذا حركتها يمنى ويسرى
سمعت رنينها كرنين خنجر
ولا أدرى ولست أخال أدرى؟
أصرصور بها أم بعض جوهر؟
فقم وافتح مخبأها سريعًا
وأعلنها على ملأ لينشر
وحظك فوق حظى يا «أنيسى»
ومن يك اسمه «المنصور» ينصر
أقدمها إليك كخير ذكرى
لتكشف عن خباياها لتحجر
وترسلها «مواقف» بل سهامًا
على إهمال صانعها ليزجر
ولو أنى شربت اليوم منها
لكان دمى على جسمى مفجر
وكنت على شفا وادى المنايا

ومت ضحية «اللبن المبستر»!!

وأرسل مع القصيدة زجاجة لبن، وقد اختنق فى داخلها «صرصار»، خلدته هذه القصيدة ـ أو هو الذى خلد القصيدة!

صحيح أن هذه القصيدة ليست فى جمال قصيدة له عن «البراغيث».. ولكنها أروع ما كتب حتى الآن!

٣ رجال ..

يقول كاتبنا الكبير محمود تيمور فى أحدث مسرحية له اسمها: «طارق الأندلس»: إن هناك ثلاثة أنواع من الرجال: رجال تطاردهم النساء، ورجال يطاردون النساء، ورجال تطردهم النساء!

وما يقال عن الرجال والنساء، يقال أيضًا عن الرجال والحقيقة ـ وقد عاش تيمور يطارد الحقيقة ـ يبحث عنها فى القصة القصيرة، والرواية والمسرحية، بل إن تيمور قد قسا على الحقيقة نفسها، فحاول أن يعلمها كيف تنطق بالعربية الفصحى، وعندما أدركت قسوته عليها، راح يؤكد لها أن الكثير من الكلمات العامية التى يستخدمها هى كلمات فصحى أيضًا.

وأستاذنا الكبير محمود تيمور قد أكمل الثمانين من عمره اليوم، أطال الله عمره، وأفاض عليه بخفة الروح والمرح والدهاء. وهذه الكلمة الأخيرة تبدو فى غير مكانها؛ لأن الذى يرى الأستاذ تيمور، ووجهه الهادئ، وصوته الخفيض الناعم، وأدبه ورقته وعذوبة كلامه، يُخيَّل إليه أن هذا الرجل لم يبلغ الثمانين عامًا، وإنما هو فى الثمانين يومًا أو الثمانين شهرًا: طفل كبير، ولا تكاد ترى رقته ورحمته، حتى تجعل من نفسك حفيدًا أو ابنًا له. وقلب تيمور يتسع لما لا عدد له من الأبناء والأحفاد..

ولم أعرف أن تيمور داهية حقيقة إلا فى وقت متأخر جدًا، فقد دأب كاتبنا الكبير على أن يكتب سلسلة من المقالات الأدبية: العقاد والمازنى.. إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى.. عبد الرحمن

صدقى وسليمان نجيب، وعندما كتب عنى لم يجد لى شريكًا فى أسلوبى أو تفكيرى ـ أشكره على ذلك، على كرمه وتشجيعه، ولكن لاحظت أن محمود تيمور عندما كتب عن العقاد والمازنى كان على درجة عريقة من الخبث والدهاء، وقد أذهلنى ذلك، فقد استطاع تيمور بلباقة متمرسة، وخبث مدرب أن يجعل كل مزايا العقاد عيوبًا فيه.. صحيح أنه قال: إن العقاد عقلية كبيرة، ومعدة هاضمة، وقدرة فائقة على الفهم والإفهام، ولكنه رد ذلك كله فى النهاية إلى أن العقاد طويل القامة لا يمشى كثيرًا فى الشارع، وإنما يجلس فى البيت، وأنه لم يذهب إلى الجامعة، فقرر أن يكون هو الجامعة، وأنه مصاب بالمصران الغليظ، وهذا من شأنه أن يجعله عصبيًا معتدًا بنفسه، لا صبر له على مناقشة الآخرين.. فالذى أعطاه باليمين أخذه باليسار.. أو الذى أعطاه عاد فسحبه فى نفس الوقت!

تمامًا كما أقول: إن فلانًا هذا أجمل وألطف حمار فى مصر!

وبهذا المفهوم الخبيث عدت أقرأ ما كتب الأستاذ تيمور، فوجدت أن الرجل قد أخفى خبثه فى نعومته، ودهاءه فى بساطته!

ولكن أستاذنا الكبير تيمور، أطال الله قلمه، وخفف ألمه، ورفع علمه.. واسع الصدر، منظم مهذب، مجامل.. فى حالة اكتفاء ذاتى، فهو فى كل سنة يكتب تاريخ حياته، وأهم أعماله وما قاله النقاد فيه، وما يجب أن يقولوه. إنه يؤمن بما يقوله الشاعر القديم: ومن لا يُكْرِم نفسه لا يُكْرَم.

ولذلك يسبق المؤرخين والنقاد إلى اختيار المكان المناسب له فى تاريخ الأدب المصرى والعربى، وهو أفضل مكان لخير كاتب!

سيمون دى بوفوار

أعظم الأديبات سيمون دى بوفوار، توفيت أخيرًا بعد سنوات من وفاة حبيبها وصديقها وزميلها وزوجها - بلا عَقْد - الفيلسوف العظيم سارتر.

توقعت هى أن تعيش بعده فقط لتصدر كتابين عنه، وتجمع كل رسائله وتنشرها فى أربعة كتب. وقد أنجزت ذلك وفيلمًا تليفزيونيًا عن حياتهما، التقيا فى الجامعة وكانت أكثر تفوقًا، وارتبطا بعمق، هو الفيلسوف وهى الأديبة والمؤرخة. وهى ذات أسلوب أدبى جميل، ولكن الفلسفة الوجودية هى الإطار والستار والطريق، أروع دراستها عن «الجنس الثانى» عن المرأة وتكوينها وحريتها وحقها فى الحياة المستقلة الكريمة، ثم إنها أرَّخت لجيلها من الأدباء فى مسرحية «المثقفون».. ولكن جوهر مذهبها الفلسفى هو «الوجودية» مع تعديلات تناسب رأيها فى إنصاف المرأة - كإنسان شريك - فكل امرأة حرة فى أن تختار.

ومرت بالتجربة الصعبة التى تعيشها زوجة الرجل العظيم.. فهى تعيش فى ظله. وحين حاولت أن يكون لها وجود مستقل، فإنها تلجأ إلى أقسى قدراتها، ولكن الناس يظلمونها كثيرًا عندما يبحثون عن سارتر فى جيوبها العقلية والفنية.

وإن كانت تضيق فى بعض الأحيان بذلك، ولكنها فى النهاية سعيدة بأن تكون الزميلة هى التلميذة الخالدة لأجرأ وأعمق المذاهب الفلسفية بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد حاول سارتر - وهى - أيضًا أن يطيل عمر الفلسفة الوجودية.. فبدلاً من أن تدور حول الفرد فى مواجهة المجتمع المنهار، جعلها تنام على صدر الاشتراكية، وتستعير منطقها الجدلى فى الوصول إلى العدل الاجتماعى.

والاثنان جاءا إلى القاهرة وذهبا إلى قطاع غزة. ووقف سارتر وسيمون إلى جانب القضية الفلسطينية، وشاهدنا الاثنين يمسحان دموعهما وهما ينظران إلى السادات يهبط أرض إسرائيل.

وكانت لسارتر هذه العبارة: هذا السادات استطاع فى خطوة واحدة أن يعيد الإنسانية إلى عصر الأساطير الإغريقية.. عصر الخوارق يقوم بها كائن واحد.

لا عذر له!

لا يوجد عذر واحد مقبول لأن يخطئ وزير العمل فى النحو، وفى يوم العمال.. ما الذى يمكن أن يقوله؟

هل أعطى حروف الجر إجازة.. فلم تعد الحروف: فى ومن وعلى جرارات تسحب وراءها الأرض والسماء؟!.

إن أخطاء وزير العمل فى النحو لا يصح السكوت عليها، لأننى لم أسكت على طالب وقف أمام رئيس الجمهورية ومسح الأرض بالنحو والصرف واللغة العربية، وكل طلبة مصر وملايين المستمعين من المحيط إلى الخليج. وبذلك يكون هذا الطالب قد جعل أخطاءه من أشهر خطايا مصر فى ذلك اليوم.

ولهذا لا أظن أن وزير العمل كان على حق عندما ارتكب هذه الأخطاء الفظيعة، وكان فى استطاعته أن يشكل الكلمات.. وكان فى استطاعته أن يهرب من حروف الجر بالتسكين.. ولكن لا أجد له عذرًا مطلقًا فى أن يشغل هذا المنصب الرفيع ولا يعرف أن هناك جرارات وروافع ومُسَكِّنات فى اللغة العربية.. لا عذر له مطلقًا!

وإذا كنا نعيب على طالب أنه وقف فى مناسبة كبرى وأخطأ، فربما كان السبب هو أنه تهيب الموقف، وربما كان العذر أنه طالب، وأنه من الممكن أن يستدرك ما فاته، وأن يصحح أخطاءه، فلا يزال عمره أمامه.. ربما كانت هذه أعذارًا أسوقها، وإن كنت لا أقبلها فما الذى يمكن أن تقوله فى تبرير هذه الأخطاء المتكررة

من وزير العمل فى يوم عيد العمال.. ملايين العمال فى مصر والعالم العربى؟!.. ليس فى استطاعة وزير العمل أن يوقف حروف الجر عن العمل فتصبح ساكنة، ولا أن يحيل أخوات إن، وأخوات كان إلى التقاعد.. وبذلك يستوى الذين يعلمون مبادئ النحو والذين لا يعلمونها.

مع الأسف ليس فى مقدور أحد أن يصدر قرارًا يجعل يوم العمال يوم عطلة حروف الجر وحروف النصب، وبعد ذلك عطلة أيضًا لجدول الضرب، وبقية القواعد والمبادئ والأصول.. لا أظن أن أحدًا يستطيع ذلك فى أى وقت.

فليس أمامنا إلا أن نحترم المبادئ البسيطة للكلام، وأن نكون دعاة لذلك.. وأن نكون نموذجًا للطالب والعامل والابن. وإذا كانت أخطاء الصغار صغائر، فإن أخطاء الكبار كبائر!

إلا المصريين!

معظم الشعوب العربية تنطق الظاء والذال والثاء ـ إلا المصريين.

ابتداء من أم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وانتهاء بالوزراء، فيما عدا جميع وزراء الثقافة والإعلام فهم ينطقون حرف الثاء، إلا الأديب المرحوم يوسف السباعى، لماذا؟ هكذا!

ورغم أننى رأيت الأستاذ محمد عبد الوهاب مئات المرات، وأم كلثوم أيضًا، وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد، وفريد الأطرش. فلم أسأل واحدًا منهم عن السبب لعلى أجد مبررًا لذلك، ولكنهم مثل كل المصريين.

فنحن هكذا لا ننطق هذه الحروف، ونجدها شيئًا ثقيلاً على النفس أن تفتح الشفتين عند النطق.. وإن لم تجد هذا تفسيرًا كافيًا، فأسهل أن تقول: إنها عاهة مصرية، ومادامت عاهة فلا علاج لها.

طبعًا فيما عدا القارئين للقرآن الكريم، فهم ينطقون كل حروف «القلقلة»، ويعطشون الجيم بمنتهى الوضوح ـ فهذا شرط للقراءة الصحيحة.

وكذلك ممثلو المسلسلات الدينية، الذين يحرصون على هذا النطق، حرص المؤلفين على أن يجعلوك تكره اللغة العربية، وذلك للتشنج والوقوف ألواحًا إلى جوار الحائط يتفرجون على التحول التاريخى العظيم وهم يوهمون المشاهد بأنهم هم الذين صنعوا ذلك!

فإذا أضفت إلى العجز عن نطق هذه الحروف الثلاثة عجزًا آخر عن النطق السليم عمومًا؛ فنحن إذن أمام محنة لغوية.. ويكفى أن تستمع إلى الشباب الذين يستضيفهم التليفزيون والإذاعة؛ سوف تجدهم يتكلمون وكأنهم يمشون على الحبل: يهتزون ويتأرجحون خوفًا من السقوط.

وقد سألت منصور حسين –وزير التربية والتعليم– عن هذا العجز، فوضع أصابعى كلها على عيوب كثيرة فى الطالب، والمدرس، والكتب، والأسرة، والشارع، ووسائل الإعلام.. فإن كان أحد جادًا فى شىء، فليبدأ من أى طرف ـ وصولاً إلى اللغة العربية الصحيحة والنطق السليم!

مشاكل المصريين

من ضمن مشاكل المصريين فى الخارج أنهم يترددون على السفارات، ويسألون: ألا توجد صحف مصرية.. أو صور عن الحياة فى مصر؟!.

لأنهم يريدون أن يعرفوا أكثر وأصدق. ولأن أصدقاءهم يريدون أن يقرأوا عن مصر أيضًا، ومن الصعب أن يجد المصريون كل ما يطلبون.. ويسألون عادة: ألا توجد كتب مترجمة للأدباء والشعراء المصريين فى أية لغة أوربية؟!

ويكون الجواب عادة: توجد ولكن فى مصر.

أى إن الذى يريد أن يعرف شيئًا عن الأدباء المصريين يجب أن يسافر إلى مصر، ولو سافر إلى مصر؛ فلن يجد هذه الكتب المترجمة فى كل المكتبات. وإنما سيجد عشر نسخ عند المؤلف، ونسختين فى دار الكتب .. ونسخة فى هيئة الاستعلامات.

أما بقية الكتب المترجمة فهى مكدسة فى مخازن الناشرين هنا أو هناك - وهذه مشكلة أيضًا.

ولكن مشكلة أثارتها سيدة مصرية تعيش فى أمريكا، قد وجدتها معقولة وتستحق الاهتمام الشديد من الهيئات الرسمية وكل دور النشر، هذه السيدة جاءت تسأل عن كتب للأطفال.

فقلت لها: عندنا كتب كثيرة.

قالت: باللغة الإنجليزية!

قلت: ومن الذى يقرأ هذه الكتب فى مصر؟!

وكان ردها غائبًا عنى، وهى أنها تريد كتبًا للأطفال المصريين الذين لا يعرفون إلا اللغة الإنجليزية.

إنهم يجب أن يعرفوا شيئا عن مصر، وعن تاريخها، وعن معالمها الحديثة.. لابد أن يعرف الطفل المصرى بلاده باللغة التى يتقنها.. ونحن لا نلوم الطفل المصرى فى أمريكا؛ إذا لم تسعفه اللغة العربية، أو إذا لم يستطع أن يتعلمها.

ولكن يجب أن نذهب إليه، وأن ندخل فى أعماق وجدانه بلغته هو فى وطنه الجديد.

وإلا أصبح هذا الطفل أجنبيًا مرتين: أجنبيًا عن أمريكا، أو عن فرنسا، أو عن كندا؛ لأنه مصرى، وأجنبيًا عن مصر؛ لإنه لا يعرف عنها أى شىء، إلا ما تنشره الصحف، ويجىء فى التليفزيون.. فالأطفال المصريون المغتربون أو المهاجرون أو الأمريكيون أو الإنجليز مصريون، ويجب أن يظلوا كذلك.. ويجب ألا يغيبوا عن بالنا لأننا لا نغيب عن بالهم وآمالهم وتمنياتهم الصادقة لمصر بأن تصبح جديرة بماضيها العريق وحاضرها الكريم!

سرقة الكتب حرام؟!

كان أستاذنا المستشرق الألمانى باول كراوس يقول لنا: إن سرقة الكتب ليست حرامًا!، ولذلك كان يستعير كل ما يستطيع من مكتبة الجامعة، ثم لا يرد هذه الكتب، وبعد انتحاره بشهور اكتشفت مكتبة الجامعة أن لديه عشرات من الكتب النادرة لم يشأ أن يردها، وكنا إذا بحثنا عن كتاب ولم نجده سألناه، فكان يهز رأسه بأن الكتاب عنده، ولكنه ليس على استعداد لأن يعيره لأحد، وكان لنا صديق اسمه لطف الله سليمان، وهو من أغرب الشخصيات وأهمها فى مساعدتنا على شراء الكتب وقراءتها، وكان فى أول حياته يعمل فى مكتبة «سميث» بشارع سكة الفضل، وكنا طلبة لا نقدر على شراء كل ما نحتاج إليه، فكان يعطينا الكتب الجديدة التى تمزقت أوراقها بسبب الشحن والتفريغ ولا يتقاضى ثمنها. وحتى عندما أصبحت عنده مكتبة كان ييسر على أصدقائه شراء الكتب، وكثيرًا ما يتردد فى طلب ثمنها.

ومنذ أيام نشرت الصحف الفرنسية أن اللصوص سرقوا مكتبة كلية الاقتصاد، وتضم ثلاثين ألف كتاب.

وقبل ذلك بأسابيع اهتزت فرنسا كلها عندما سرقت ثلاثة بنوك بأسلوب واحد، فقد تسلل اللصوص تحت البنوك عن طريق مواسير المجارى، وسدوها ونسفوها، ثم نسفوا أرضية البنك وخطفوا الخزائن بمجوهراتها، ولم يهتد البوليس إليهم بعد، وتكرر هذا الحادث بنفس الطريقة..

لكن سرقة الكتب هذه شىء جديد، فقد تعودنا أن يسرق اللصوص اللوحات الفنية من متحف اللوفر.. وكثيرًا ما سرقوا لوحة الجيوكوندا أكثر من مرة.. وتابعت أخبار سرقة الكتب، فلم أجد اسم المستشرق كراوس، فقد مات، ولا وجدت اسم واحد من أقاربه، ولا اسم لطف الله سليمان المفكر الاشتراكى الذى كان أكبر مشجع لعدد من المثقفين المصريين على القراءة.. وانتظرت أن يصل بعض هذه الكتب المسروقة إلى أصدقائه فى القاهرة على سبيل التشجيع على القراءة أو السرقة أو توزيع التهمة فتضيع الجريمة بين الأمم.

ثم قرأت أن بعض الفرنسيين قد شاهدوا عددًا من الكتب تطفو على نهر السين.. فقلت: إن إغراق الكتب جريمة كاملة!

ولما تابعت قراءة خبر إغراق هذه الكتب؛ وجدت شيئًا عجيبًا.. فقد اختلف اثنان من العشاق وأعطى كل منهما للآخر خطاباته وصوره.. أما هذه الكتب فهى دواوين الشاعر الرومانسى الرقيق بول جيرالدى.. وكل هذه الكتب ليست إلا طبعات مختلفة، وبلغات متعددة لهذا الشاعر الذى نام العاشقان على شعره وعلى موسيقاه حتى النهاية -إنها مأساة.

مورافيا: الأديب العظيم

من أربعين عامًا قدمت إلى الأدب العربى الحديث أهم أعمال الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا «٨١ سنة». قدمت روايته الفاتنة «فتاة من روما»، و«زمن اللامبالاة»، و«الملل»، و«القبقاب» وترجمت له أكثر من مائة قصة قصيرة.

وتحدثت معه طويلاً فى القاهرة مع زوجته الأديبة إلزه مورانته ـ ثم قابلته مع زوجته الثانية الأديبة داشيا ماريانى فى برلين، وفى هافانا، وهى التى ألفت رواية رقيقة جميلة اسمها: «زمن الاحتقار».

وقد ولد مريضًا. أصابه الشلل وهو دون العشرين فأعجزه عن التنفس والحركة، وعلى فراش المرض تعلم ما كان ينبغى أن يتعلمه فى المدرسة: اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والكتابة على الآلة.. وتفجرت عبقريته الإبداعية بعد ذلك.

وحارب الفاشية الإيطالية بقلمه، وكان لابد أن يتوارى كثيرًا هاربًا هو وزوجته من بطش موسولينى.. واختار موضوعًا جوهريًا لكتابته: الطبقة الوسطى المفككة المنحلة، وعكف على العلاقات الجنسية بين الناس، واتخذها نموذجًا للجفاف العاطفى، والفراغ المعنوى والإفلاس المادى والإحباط الدائم.

وكانت هذه المعانى هى الخيوط الذهبية فى النسيج الجميل الذى ارتضاه مورافيا.. وسار فى نفس الطرق الملتوية المظلمة

المثيرة التى سار فيها من قبله الأديبان دستويفسكى وكافكا.. ولكنه كان أبسط وأعمق وأجمل.

وله مواجهات مذهبية جبارة مع ماركس وفرويد وسارتر - أما نهاية الصدام معًا فهى من أبدع ما كتب مورافيا.

وليس معروفًا أن مورافيا من أحسن كتاب المقال أيضًا، وكتابه «الإنسان غاية» من الإضافات الأدبية والنقدية والفلسفية الممتعة.

وقد فاز ألبرتو مورافيا بكل الجوائز الأدبية فى بلده.. واستحق جائزة نوبل من ثلاثين عامًا. ولكن الجنس الذى تسلط على قلمه، كان سببًا فى ألا يفوز بها عدد كبير من عمالقة الأدب والفكر الحديث!

وقد ظهرت معظم رواياته على الشاشة، وعلى شاشتنا الصغيرة لم يظهر عنه إلا عمل متواضع للأديب نهاد محرم، ويا ليت السيدة سميحة غالب تنتهز هذه المناسبة لتعيده على الناس.

ضيف مصر اليوم أعظم الروائيين فى كل اللغات، وأكثرهم حبًا لمصر القديمة والحديثة: ألبرتو بنكرله الشهير بألبرتو مورافيا.

قصص للأطفال

أحب قراءة قصص الأطفال، فلم يكن لنا قصص وكتب ونحن صغار وأريد أن أعرف كيف يكتب أدباء الأطفال؟ كيف يبسطون الأفكار الصعبة؟. كيف يستخدمون العبارات السهلة؟ كيف يبلغون الحادثة والحكمة فى النهاية؟

وقد قرأت قصص آندرسن والأخوين جريم، وكذلك دلامار، وأعجبنى الكاتب الإيطالى جورجينى وكنت أقرأ القصة وأحاول أن أكتبها بأسلوبى بنفس عدد الكلمات، وبكلمات أقل، وفى بعض الأحيان كنت أرضى عن نفسى؛ لأننى كتبتها أحسن وأجمل ـ هذا رأى صديق إيطالى ترجمتها له.

وأجد أن أدباء الأطفال لا يلقون ما يستحقونه من تقدير: لأنهم يكتبون للأطفال، والأطفال لا يملكون لهم شيئًا.. ولذلك فأدباء الأطفال مثل نحل العسل، يجمعون الرحيق من كل زهرة. ويسعدون الأطفال ويموتون!

وأحب أن أتفرج على برامج الأطفال أيضًا. ولا يعجبنى فيها أن البرنامج ينظر إلى الطفل على أنه عبيط ـ مع أن أكثر الأطفال يفتحون التليفزيون ويقفلونه، وكذلك الفيديو، ويلعبون الأتارى.. فهم أذكى مما يتصور.

ويوم العيد شاهدت برنامجًا من تأليف وإخراج الصديق محمد عبد العزيز، ومن تمثيل الفنان الكبير عبد المنعم إبراهيم، وكذلك محمد عبد السلام الذى كان بطلاً مسرحيًا منفردًا من

عشرين سنة.. إنها قصة «على الحطاب»، القصة بسيطة واللغة العربية فصيحة رصينة.

لا بأس من أن يتعلم الأطفال لغتهم.. ولكن من هو الطفل الذى يفهم: لا يُلْدَغ المؤمن من جحر مرتين.. دون أن يشرح البرنامج قصة الطفل الذى وضع يده فى الجحر فلدغه الثعبان. فلم يعد إلى ذلك مرة أخرى؟!. ثم إن السجع الذى يجىء على لسان محمد عبدالعزيز يحاول أن يعطى المعنى والعبرة والموعظة للأطفال، لا ضرورة له.. بل إنه سجع ثقيل، يعطل مسار الحدث، ويعوق المعنى أن يصل إلى الأطفال.

ولو نظر المخرج إلى ضحك الأطفال للحركات والكلمات لأكثر من ذلك.. فلابد أن تكون الموعظة عن طريق المرح.. لابد من المرح، فكل شىء عند الطفل يبدأ وينتهى باللعب.

والطفل يصدقك فى كل الأحوال.. ولكن بشرط أن تضحكه وأن تكون واضحًا، وإذا كانت هذه «عينة» فنية لمحمد عبد العزيز؛ فإنه مؤهل تمامًا لأن يكون أديبًا ومخرجًا وممثلاً للأطفال!

لهم الحب والاحترام

ما الذى تقوله الصحف وجميع المجلات الفرنسية فى الأيام الأخيرة؟: إنه الحزن العميق على اثنين من أبطال الثقافة العامة، فقد مات الأديب أندريه مالرو، ومات الممثل جان جابان.

فلم تظهر صحيفة لا تحمل صفحات الحداد على الواحد بعد الآخر.

بل إن مجلات أصدرت أعدادًا ممتازة بهذه المناسبة الحزينة... أندريه مالرو الأديب الذى ظل وزيرًا للثقافة أحد عشر عامًا فى عهد ديجول، فهو نموذج للمفكر الفرنسى الرائع... العبارة الباهرة، الفكرة، والذى احتضن كل هموم البشرية ثم راح يدافع عن الإنسان ضد الإرهاب والاضطهاد فى كل أرض... فى الصين، حتى أصدر تحفة أدبية من أربعين عامًا بعنوان: «مصير الإنسان».. وضد فرانكو ثم ضد الفاشية والنازية حتى حكم النازيون عليه بالإعدام.. ثم ظل يقاوم الطغيان من سريره، في مستشفاه يوم نشبت الحرب بين الهند وباكستان واستقلت بنجلاديش. شىء عجيب أن يموت مالرو على سريره وقد تعرض للموت، مئات المرات فى الأرض، وفى الجو،واحتمل النكبات العنيفة: مات ولداه فى حادث سيارة فى لحظة واحدة.

.. لقد أخذ الكثير من الشرق والغرب ومن كل الحضارات القديمة والحديثة، وأسوأ ما أخذه من خمسين عامًا أنه يتعاطى الأفيون حتى الموت!

أما جان جابان فهو بطل الشاشة الفرنسية عشرات السنين، ومئات الأفلام، كان حلم كل فتاة وكل امرأة. وكان هو أيضًا أحد أبطال الحرب الثانية، وأحد الذين دخلوا باريس على دبابة يوم النصر.. وكلا الرجلين قد بهرته شخصية الجنرال ديجول. وتأثر به..

ومالرو هو الذى قال عندما رأى ديجول: أخيرًا وجدت رجلا، ووجدت إنسانًا عظيمًا.

وقال ديجول فى مذكراته عن مالرو: يكفى أن يجلس إلى جوارى أندريه مالرو، فعندما تظلم الدنيا بهمومها ومشاكلها، تبرق فى سمائنا أفكاره الصائبة السديدة!

وكثيرًا ما أعلن مالرو نفسه: أن هناك فى فرنسا رجلين. ديجول وأنا!.

وكان يقصد بذلك أن ديجول هو رمز لبطل المأساة أو البطل «المأساوى» الذى كان يحلم به.

وأن ديجول قد صنع لفرنسا ولأوربا وللعالم ما كان يحلم به مالرو نفسه. ولذلك فهو - مع ديجول - يعيش فى الحلم وفى الواقع فى وقت واحد!

إنهم فى فرنسا يحترمون الساسة.. أما الفنانون فإنهم يحتفظون لهم بكل الاحترام وعظيم الحب!

أعظم كاتبة!

يا خسارة الصورة الجميلة البديعة الرقيقة البطولية لأعظم كاتبة معاصرة قد تمزقت، وتلوثت من تلقاء نفسها، وتكومت، وارتمت فى سلة المهملات الأخلاقية.. إن أعظم كاتبة للمرأة وعن المرأة فى التاريخ هى الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار. صديقة الفيلسوف الوجودى جان ـ بول سارتر.. كانا زميلين فى جامعة السوربون، وكانت هى أشطر منه ولكنه كان أعمق وأعظم، وكان فيلسوف المستقبل الذى تسلطن على عرش الفكر والأدب والفلسفة والتمرد ثلاثين عامًا، ولا ينازعه أحد فى الشرق أو الغرب.. ملكًا متوجًا من الأحرار ملعونًا من رجال الدين وأساتذة الجامعات.

ولكنه أسهل عبارة وأجمل تصويرًا وأعمق أثرًا.. رمزًا على تعميق الحرية الفردية، وداعية للثورة على النظم الشمولية وعلى الطغيان المذهبى الذى يبتلع حرية الإنسان أيًا كانت هذه الحرية ابتداء من حق أى إنسان فى وضع ساق على ساق، إلى قطع ساق، والقفز بدلا من المشى السوى فى أى طريق يؤدى إلى تأكيد الذات!

يا خسارة.. فقد عثرت الفتاة التى تبنتها سيمون دى بوفوار على خطابات كانت قد بعثت بها إلى صديقها الفيلسوف. فهل كان من الضرورى نشر هذه الخطابات التى شوهت صورة الأديبة العظيمة؟

يبدو أن الرأى قد استقر على عدم إخفاء الحقيقة. أما الحقيقة

فتقول عنها رسائل الأديبة: إنها كانت تعشق كل عشيقات سارتر.. واحدة بعد واحدة.. ثم تبعث له بأوصافهن وجمالهن.. وكيف وكيف ! ولم تكن تكتفى بذلك بل كانت ترسم له مواطن الجمال فيهن.. وبالألوان.. واللوحات التى رسمتها تدل على أنها أمضت وقتًا طويلاً فى ذلك.. ثم إنها رفضت تصويرهن عاريات؛ لأن التصوير عمل ميكانيكى.. أما الرسم فهو ممارسة للحب نفسه من جديد وعلى مهل؟!

ولا كانت هى مخلصة له، ولا كان، فما هو اسم هذه العلاقة بينهما؟ تقول هى: أحبه وأغار عليه وأتعذب بسبب ذلك.. ويحبنى ويغار ويتعذب أحيانًا!

وتقول أعظم أديبة معاصرة.. أما هذه الرسائل فهى مثل البقع السوداء الضرورية فى اللوحات الرقيقة التى رسمها لنا الناس.. فقد كنا أحقر مما يتصورون!

والله معك حق!

١ - الله عليكم!

على سطح إحدى مكتبات المنصورة كانت الندوة الشعرية.

أدار الندوة شاعرنا الرقيق الموهوب د. عبد العزيز شرف، ولم أر ولم أسمع رجلاً يصنع كلمات من حرير يسعد بها كل الناس كهذا الدكتور عبد العزيز شرف ـ لقد ألقى قصيدته الجميلة على استحياء كأنه يعتذر عنها ـ مع أنها تحفة أدبية.

وقد وصفه توفيق الحكيم بأنه الشاعر التعادلى والناقد التعادلى، أى الذى تتوافر فيه مواصفات نظرية التعادلية لتوفيق الحكيم، أى إنه الرجل الذى تتوازن فيه الرقة والجمال والعدل والمجاملة والذوق والمنطق.

واستمعت للشاعر الغنائى صفى الدين ريحان:

تعظيم سلام يملأ الوادى

ويهز كل الدنيا دى

يادى الهنا ويا نهار نادى

عليكى طالع يا بلادى

وغنية يا بلدى غنية

منصورة دايما وأبية

وفى ظل سعد الشربينى

اتمخطرى يا دقهلية

فيكى الجمال المتناهى

شمس وهوا خضرة وميه

صنع الرجال عندك غِيَّة

وتاريخ كفاحك أغنية.

وتقدم شاب دقيق الملامح لامع العينين سينمائى التكوين شاعر بكل المواصفات، اسمه محمد عبد الوهاب السعيد. قصيدته اسمها: القصيدة البدوية:

أسميك مى

وأعطيك للبحر بحرًا

وللأفق أفقًا

وللمتعبين وسادة أمن، وللخائفين من الليل ضى.. أسميك مى ويقول وألف معنى وحركة فى هذه الكلمات الأربع: خذينى منى إليك إلى..

وخلي المسافات تكتظ ما بيننا بالفوارس

بالأصدقاء بوجه الحبيبة بالسنبلات..

أسميك هندًا ودعدًا ولبنى ومى

وأسأل عنك جميع القبائل حيا فحيى

وحين يحاصرنى الليل وحدى أعود

وما غير اسمك فى راحتى!

الله.. الله لعشرين شاعرًا سحرونى وأطربونى حتى الصباح!

٢- أحبهم جميعًا

والله إننى أحب أن أجلس إلى الشعراء. ماذا يقولون؟ كلام جميل.

ماذا يتصورون؟ إن أحلامهم حقيقة.. بماذا يحلمون؟ بأنهم قادرون على إصلاح الكون.. بأى شىء يستطيعون؟ بالحب بليلى وآمال وكاميليا.. من جميلات الله..

كيف؟ إنهم لا يعرفون كيف، ولكن هذا ما يؤمنون به.. استنادًا إلى ماذا؟ استنادًا إلى أننا جلسنا خمس ساعات وقد تراخينا فى مقاعدنا.

هذا يردد ما قاله أبو الطيب، وذاك يعيد ما قاله أبو تمام، وما قاله أمير شعرائنا، وأمير شعرائهم وهيلدرلين أمير شعراء الألمان، وشيكسبير أمير شعراء الإنجليز، وليوبردى، ولرنتوف، وبودلير، وكل شعراء الأسى الرفيع والحزن الجميل.

وما هذا الذى يراه الشعراء فى الطبيعة: جبال الذهب وأنهار الفضة وياقوت الشفاه ولؤلؤ الدموع، ونرجس العيون، وأبانوس الرقاب، ورخام الصدور، وسيقان الغزلان.. هذه دنيا الشعراء الذين يريدون أن يصلحوا الكون ابتداء من القلب لا من المعدة!

ومن مفاخر الشعراء أنهم دعاة الحب والسلام والسماح. ولأن الناس يرونهم مسالمين، فقد طالت أعمارهم.. بعيدا عن السلطان.. والسلطان هو الذى لا يعرف ولا يعرفه السلطان!

وعندما سكن الشعراء القدامى قمم الجبال، فلأنهم قمة

مخلوقات الله.. ولأنهم بعيدون عن الناس، عن الضوضاء، عن الرغيف، والمال، وصناديق الانتخابات، وكراسى السلطة، والدرجات والعلاوات.. ولأنهم صناعة مقدسة.. فلا أحد يصنع شاعرًا. وكل إنسان من الممكن أن يكون أى شىء وأى أحد، إلا أن يكون شاعرًا، فالشاعر خلقه الله وعينه الله فى وظيفة شخصية فردية.. إنه إنسان خاص قد خلقه الله بصفة خاصة فى مهمة خاصة.

ماذا قدمنا من حلول؟ لا حلول. ماذا ربطنا من عقد؟ لا عقد.. ما فائدتنا، لا فائدة. فكل ما هو جميل لا فائدة له.. إما أن تقبله كله أو ترفضه كله لماذا؟ إنه هكذا. فأى ضرر؟ لا ضرر.. وأية فائدة؟ لا فائدة.. إنهم شعراء فقط!

المثقفون كسالى!

فلما أدرك «شهر زاد» الصباح سكتنا جميعًا!

المخرج كرم مطاوع اختار للمثقفين جميعًا موقفًا صعبًا.. شتمهم، ثم طالبهم بعد ذلك أن يمدحوه!

وأنا من المعجبين بكرم مطاوع على المسرح وعلى الشاشة، ولكن كرم مطاوع عندما أخرج مسرحية «شهر زاد» لتوفيق الحكيم كتب مقالاً فى البروجرام الذى يوزع على المتفرجين هو إهانة لكل الناس، تحذير أن يكون لهم رأى آخر غير رأيه وموقف آخر غير موقفه.

فهو يقول: إن الناس يتهمون مسرحيات الحكيم بأنها لا تصلح للمسرح: لأنها عقلية ذهنية فلسفية.

أو أنها «إذاعيات» وليست مسرحيات! أى إنها مسرحيات نقرؤها ولا نراها..

ويقول: إن سبب هذه التهمة هو أن المثقفين كسالى عقليًا.. أى غير قادرين على التفكير واحتمال فلسفة الحكيم. ويتساءل لماذا لا يقولون نفس الشىء عن مسرحيات شو وبيراندللو؟ ولا ينتظر من أحد أن يجيب وإنما يسارع بالرد: أن عيب توفيق الحكيم فى نظر المثقفين هو أنه شرقى (؟!).

ولا أعرف بعد ذلك من الذى نجا من اتهامات المخرج لكى يفتح فمه بكلمة، أو يحرك قلمه من أجل سطر واحد.. عن إخراج أو تمثيل أو ديكور أو جمهور مسرحية شهر زاد؟

وكنت أتصور أن يقول المخرج كلامًا آخر.. مثلاً: إن مسرحيات الحكيم مثل مسرحيات شو وبيراندللو، أشكال عقلية، وهى ولاشك صعبة مرهقة لأكثر الناس ثقافة. ولذلك عانيت كثيرًا فى تجسيمها.

وعندما نقرأ نحن المثقفين مثل هذه العبارة فإننا نتكاتف معه ضد تجريدات الحكيم. ونتلمس له العذر.. ونجد له عشرات المبررات للظلام الفاحم فى المسرحية، والحركة النائمة على المسرح والموسيقى العاوية بين المشاهد. ونقنع غيرنا بأن دوران المسرح نفسه هو دوران للفلك، وأن كل شىء يبدأ عندما ينتهى، وينتهى فى نفس اللحظة التى يبدأ فيها، ولا يخطر على بالنا أبدًا أن المخرج يريد أن «يدوخ» الممثلين تدويخًا حقيقيًا ليظهروا أمامنا مساطيل. فالمخرج ولاشك يعرف الفرق بين «الواقع» و«الواقعية»..

فالواقع هو أن يكون الإنسان مسطولاً بالفعل.. والواقعية هى أن ننقل هذه الصورة إلى المسرح.. ويكفينا جدًا أن «يتظاهر» الممثل بأنه مسطول!

ولكن المحرج - بالحاء لا بالخاء - قد أحرج كل الناس. فإذا كان المتفرجون جهلاء وأعجبتهم المسرحية فهل يرضيه مدح الجهلاء؟ وإذا كان المتفرجون جهلاء ولم تعجبهم المسرحية، فهل يُعَزيه عن شتائمهم أنهم جهلاء؟

إن كرم مطاوع - مع الأسف - قد نسف الجسور بينه وبين المتفرجين، متخصصين وغير متخصصين.. وطالبهم بالسكوت على مضض، ومن المؤكد أنه يعانى من هذا السكوت أكثر منا.

ولكنه هو الذى اختار لنفسه هذه العزلة الخرساء، حتى لو كانت هذه العزلة فى قمة الإخراج والتمثيل. وهو موقف مؤلم له ومؤلم لنا أيضًا. ولكنه هو الذى قرر أن يكون الناس خرسًا، وأن يكون هو مشدود الأذنين. وهو ظالم لنفسه. وظالم لكل الذين تعاونوا معه فى هذه المسرحية.. فقد غافلهم وتحول إلى «كاتب» فأعفانا من القيام بواجب التقدير لفنانين آخرين أعزاء علينا.. هو واحد منهم!

ولكن كرم مطاوع «الكاتب» قد خانه التعبير، وخان هو التعبير أيضًا. وأسرف فى تقدير ما قام به. واستهان بكل رأى غير رأيه، فنحّانا عن تقديره أو مناقشته.. وبسرعة جدًا أدركنا الصباح فسكتنا عن الكلام المباح.. وغير المباح!

فى هذا البيت.. ولد أبو الوجودية

زرت البيت رقم ٧ فى شارع «روزنبورجاد» فى قلب كوبنهاجن بالدانمارك. وشهرة هذا البيت قائمة على كونه مسقط رأس الفيلسوف الدانماركى العالمى «سورين كيركجورد» أبو الوجودية وأول من زرع بذرتها فى كتاباته. وقد ولد «كيركجورد» عام ١٨١٣ فى كوبنهاجن حيث أنفق حياته كلها. وكانت كوبنهاجن فى ذلك الوقت بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٢٠٠٠٠٠ نسمة. فكانت حياة «كيركجورد» الظاهرة تبدو خاملة خالية من الأحداث، ولكن الفيلسوف العلامة المتدين لم تكن تهمه المظاهر. وكان أكثر من أثّر فى حياته هم أربعة أشخاص: أبوه. وخطيبته «ريجنا أولسن» والشاعر جولد شميدت.. والقس مينستور.

وكان أبوه تاجر أصواف متدينًا، أنشأ أبناءه على خوف الله. وكانت أبرز صفاته هى السوداوية.. وقد ورثها عنه ابنه الفيلسوف سورين كير كجورد. أما القدرة على المرح فقد ورثها عن أمه. وقد وصف كير كجورد أباه بقوله: إنه أوفر الناس حزنًا!.. لذلك لا يدهشنا أن كيركجورد نفسه كطفل كان أكبر من عمره كما وصفه المؤرخون. وقد دفعه تأثير أبيه عليه إلى الانغماس فى خيالات حتى فى أعماله الجادة مما أغضب قراءه. وفى كتابته هذه نجد بذرة الوجودية الحديثة.. فقد استخدام

كيركجورد كلمة الوجود بالنسبة للوجود الشخصى للمفكر الذاتى ـ الفرد. ففى رأيه أن الفرق بين الوجود وبين البقاء على قيد الحياة كالفرق بين الشعور بالجمال وعدم الشعور بالجمال، كالفرق بين الاكتراث واللاكتراثية كالفرق بين الخلاص والنجاة وبين اليأس. فى رأيه أن الروح البشرية فى وجودها هى تضاد بين الظاهر وبين الباطن بين الزمنى وبين الخالد!

وقد أضحى كيركجورد بفلسفته الوجودية تلك محور إيحاء للمفكرين المسيحيين فى القرن الحاضر من أمثال «كارل بارث» وإميل برونز فى كفة، وفى كفة أخرى أضحى وحى المفكرين الجدد من أمثال كارل جاسبرز وهيدجر وجان بول سارتر.

وقد ظهرت عام ١٨٤٦ جريدة لإذاعة السخرية اسمها كورسير، أخذت على عاتقها تجريح كيركجورد. واضطهاده. وظلت تشن الحرب عليه حتى وفاته.. وكان الرجل الذى هاجمه هو الصحفى الشاعر أرون مير جولد شميدت. فتألم كيركجورد ألمًا بالغًا. والتهب احتقاره للمجموع.. للناس.. ككتلة ولآرائهم.. ولقد كانت محاولات كيركجورد الأولى منصبة على الاهتمام بالبحث فى ماهية المسيحية وحقيقتها. لكنه عام ١٨٤٩ نشر رسالتين دينيتين، كان عنوان الرسالة الثانية منهما هو هل من حق الرجل أن يدع نفسه يقتل من أجل الحقيقة؟ وقد أجاب على سؤاله بالنفى بادئ ذى بدء. ثم غير رأيه قبل أن يشن حربًا شعواء على الكنيسة القائمة. وفى طورها الأخير، بلغت كتاباته ذروة عنفوانها وعنفها عندما هاجم الكنيسة الدانماركية الحكومية. وفى رسالته «اللحظة» كرر قوله: إن المسيحية لم يعد لها وجود،

وقد وضع اللمسات الأخيرة لمقاله الأخير فى تلك الرسالة. ثم انهار وهو فى الشارع. فنقلوه إلى المستشفى حيث توفى به، وكان ذلك يوم ١٣ نوفمبر عام ١٨٥٥.

السراديب والظلمات.. والكلمات فى شهر زاد

أشكر لك إعجابك بى على المسرح وعلى الشاشة، ذلك الإعجاب الذى سقته بين طيات الاتهامات التى اتخذت لنفسها عنوانًا: فلما أدرك شهر زاد الصباح سكتنا جميعا بتاريخ ٦٦/١٢/٢ واسمح لى أن أوضح بعض هذه الاتهامات. تقول إننى اخترت للمثقفين «جميعًا» موقفًا صعبًا: شتمتهم ثم طالبتهم بعد ذلك أن يمدحونى. وحقيقة ما كتبت أننى عنيت بالتحديد طائفة «أنصاف المثقفين» أو «متوسطى الثقافة». ولا أظن أن الأستاذ أنيس منصور يضم جميع المثقفين تحت هذه الطائفة! وأنا لم أشتم أحدًا. فقط لم أجامل بل أبرزت كيف أن هذه الفئة من المثقفين لا تستطيع أن تهضم هذا النوع من الأدب الذى يعتمد على الفكرة. وإلا فكيف تعلل ظاهرة انتشار أدب الميلودراما والأدب الرومانسى فى ثلاثينيات هذا القرن، أما أننى مدحت نفسى فلا أوافقك.. فقط أردت أن أبين أين تكمن صعوبة الحكيم، وذلك من خلال تجربتى العملية، وكيف أنه فى سراديب الكلمات وطيات المعانى تكمن فلسفته. فهل يعنى ذلك أننى أمتدح نفسى؟

وفى موضع آخر تتساءل: من الذى نجا من اتهامات المخرج؟ واسمح لى أن أجيب أنا.. نجا من هذه الاتهامات كل مثقف يقترن بمسرح الفكر وبشهر زاد كمسرحية فكرية تتخذ لنفسها إطارًا من خلال الأضواء الخافتة التى تعتمد على قاعدة الأبيض والأسود

وعلى اللاتجسيد الواقعى، والتى تتخذ لنفسها إيقاعًا بسيطًا مكثفًا، لأننا فى سراديب الفكر الإنسانى نرى من خلال نظرة سيكولوجية.. ولأننا لسنا بصدد تصارع مادى بين شخوص أو مواقف بقدر ما نحن بإزاء تضاد أفكار فى حالة حِدَّتِها وقلقها؟

ولا أعتقد مطلقا أن الأستاذ أنيس منصور ليس هذا المثقف.

أما أننى أعانى من السكوت لأنى اخترت لنفسى هذه العزلة الخرساء - كما تقول. فهذا غير صحيح ولسبب بسيط هو أننى أدركت من زمن حقيقة النقد المسرحى عندنا.. ولذا فلست أعانى مطلقا من السكوت.. بل إن السكوت أفضل بكثير مما نشر فى عدد الأخبار الذى احتوى موضوع المقال الردىء تحت عنوان «للنقد فقط» والذى أعتبره محاولة للتلذذ - فى غير موضعها - باتهام الآخرين بالجهل وباللاأكاديمية، بينما يتورط صاحب هذا المقال الصغير - من حيث يريد أن يورط غيره - فيظهر بمظهر الذى لم يفهم - أو لم يرد أن يفهم - ما قرأه.. ثم ألا يقنعك ما جاء فى «للنقد فقط» بأن هناك من يستحقون أن توجه إليهم كلمتى التى جاءت فى البروجرام!

عن الفكر الإسلامى..

الدكتور محمد البهى رجل فصيح.. وفصاحته واضحة جدًا فى كتابه الكبير «الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه».. والكتاب من عنوانه على الأقل يدل على المجالات الواسعة التى يتعرض لها المؤلف ويناقشها، ويعرضها فى نفس الوقت للمناقشة.. ففى الكتاب أحكام كثيرة ليست نهائية. وإن كان المؤلف قد وضعها فى عبارات كالبديهيات الرياضية. وهذا الأسلوب من المؤلف يجعله خطيبًا أو محاميًا أكثر منه باحثًا علميًا!

فمثلا عندما يقول المؤلف: إن الصليبيين استفادوا من حملاتهم على العالم الإسلامى.. استفادوا فى دينهم وفى دنياهم، هذا ممكن طبعًا.. فالحروب مثل البحر يغزو الشاطئ محاولاً أن يزحزحه.. ولكنه عندما ترتد أمواج البحر فإنها تكون قد تركت وراءها القواقع، ويستبقى الشاطئ منها قدرًا قليلاً من الماء. والبحر يبدو غازيا و الشاطئ يبدو صامدًا.. ولا نعرف بوضوح من الذى انتصر ولا من الذى انكسر!

والدكتور البهى يرى أن حركة مارتن لوثر الاحتجاجية قد جاءت تحت تأثير ما عرفه عن الإسلام من «الإيمان برفع الوساطة بين الله والإنسان.. والإيمان بوحدانية الله.. وبحرية الفرد فى التفكير وبحقه فى شرح الكتاب المقدس».

ويقول أيضًا إن الصليبيين استفادوا فى دنياهم من مقاومة الظلم باسم الله وباسم الكنيسة.. ومقاومة الضغط على حرية الفرد فى تفكيره وتعبيره واختيار مجال معرفته ومقاومة الرق البشرى، فتحرروا واستعادوا إنسانيتهم وأعادوا تكوين مجتمعهم.. إلخ.

ويتحدث الدكتور البهى فى خطوط عريضة عن الذى استفاده المسلمون من الحروب الصليبية.. إلخ.

والدكتور البهى يعيب على المستشرقين موقفهم من الإسلام والفكر الإسلامى، وحرص هؤلاء المستشرقين على إشاعة الكذب والتزييف فى التاريخ الإسلامى والفلسفة الإسلامية.

وفى هذا الرأى كثير من الصحة.

ومن المؤكد أن الدكتور البهى مجتهد وباحث وشديد الإيمان. ولكن «أسلوبه» فى المناقشة ليس علميًا «موضوعيًا» عند متابعته وتسجيله للعلاقات الطويلة العريضة العميقة بين المسلمين والمسيحيين أيام الحروب الصليبية، وأثر هذه الحروب فى فلسفة العرب وتاريخهم ودينهم، وثورة رجال الدين على سلطان البابوية وعلى ظلم البابوية، وعلى الخرافات التى أشيعت فى العصور الوسطى، وكذلك خزعبلات الحكم وأشكال الحكم، فلا يمكن أن يكون سببها هذه الحروب وحدها. ولكن هناك جذورًا طويلة دامية فى أوروبا قد حتمت ثورة البروتستانت على الكاثوليك. ولا نهاية لما يمكن أن يقال من حوادث فاضحة وشائنة.

وأنا لا أستبعد أن يكون هناك أثر للإسلام..

ولكن أستبعد أن يكون هذا هو الأثر الوحيد.

وغير هذا من عشرات القضايا التى يعرضها الدكتور البهى بحرارة بليغة فى ٦٢٤ صفحة.

والكتاب متعة ولاشك، وكان من الممكن أن يكون أمتع وأروع لو أن المؤلف لم يجعل كتابه مدرسيًا مسرفًا فى الخطابة!

نحو تعريف للثقافة

رحلة طويلة جدًا وعريضة وعميقة قطعها عبدالمنعم الصاوى فى ٣٧٠ صفحة عن «الثقافة» ليشرح فيها مستعينا بكل تاريخ الإنسانية: ما هو المقصود من كلمة «الثقافة»؟ وكيف تكونت حروف هذه الكلمة حرفًا حرفًا وقرنًا قرنًا. من أيام إنسان الكهف حتى ول ديورانت، ومن أساطير اليونان حتى الماركسية الحديثة، ومن إخناتون حتى الرسول عليه السلام.

وقد بدأ عبدالمنعم الصاوى كتابه «عن الثقافة» بما يجب أن ينتهى به الكتاب وهو التعريف النهائى للثقافة، أو المخطط الذى سارت عليه العبقرية الإنسانية فى صراعها مع الأرض والسماء والحيوان والنبات والإنسان. ومع الحقيقة والخرافة.. وبعد مناقشات طويلة منطقية انتهى عبدالمنعم الصاوى إلى التعريف الذى استراح اليه وهو: مجموعة مكتسبة من الخصائص والصفات. تحدد للإنسان نوعًا مستمرًا يقوم على مجموعة من القيم والمثل والمفهومات. يؤثرها ويمسك بها ويحرص عليها. وهذه الخصائص والصفات تتوافر لديه. على مر العصور والأجيال.

وتعريف الثقافة بهذا الشكل ليس واضحًا تمامًا، لا بالنسبة للفرد أو الطبقة أو المجتمع، ولكنه يدمج الناس جميعًا فى قوة متحركة بإصرار. واستمرار. ولو قرأ عبدالمنعم الصاوى كتاب ت.

س إليوت عن «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» لتغيرت نظرته تمامًا لتاريخ الفكر الإنسانى. ولتغيرت نقط البدء عنده ولوضع كلمات صريحة فى هذا التعريف الذى اختاره واستراح إلى أنه جديد. فالشاعر إليوت يرى أن الفرد فى ثقافته يعتمد على الطبقة. والطبقة تعتمد على المجتمع.. وأن أى تعريف للثقافة يجب أن يستند على الدور الأساسى للمجتمع. وأن الدين ـ أى دين ـ جزء أساسى فى أية ثقافة. وأن الدين أحيانًا يكون هو الثقافة. ولكن الدين من أهم العناصر والقوالب والألوان والقوى الدافعة لأية ثقافة.

ولو رجع عبدالمنعم الصاوى أيضًا إلى ما كتبه المؤرخ المعاصر أرنولد توينبى فى دراسة للحضارة الإنسانية والثقافة أيضًا؛ لوجد أن الدين أى دين هو عنصر ضرورى جدًا لقيام أية حضارة أو أية ثقافة.

ولكن كتاب «عن الثقافة» هو لاشك دراسة بالطول والعرض للتجربة الإنسانية التاريخية من أجل فهم الإنسان لنفسه. ومواجهته لنفسه وللطبيعة. والإنسان فى كل مرة يكتشف سهولة جديدة، يكتشف فى نفس الوقت صعوبات جديدة. وهو من المؤكد إذا ما اكتشف تعريفًا جديدًا لنشاطه المنظم؛ اكتشف عيوبًا جديدة لهذا التعريف.. والثقافة هى معرفة الإنسان لنفسه ولغيره، وهذا الكتاب هو تعريف للمؤلف الواسع الثقافة. الصادق الهدف.. وهدفه هو عرض كثير من القضايا للمناقشة ومن بين هذه القضايا.. تعريف الثقافة الإنسانية!

مطلوب كتب عن كرة القدم

نحن نستخدم كلمة «يلعب» عندما نتحدث عن الممثل المسرحى فنقول: يلعب دورًا.. وعندما نتحدث عن العزف الموسيقى، نقول: يلعب على البيانو.. ونحن نصف لاعب كرة القدم بأنه: مايسترو.. أى قائد أوركسترا..

فالفنون كلها نوع من اللعب.. اللعب باللون أو بالنغمة أو بالصوت أو بالجسم.. ولكن على الرغم من أنها لعب فى لعب.. فإن لها قواعد وأصولاً معروفة.. فالشطرنج لعبة. ولكن لها قواعد والموسيقى لعب بالأصابع.. ولكن هذا اللعب له نظريات. وكرة القدم لعبة ولكن لها قواعد مثل: الهندسة والطب.

وما دامت كرة القدم تهم الناس.. يجب أن تهمنا أيضًا.. فهى ظاهرة اجتماعية تستحق التسجيل والتحليل.. وليس من الضرورى أن نكون من المعجبين بالكرة. ولكن من الضرورى أن نهتم بما يشغل الناس. فليس من الضرورى أن نكون من الذين يدخنون لكى نهتم بظاهرة التدخين نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وصحيًا.. ولكن يكفينا أن نجد «الظاهرة الاجتماعية» لنهتم بها ونسجلها ونحللها.

ولذلك يجب أن نهتم بظاهرة كرة القدم.. وأن نقترب منها وأن نبحث عن سر اهتمام الناس بها، ولا نكتفى بمجرد التسجيل والتحليل.. وإنما يجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنحاول توجيه الناس أيضًا.

وإذا كانت رياض الأطفال هى مدارس اللعب المنظم.. أى مدارس توجه الطفل عن طريق اللعب والاستمتاع باللعب.. فكذلك يجب أن نحول ملاعب كرة القدم إلى «رياض أطفال» الجماهير.. نوجهها عن طريق اللعب وحبها للعب.. فما الذى نريده من الجماهير؟ نريد منها أن تكون واعية وأن تكون رياضية غير متعصبة.

ونريد منها أن تحترم القانون.. وأن تحترم المحاولة والخطأ.. وأن ننظر إلى صفارة الحكم كما ننظر إلى مطرقة القاضى فى المحكمة.. ونطلب إلى اللاعبين أن يؤمنوا «بجماعية» اللعب و«جماعية» العمل أيضًا.. وأنا لا يزعجنى أن أرى الخناقات فى الملاعب. ولا أن نرى الثورة على صفارة الحكم.. فأنا أراها فرصة للتوعية والتوجيه..

وليس اللاعب فقط ولا المتفرج هو الذى يحتاج إلى توجيه.. وإنما «النقد الرياضى» هو الذى يحتاج إلى وعى وإلى اتزان.. أى يحتاج إلى فهم لمعنى التسجيل والتحليل والتوجيه!

عندما يدخن الملك خوفو

نفرض أن أحد الممثلين فى مسرحية فرعونية قد أخرج علبة السجائر من جيبه ووضع سيجارة فى فمه ثم التفت إلى الجمهور وأعاد السيجارة إلى العلبة إلى جيبه، فما معنى هذا؟

هذه الحركة تبعث على الضحك فورًا. لأن السجائر لم تكن معروفة أيام الفراعنة. ولأن الممثل قد خرج من الإطار المسرحى الفرعونى، وتحول إلى متفرج يعرف أن التدخين ممنوع.. ومعنى هذا أيضًا أن المؤلف أراد أن يقول إن هناك زمنين فى وقت واحد: الزمن المسرحى الفرعونى، والزمن الحالى للممثل الذى أراد أن يدخن، وهو نفس الزمن الذى يعيش فيه المتفرج. ومعنى ذلك أن المؤلف يريد أن ينبه المتفرج إلى أن أحداث المسرحية ومضمونها له علاقة بالوقت الحاضر. ومعنى ذلك أيضًا أن المؤلف يطلب إلى المتفرج أن يراعى ذلك.. وأهم من هذا كله أن المؤلف يريد من المتفرج أن يتنبه إلى أن الممثلين يعلمون أنهم «يمثلون»، وأنهم لا يعيشون فى واقع مسرحى. فعلبة السجائر والسيجارة والامتناع عن التدخين تحطيم للحائط الرابع الذى يفصل بين المتفرج والممثل. وتحطيم أيضًا لأكذوبة تقليدية متفق عليها بين الممثل والمتفرج: هذه الأكذوبة هى أن الذى تراه على المسرح ليس «واقعًا» وإنما يحاول الممثل أن يجعله كالواقع. ويحاول المتفرج أن يشعر به كأنه واقع. ولذلك يدخل المتفرج إلى المسرح

ويجلس وينتظر وعنده استعداد لأن يندِمج فى الحقيقة المسرحية التى يتوهم أنها حقيقة واقعية.. وهذه الأكذوبة التقليدية هى أساس كل الفنون.

ولكن إذا لم يفسر لنا المؤلف لماذا أعطى البطل الفرعونى - مثلا - هذه السيجارة، فإنه يضعنا فى موقف صعب. والصعوبة تجىء من أننا لا نعرف إن كان الذى نراه تمثيلاً أو مناقشة بين الممثلين الذين أصبحوا كالمتفرجين.. أى بلا حائط رابع!.

لقد ناقش الكاتب الفرنسى يونسكو هذه المشكلة فى الأسبوع الماضى فى ندوة تليفزيونية.. وأشار إلى هذه الصعوبة. ولكنه فى نفس الوقت رأى أن المؤلف حر فى أن يعلق الراديو الترانزستور فى رقبة أهل الكهف، وأن ينشر عربات الكارو عند سكان المريخ.. وأنه لا يضايقه لا فنيًا ولا فلسفيًا أن يظهر الملك خوفو ومعه سيجارة هافانا، ثم يطلب إلى أحد المتفرجين أن يعيره ولاعته. لماذا؟ لأننا جميعًا قد اتفقنا على أن الذى نراه تمثيل فى تمثيل.. فلا يضايقنا أن نشعر لحظة أنه تمثيل تتخلله الحقيقة!

لأن الحقيقة موجودة فى الوهم وفى الخيال وموجودة فى الكذب وموجودة بين الممثلين وبين المتفرجين!

العسكر والمؤلف.. والحرامية..

أكثر الذين كتبوا عن مسرحية «عسكر وحرامية» لألفريد فرج وقعوا فى غلطتين. الأولى: أنهم تولوا الدفاع عن المؤلف بلهجة عصبية متعصبة، مع أن أحدًا لم يهاجم المؤلف ولم يوجه إليه أية تهمة، ومثل هذا النوع من النقد سيئ النية؛ لأنه يفترض أن المؤلف فى حاجة إلى حماية أكثر من حاجته إلى التقدير. والمؤلف الذى يحتاج إلى حماية هو المؤلف الضعيف الذى لم يقنع الناس بمقدرته. وإنما لابد أن يفرض نفسه على الناس بالكرباج أى يمثل هؤلاء النقاد!

وألفريد فرج مؤلف يستحق التقدير..

والغلطة الثانية أن هؤلاء النقاد هللوا لوضوح الهدف فى هذه المسرحية. وجعلوا الهدف فى الدرجة الأولى والضحك فى الدرجة الثانية.

وهذه الغلطة بالذات تحتاج إلى توضيح، فالمفروض فى المسرحية الكوميدية أنها مسرحية، أى إنها عمل فنى وإنها تبعث على الضحك، وهناك رأيان. الرأى الأول: أن الضحك هدف، والرأى الثانى: أن الضحك هدف وراءه هدف آخر. وهذا الهدف الآخر هو الإصلاح الاجتماعى والأخلاقى.. أى تطهير الناس من شرورهم عن طريق الضحك أى إضحاك الناس على الناس.

والغلطة التى وقع فيها معظم النقاد هى أنهم لم يلاحظوا أن

هـذه المسـرحـيـة بـالـذات قـلـيـلـة الإضـحـاك. أى إن المواقـف والمفـارقـات والـتـنـاقـضـات الـتـى تجعل الـنـاس يضحكون.. قليلة و«ناعمة»، وهذا هو رأى المخرج قطعًا. ولهذا رأينا المخرج سعد أردش «يـزغـزغ» الـنص. ويـقـوم «بـتـفـنـيط» الممثلين وضربـهـم بعضهم ببعض وتركيبهم بعضهم فوق بعض.

والمخرج - ومعه حق - حاول افتعال التناقض والمفارقة لكى يضحك الـنـاس. ولـذلك جـعـل المـمـثلين يؤدون المواقف الجادة بصورة أراجوزية.

وأكثر النقاد لم يدركوا أن النص نفسه لا يبعث على الضحك الشديد. فتصوروا بحسن نية أن وضوح الهدف هو الذى أخفى مواطن الضحك، وأنه كلما برز الهدف تلاشى الضحك. وهذا غير صـحـيـح كـقـاعـدة. وغير صـحـيـح فـى هـذه المسرحـيـة بـالذات. فالمؤلف لم يبذل جهدًا كبيرًا فى خلق الضحك المطلوب. وجاء الـنـقـاد وحـمـلـوا المسئولـيـة عن المؤلف وألقوا بـهـا عـلـى أكتاف الهدف. فظلموا المؤلف وظلموا الهدف أيضًا.

ولذلك أرى أن المشكلة الأساسية التى تثيرها وتشير إليها مسرحية «عسكر وحرامية» لم يناقشها أحد بعد: وهى كيف يوفق المؤلف بين الضحك والهدف من الضحك. وأول خطوة يجب أن يفعلها المؤلف هى أن يكون مضحكًا. وثانى خطوة هى أن يضع الهدف. وليس أسهل من أن نجعل الهدف واضحًا، وليس أصعب من أن نجعله خافيًا. وليس أسهل من أن يهتف أى متفرج أو ممثل: يحيا الحق والخير والجمال. وليس أصعب من أن نخرج من مسرحية وفى رءوسنا هذه المعانى التى لم يهتف بها ممثل واحد.

ومع ذلك فالذى لم يقله معظم الذين كتبوا عن مسرحية ألفريد فرج أنـهـا رغـم ذلك: عـمـل فـنـى جـاد، أراد صـاحـبـه أن يـجـعـلـه مضحكا.. فضحك المتفرجون بالألوف، أما النقاد فلم يضحك منهم واحد!

والفم ملىء بالسوس!

شعر الأدباء الشبان فى بريطانيا بارتياح عندما وقع العدوان الثلاثى على بورسعيد. فهؤلاء الأدباء كانوا حائرين فى تشخيص داء الإمبراطورية البريطانية، إنهم يحسونه ولكن لا يعرفون اسمه. ويرون نتائجه ولكن لا يعرفون له علاجًا، فلما وقع العدوان على بورسعيد أحسوا أنه وقع على بريطانيا، وأنه أوقع بريطانيا كلها. وأنها لم تعد دولة لها وزن دولى، ولم تعد صادقة فى دعواها للسلام والحرية. إن القنابل التى ألقيت على بورسعيد سقطت على بريطانيا وأضاءت وأشعلت وأحرقت ما تبقى من صورتها فى أذهان الإنجليز والعالم كله.

ولذلك جاءت رسالة الأديب الساخط جون أوسبورن أدق تعبير عن أعماق الشبان الساخطين على بريطانيا قبل العدوان وبعده. فقد نشرت التايمز هذه الرسالة:

«الشمس تغرب. وشعب كبير نبيل قد أصبح عجوزًا مفلسًا فى دفاعه عن الحرية، متحللاً من التزاماته الواسعة. ويقفل على نفسه الباب، ويسدل الستائر، ويشعل المدفأة، ويتنهد من الإعياء والارتياح، ثم يحذف من لافتة على باب الحديقة كلمة «عظمى» ويضع بدلاً منها كلمة «صغرى» بعد كلمة بريطانيا..

وفى مقدمة هذا الخطاب جاءت هذه العبارة: إن دولة ترى أن

العدوان الغاشم الظالم على دولة أخرى ليس جريمة، يجب أن تخجل إلى الأبد!

وعندما سئل أوسبورن عن سبب هجومه على بريطانيا كان جوابه: ليس هجومًا. وإنما هى مقدمات لهجوم!

وقد هاجم أوسبورن وكل الأدباء الساخطين فى بريطانيا المجتمع الإنجليزى وتقاليده البالية. ومثالياته الهزيلة. واستسلامه الأعمى لأمريكا فى أوروبا وفى آسيا وإفريقيا. فقد كان من الممكن أن تصبح بريطانيا دولة عظمى إذا ما جعلت حرية الشعوب واستقلالها وتعاونها الإنسانى فى الأسرة العالمية أساسًا حقيقيًا لفلسفتها السياسية فى الداخل والخارج!

وعندما دعى جون أوسبورن لحفلة عشاء فى القصر الملكى رفض الدعوة.. ولم يعتذر واكتفى بأن كتب على بطاقة الدعوة هذه العبارة: الملكية هى بعض الأسنان الذهبية فى فم ملىء بالسوس!

درس للإنسان.. من لوحات حيوان!

حين أقيم معرض لرسوم الشمبانزى فى لندن منذ بضع سنين. أصيب كثير من رجال الفن بالدهشة والذهول، فالرسومات المعروضة لم تكن صورًا للقرود كما توقعوا، بل كانت لوحات قام برسمها قردة فانون.

وشن بعض النقاد هجومًا عنيفًا على هذا المعرض، لأنه حرص على أن يقدم رسومات القرود مقارنة برسومات الأطفال من نفس السن، فكشف ذلك عن تشابه أصيل بين هذا وذاك، فساء ذلك هذا الفريق من النقاد.. واعتبروه اهانة لكرامة الإنسان الذى فضله الله على الحيوان.

ولكن هلل فريق آخر من النقاد لهذه الظاهرة، واعتبروها بشيرًا بشكل فنى جديد.

وأما القلة الواعية من النقاد فقد فهموا الأمر على حقيقته. إن هذه الرسومات التى أبدعها القرد، هى فى الواقع سلسلة من الوثائق الفريدة التى قد تفضى دراستها إلى كشف الأصول البيولوجية للفن.

وأقيمت معارض للقردة والشمبانزى عاما بعد عام.. واهتم الباحثون بدراستها كل الاهتمام لأنهم رأوا فيها مصدرًا جديدًا لدراسة الفن البشرى. فلقد كان الباحثون عن أصول هذا الفن ينقبون فى آثار ما قبل التاريخ، وفى فولكلور الشعوب البدائية

فى العالم الحديث وفى استكشاف المجانين وشخبطات الأطفال.

ولكل من هذه المصادر قيمته من غير شك، ولكن كلاً منها مصاب بنقص خطير.. فآثار ما قبل التاريخ فيها صنعة وفيها مستوى فنى عال. وفولكلور المعاصرين ممن يدعون بالبدائيين لا يكمن وصفه بالبدائية على الإطلاق، وأما اسكتشات المجانين فمكان دراستها المثمرة ميادين الدراسات النفسية والعقلية.. وأما شخبطات الأطفال فيمكن أن تعطينا فكرة عن أسس الإبداع الفنى ولكن إلى حين.. إذ سرعان ما يتدخل الآباء فى رسومات أبنائهم بالحملقة أو الاستحسان أو الاستهجان. لهذا فلم يبق من مصدر أمين لدراسة الأصول الأولى للجمال الحق غير لوحات القرود والشمبانزى.. فلنحى الفنان الذى يطالعك من هذه الصفحة بوجهه ولوحاته.. أعنى الشمبانزى «للفنان كونجو».

لقد أثبتت لوحات القرود أن القواعد الأساسية للجمال غاية فى القلة والبساطة، هى ست قواعد على التحديد تنطبق على كل ما أبدعه الرسامون من ليوناردو إلى كونجو. وهذه القواعد الأساسية هى: التصميم والإيقاع والتوازن والتشكيل والتناسب بين التوافق.. والتغاير.

هذه قواعد خمس. والسادسة أهم منها جميعا من وجهة النظر الاجتماعية، وهى أن الاستمتاع بالخلق الفنى يجب أن يظل الهدف الأول عند الفنان، وأن فنه يتدهور إذا لم يشعر بأن ممارسة الفن تنطوى فى ذاتها على اللذة الأساسية التى ينشدها الفنان. وقد ثبت هذا بعد إجراء التجربة الآتية.

عرضت رشوة على شمبانزى فنان ذات يوم بأن قدم إليه

طعام شهى تشجيعًا له على أن يخلص نفسه للفن، وتكررت المكافأة التشجيعية.. فكانت النتيجة فى غاية الغرابة.. فلقد تعود الشمبانزى على الربط بين قيامه بالرسم وبين حصوله على شهى الطعام.. فلما استمر نظام المكافأة تناقص اهتمام الشمبانزى برسمه تدريجيًا. وأخيرًا صار يشخبط أى شخبطة ثم يمد يده فى طلب المكافأة التشجيعية. واختفى بالتدريج اهتمامه بالرسم فى ذاته، وظهرت عليه أعراض المرتزقة بكل بُعدها عن الفن الصحيح، وثمة نتائج لا تحصى يمكن استخلاصها من رسومات القرود، ومن القواعد الأساسية للفن التى كشفت عنها هذه الرسومات.. منها أن التصميم والتشكيل من القواعد البيولوجية للفن. فلا محل إذن لما كان بين رشدى ومندور من خلاف حول الشكل والمضمون.. فالفن فى أصوله الأولى شكل ومضمون.

أم كلثوم: أو تاريخ الغناء المصرى!

من حق الشاعر الناقد كمال النجمى أن يصف كتابه الجديد «الغناء المصرى» بأنه الأول فى موضوعه حتى الآن وهو بالفعل كذلك. ومن حقنا أن نقول أيضًا إنه الأول فى أسلوبه الجميل، وحرارته الدافقة. ولمحاته الباهرة. ففى الكتاب ثروة جمالية فاحشة. فلم يحدث أن قرأت كتابًا به كل هذا العدد الهائل من الصفات الرقيقة الدقيقة للصوت والغناء ولطبقات الصوت وأوتار الحناجر.. إلا فى هذا الكتاب.

ولم يقل كمال النجمى إن «الغناء المصرى» هو أم كلثوم بحياتها وتاريخها وتجربتها ومقدرتها الخارقة على الاستمرار القوى. ولكن الذى يقرأ الكتاب يجد أن أم كلثوم فى كل صفحة. فهى الصغيرة التى هزت سلطانة الطرب منيرة المهدية، وهى الشابة التى نافست المطربات وأرهبت المطربين، وفى سماء أم كلثوم تهاوت كل الشهب الفنية: فتحية أحمد، ونادرة، ونجاة، على، وغيرهن. وأم كلثوم هى التى غنت القصيدة وهى التى أحسنت النطق.

وهى العربية الفصحى السليمة الألفاظ والكلمات ذات الأذن الموسيقية.. وهى التى وسعت حنجرتها كل المقامات والطبقات بألوانها ودرجاتها. وهى التى استمدت بهاءها ورواءها من كل الملحنين ووقفت وأطالت الوقوف وصمدت واستمرت. وسوف

تبقى. وهى التى غنت وأبكت وأضحكت وهزت وأثارت فى الحب والحرب. وهى.. ومئات الصفات الأخرى الجميلة التى لم يتعب كمال النجمى فى وضعها كالفساتين على أم كلثوم.. وكالتيجان على آهاتها فى سمائنا وفى كل سماء عربية.

وحتى عندما تعرض كمال النجمى لمحمد عبدالوهاب لم يسد أذنه عن أم كلثوم ولا رفع عينيه عن منديلها، فعبدالوهاب - وهو الفنان القادر - يعتبر فصلاً مهمًا جدًا فى حيوية أم كلثوم.

وإذا كان اسم أم كلثوم يتردد كثيرًا فى الكتاب، فإن «الميكروفون» يتردد كثيرًا جدًا.. ولكن كمال النجمى يذكر الميكروفون على أنه الوسيلة التى نشرت الأصوات الضعيفة وجسمت الملامح الغنائية الباهتة لعدد كبير من المطربين والمطربات. وهذا صحيح. ولكن الميكروفون هو العلم الحديث. ولابد من أن نستخدم الوسائل الحديثة فى النشر. فالميكروفون بالنسبة للمطرب كالمطبعة بالنسبة للكاتب.. فليس على الكاتب إلا أن يخط نسخة واحدة من كتاب له أو من مسرحية، وتتولى المطبعة تحويل النسخة الواحدة إلى مليون نسخة باقية على الأيام..!

وفى كتاب كمال النجمى خريطة من الصوت والضوء لتاريخ الغناء المصرى. وفى استطاعة كل مطرب معاصر أن يجد نفسه فيها.. أو لا يجد نفسه فيها.. ولكن الأثر الفنى الباقى الأصيل هو أم كلثوم.. وهذا الكتاب!

تحرير الرواية

أكثر من ظرف يحكم عملية اختيار الشكل الأدبى؛ التربية الفنية.. البيئة.. إمكانية الشكل للفكر.. استعداد الكاتب. وهذا الأخير هو أهون الظروف، وأشك فى أنه من الظروف الحاسمة فى هذا الصدد.. لقد نشأ جيلنا فى فترة لم يتح لنا فيها قراءة المسرح. وكان حولنا مسارح تسلية لا علاقة لها بالأدب.. فكان من الطبيعى ألا يفكر أديب فى نشأته الأولى فى المسرح. وللآن لا أعتقد أن فى الأدب شكلاً له مرونة وإمكانيات الرواية. فلكل فن قيود خارجة عن ذاته إلا الرواية.

الأقصوصة يحكمها من الخارج الحجم الصغير المتاح للنشر. والمسرح يحكمه الوقت والرؤية والحضور وضرورة تركيز الحياة على المسرح. إن الحياة فوق المسرح غير الحياة. لأن المسرح يجنح لتركيز الحقائق الكبرى والحياة حافلة بغير الحقائق الكبرى. أما الرواية فتعطى لك الحقائق الكبرى فى خضم الحياة نفسها.

وفى رأيى أن اتساع إمكانيات الكتابة الروائية، وتحررها من القيود الخارجية ليسا سببًا لسهولة الكتابة الروائية، وإنما هما سبب لصعوبتها. فهذه الحرية الواسعة، تصحبها بالضرورة مسئولية كبيرة.

ولو أنك تكتب عن شخصية فيلسوف، فما أسهل أن تكتب عنه

مسرحية، وما أصعب أن تكتب عنه رواية وتتابعه فى حياته اليومية العادية، حيث لا أفكار ولا صراع أفكار.

إن وجود فن الرواية، بعد الأشكال الأخرى كالمسرحية والشعر.. وفى عصر تلا عصور ازدهار المسرح ـ دليل على ضرورة هذا الشكل وعلى عدم كفاية ما سبقه من أشكال.

هادئ تحت الغلاف!

صرخات مكتومة.. حول أدب الساخطين!

بعد أن رشحه النقاد للجلوس على مقعد الكاتب العظيم برناردشو غضبوا عليه ولعنوه!

إن جون أوزبورن زعيم الكتاب الساخطين فى إنجلترا يتعرض لحملة يشنها عليه النقاد فى الصحف البريطانية، بسبب مسرحيته الأخيرة «ليسدد كل منّا ديونه». إن «ليندو» بطل المسرحية يعتدى على أمه، ثم يعتدى على شقيقته ليلة زفافها، ويفقأ عينى والده!

ولكن أوزبورن لا يكترث بآراء النقاد فى مسرحياته. فهو شاب ثائر يعرف كيف يقيم الدنيا ويقعدها، لقد أطلق صرخته المشهورة «عليك اللعنة يا إنجلترا» وقفز إلى الصفوف الأولى بروايته «انظر وراءك فى غضب».

وهذا الكاتب الثائر.. احتار فيه النقاد. إنهم يرفعونه إلى القمة مرة، ويلعنونه مرة أخرى!

فمنذ سنوات ظهرت رواية أوزبورن «دماء أسرة مالكة» ووصف النقاد الرواية بأنها معجزة!

وهى رواية كوميدية يسخر فيها المؤلف من أفراح وتقاليد الأسرة المالكة فى إنجلترا. وتجرى حوادثها فى اليوم السابق لزواج الأميرة.

وعندما نزل الستار على الرواية، لعن النقاد المؤلف، لأنه

اقتصر على فصل واحد. فقد كانوا يريدون أن تمتد إلى ثلاثة فصول!

وفى رواية أخرى، لعن النقاد أوزبورن لأنه لم ينزل الستار قبل بداية الرواية!

إنها رواية تحت «غلاف عادى» وهى رواية يضيع فيها أوزبورن أكثر من ١٥ دقيقة فى التحدث عن فلسفة الملابس الداخلية للرجال والنساء. ويعرض على المسرح عددًا من هذه الملابس!

وقد غضب النقاد على أوزبورن بعد أن ظهرت هذه المسرحية، لأنها سخيفة لا معنى لها.

والنقاد اليوم غاضبون عليه. ولكن أوزبورن واثق من نفسه. لا يهتم بلعنات النقاد على مسرحياته الساخطة. إن آراءهم فى نظره تشبه طلقات مسدس كاتم للصوت أو قنبلة فاسدة لا تنفجر. إنها صرخات مكتومة، لا ترتفع إلى مستوى «الركب العارية» فى لندن.. وتتلاشى وسط «فحيح» الخنافس!

.. لون جديد.. من الأدب!

عندما فكر فى الزواج تذكر أن أجداده كانوا من اليونانيين؛ ولذلك قرر أن يتزوج من يونانية أو فتاة أصلها يونانى.

وكان خجولاً.. هادئًا لا يعرف أسرًا يونانية، ولا تسمح له موارده بالسفر إلى بلاد الإغريق؛ ولذلك اكتفى بأن ينشر إعلانًا فى إحدى الصحف قال فيه: «يونانى يرغب فى الزواج من يونانية».

واستجابت للإعلان فتاة واحدة.. يونانية جميلة «كفينوس».

ولم يطل فى سؤالها عن أسرتها فقد جذبه إليها جمالها. وفتنتها والحيوية التى تشع من عينها. ولما كان قد قال فى الإعلان إنه يريدها كزوجة؛ لذلك فإنه لم يطلب إليها أن تعطيه الفرصة ليزداد معرفة بها وبشخصيتها.. لقد أرادها كزوجة.. وها هى أمامه..

وباختصار يتزوجها.. ويلتقى بعد ذلك بالمفاجآت.

إن حياته بعد ذلك سلسلة من الحظ السعيد.. لقد تحول فى أيام قليلة من مساعد كاتب حسابات إلى كاتب حسابات.. إلى رئيس لقسم الحسابات.. إنه يقفز درجات الترقية تباعًا وزوجته وراءه تشجعه وتهنئه وتقنعه بأنه يستحق أن يرقى إلى مدير عام ويظفر بالترقية إلى منصب لم يكن يطمع فيه يومًا.. أو يحلم به.

والثروة المفاجئة كالألم المفاجئ.. تؤدى إلى انهيار المبادئ

واحدًا وراء الآخر.. وقد رأى مبادئه تنهار.. وقيمه تتداعى ومثالياته تتحطم تباعًا.. وتنتهى الرواية عندما يكتشف أنه لم يكن عبقريًا عندما ظفر بهذه الترقيات المتلاحقة.. وإنما كانت زوجته هى السبب فى ارتفاعه المفاجئ، وصعوده السريع.. وما كان يراه من اجتماعاتها البريئة برؤسائه.. كان فى الواقع مقدم الثمن الذى دفعته.. لينجح هو، ويكتشف أكثر من ذلك أن زوجته اليونانية البريئة «الساذجة» - كما تخيل - كانت يومًا بائعة هوى، ولكنه لا يغضب منها لأن الحب - فى رأيه - أقوى من الحقيقة.

تلك هى الرواية الجديدة لكاتب سويسرا الكبير فريدريك ديرينمات وعنوانها «كان يومًا يونانيًا».. والزوج الساذج يتحول أثناء الرواية إلى محقق بوليس يسعى وراء الحقيقة ليصل إليها حتى ولو أدمته!

وديرينمات فى رواياته يمزج الرواية البوليسية بالرواية الاجتماعية مثل رواياته الثلاث الأخيرة «اللعبة الخطرة» و«الرعد» و«البحر».. ومن سوء الحظ أننا نكتفى بترجمة مسرحيات ديرينمات ولا نهتم برواياته التى تمثل لونًا جديدًا من الأدب البوليسى أو الاجتماعى!!

.. الابتكار

الفرق بين الإنسان والقرد: الابتكارية

لو أتينا بطفل من عصر ما قبل التاريخ وعلمناه الآن لأصبح مستنيرًا كأى طفل يعيش فى العصر الحديث. ولو جئنا بقرد وظللنا نعلمه ملايين السنين فإن أقصى شىء يستطيع أن يفعله هو أن يمسك بالشوكة والسكين!

فالإنسان مختلف تمامًا عن القرود والحيوانات الأخرى.. ولدى الإنسان قدرات إبداعية استطاع أن ينميها وأن يتفوق بها على الحيوانات وعلى البيئة فى أكثر من عشرة ملايين سنة.

هذه القدرة عند الإنسان هى التى يمكن أن نسميها بالابتكارية.. والإنسان يبتكر فى كل مجالات المعرفة والتجربة. وأفكار الإنسان كالبذور التى لا نراها. إنها تنمو وتزهر وتثمر هناك بعيدًا عن أيدينا.

وليس الخيال إلا الفكر، وقد انساب فى سهولة وفى جرأة. وكل ابتكارات الإنسان مبعثها فكره وخياله.. وفكره ليس كله من ذاته، وإنما من واقعه أيضًا.. من مشاعره ومن احتياجاته وقد تناول روبرت مولر «الابتكارية» عند الإنسان فى عبارة حارة جميلة.. وقد كانت ترجمة الأستاذ حسن حسين فهمى لهذا الكتاب ممتعة.. والكتاب متعة للقارئ ولذة للمشتغلين بالفن والنقد الفنى والتربية أيضًا.

وقد استوقفتنى عبارة عميقة جاءت على قلم المؤلف وهو فى

طريقه إلى إنهاء فصول الكتاب. فهو يتحدث عن أثر العلم فى الفن.. ويرى المؤلف أن الفن يتأثر بأكثر العلوم انتشارًا أو سلطانًا فى عصر من العصور. فلا يكاد علم يكتشف مجالاً جديدًا حتى يمشى الفن وراءه.. يقول المؤلف: «لقد دمرت نظرية أينشتين فى النسبية ثبات واستقرار دنيا نيوتن المضبوطة».

وهذه العبارة صادقة وعميقة. لقد كانت الدنيا فى أيام نيوتن وبعده دقيقة ومضبوطة. وكل شىء يمكن التنبؤ به بحساب دقيق. وقد رأينا أثر هذا فى الفن.. فقد كان الأدباء يتحدثون عن دنيا مرسومة بدقة.. ويقدمون شخصيات محددة جدًا.. وهذا واضح فى كل أدب القرن التاسع عشر.. فلما أعلن أينشتين عن اكتشافه لنظرية النسبية، انهارت الدقة المؤكدة فى حركات الأجسام على الأرض وفى الكون كله.. وأصبح القانون الوحيد المؤكد هو قانون الاحتمال.. واختفت عبارة «من المؤكد» وظهرت «من المحتمل».. واختفت كلمة «قطعًا» وانتشرت «ربما» فى الأدب والفن، والفلسفة.. ولوحات بيكاسو وخطوطه القلقة المرتعشة.. ومسرحيات العبث عند بكيت ويونسكو.. والرواية اللاروائية عند ساروت وعند روب جرييه.. واختفاء الخطوط المحددة.. والحدود القاطعة، كل هذا يؤكد أن الفن يمشى وراء العلم..

ولكن الشىء الواحد المشترك بين الفن والعلم هو الإنسان طبعًا.. أى الابتكار.. وهذه الابتكارية.!

آية قرآنية..

فى تفسير آية من سورة العلق

النظريات العلمية متغيرة.. والكلمة النهائية فى العلم لم يقلها أحد بعد والذى تراه اليوم آخر ما وصل إليه العقل سيصبح شيئًا بدائيا بعد ألف سنة والذى كان يقوله نيوتن، قد أصبح متواضعا بعد نظرية أينشتين.

ولم يحدث فى تاريخ العلم أن سادت نظرية واحدة دون أن يضيف إليها الإنسان شيئًا جديدًا.. أو يمحوها نهائيًا ويضع بدلاً منها حقيقة جديدة. وهذا طبيعى؛ ولذلك فأنا أشفق على كل الباحثين الذين يجهدون أنفسهم فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث، أو على آخر ضوء للعلم الحديث.. فليس من أجل هذا أنزل القرآن الكريم. وإنما من أجل مثل عليا سامية تظل دائمًا فوق رءوسنا وأمامنا. ونحاول دائمًا أن نقترب منها.. والهدف الأسمى الذى يريد أن يحققه القرآن الكريم هو: الأخلاقيات العامة السلمية للمجتمع لكى يعم الخير والحب والسلام بين الناس ولكى يتحابوا جميعًا فى الله.. وهذا الهدف صالح لكل زمن ومكان.

وقد ارتعدت عندما أمسكت كتاب «بحوث فى تفسير القرآن» للأستاذ محمد جمال الدين عياد الذى اختار نموذجًا للتفسير.. سورة العلق. والآية الثانية من هذه السورة تقول: ﴿خلق الإنسان من علق﴾.. ويمضى المؤلف فى مقارنة هذه الآية بآيات غيرها:

من أى شيء خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره... ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة... والله خلقكم من تراب ثم من نطفة..

ويمضى المؤلف يناقش ترتيب النطفة والعلقة.. ويستعين بالنظريات الحديثة فى علم الأجنة.. ويشرح تركيب الحيوان المنوى والبويضة والتلقيح ومراحل نمو الجنين.. ويذهب إلى درجة الاختلاف فى الرأى مع أحد الأطباء المتخصصين، مع أنه هو غير متخصص ويدخل بك المؤلف فى تفاصيل كثيرة مرهقة لك وله أيضًا.

ولا تشعر بالارتياح إلا عندما تقرأ هذه العبارة غير المقصودة.. رغم ما وصل إليه العلم فى عصرنا الحاضر من تقدم مذهل.. فلا تزال الأجنة أمرًا محيرًا للعلماء لا يستطيعون تفسيره أو تعليله.. إلخ أى إن العلماء لا يستطيعون تفسير الأجنة والعلقة والنطفة إلخ، فهل نستطيع نحن؟ وإذا اهتدى العلماء إلى شيء، فسوف يهتدون إلى شيء آخر غدًا أو بعد غد.. فالذين يحاولون أن يجعلوا للقرآن معنى حديثًا يقعون فى تناقض.. فهم يريدون أن يجعلوا معانيه صالحة لكل زمان ومكان، وهى بالفعل كذلك، ولكنهم يعتمدون على نظريات لا تصلح لكل زمان ومكان.

ولكن أمام هذه المحاولات الصادقة لا يسعك إلا أن تحمد للباحث جهوده الشريفة، وإلا أن تشفق عليه من بحر العلوم المتلاطم المتضارب الآراء والنظريات.

الثقة.. والحب!

هز الأدب الذى ظهر ـ قبل الثورة الفرنسية ـ مشاعر الناس فى فرنسا والعالم كله.

ولايزال للأدب الروسى الذى كتب قبل الثورة الشعبية سحره العميق فى نفوس الناس ينفعلون به كلما عادوا لقراءته.

ولكن الأدب الفرنسى والأدب الروسى اضمحلا فى أعقاب الثورتين.

وليس اضمحلال الأدب مقصورًا على عهد الثورتين الفرنسية والروسية، بل إن الأدب والفن ينحدران ويتدهوران دائمًا فى كل عهود الثورات لأسباب كثيرة، وقد كان من المتوقع أن تكون هذه هى حال الأدب فى مصر فى عهد الثورة.. ولكن الحقيقة ومنطق الأرقام والإحصائيات تؤكد جميعًا أن الأدب قد راجت سوقه فى بلادنا وانتعشت أحوال الأدباء فى مصر فى عهد الثورة.

لقد أُنشئت أكثر من مؤسسة وشركة نشر تتنافس على نشر كتب الأدباء كبارهم والناشئين منهم. ولقد وجه أكثر من نقد فى وقت من الأوقات لذلك التعدد فى جهات النشر وطالب الأدباء والنقاد بتوحيد تلك الشركات.. ومن حسن الحظ أنها لم تتوحد ليستفيد الأدباء والفنانون.

وحصل الأدباء والفنانون على منح تفرغ من الدولة.. وكان هناك أكثر من رأى يعارض التفرغ ويتهم النحاتين والرسامين

والكتاب بأنهم فى بطالة مقنعة تحت عنوان التفرغ.. ولكن مما لاشك فيه أن بعض المتفرغين أنتجوا مسرحيات وقصصًا وأدبًا، ما كان يُتاح لهم أن يخطوا سطرًا واحدًا وهم يعانون وطأة العمل المضنى والمطالب المالية الملحة.

وتعددت الجوائز التشجيعية والتقديرية. والأوسمة للأدباء والفنانين، وخرج الأدباء المصريون إلى الخارج يزورون على نفقة الدولة بلاد العالم. وقال لى يوسف السباعى السكرتير العام للمجلس الأعلى للفنون: إن السر بعد هذا كله وقبل هذا كله فى انتعاش الأدب فى مصر منذ ٢٣ يوليو حتى الآن هو أن الثورة لم تفرض الحجر على حرية الأدب، لقد عُزل السياسيون والاقتصاديون، أما الأدباء والفنانون فتركتهم الثورة لم تعزل واحدًا منهم ولم تميز أحدًا على الآخر أو طبقة القدامى على الأجيال الناشئة أو العكس.

وكان من الطبيعى بعد هذا كله أن يبادل الأدباء الثورة ثقة بثقة وحبًا بحب.

هذه العزومة!

.. ولكن: لم أجد أثرًا للجبرتى!

نحن الآن نصنع تاريخًا جديدًا، ونحاول أن نعيد كتابة تاريخنا القديم. وهناك أساس واحد لكتابة التاريخ هو أن نكون صادقين فى تسجيل كفاح الشعب من أجل التحرر من الجوع والمرض والظلم والاستغلال.. أى من أجل الكرامة والعدل والكفاية.

وأنا أوافق الأستاذ محمود الشرقاوى فى تجديد هذه الدعوة. وفى محاولة اختيار نماذج من المواطنين ظلمهم التاريخ، وتولى هو العناية بهم. أو على الأصح، ظلمهم المؤرخون القدامى التقليديون. وهم تقليديون لأنهم يرون فى التاريخ سجلاً لحياة الملوك والأمراء والسلاطين. فالتاريخ هو العرش الذى تجره الخيول الملكية على تراب اسمه الشعب!

ولكن لا أوافق الأستاذ محمود الشرقاوى فى أسلوب توجيه هذه الدعوة التى ليست جديدة. فهو جعل الدعوة عامة. أقصد مجرد دعوة، أى مجرد «عزومة» على كتابة التاريخ. فلم يشرح منهجًا، ولم يختر منهجًا من مناهج كتابة التاريخ المعروفة. وهى مناهج: اشبنجلر أو توينبى أو التفسير المادى للتاريخ أو التفسير القومى للتاريخ. ولم تعجبنى تفسيراته فى اختيار النماذج الوطنية، رغم أنها بالفعل نماذج ممتازة فهو اختار: حجاج المغربى وحسن كريت وكريم وطوبار والسادات،

والبشتيلى ومكرم والمحروقى. النماذج لا غبار عليها، ولكن الغبار يقع على أسلوب تفسيرها!

وإذا نحن قرأنا كتابه «الجبرتى وكفاح الشعب» أصابنا اليأس من إمكان تحقق هذه الدعوة العامة فهذا الكتاب ليس له منهج جديد فى دراسة التاريخ ولا تجد فيه أى أثر من آثار هذه الدعوة الكريمة التى يدعو إليها. لاشىء جديدًا فى الكتاب.. ولا أسلوب العرض ولا أهداف الكتاب. وأعجب من هذا أننا لا نجد لهذا الكتاب أية علاقة بالجبرتى. بل إننا لا نفهم ما الذى حشر الجبرتى فى هذا الكتاب. فلا الكتاب مناقشة للجبرتى المؤرخ، ولا مناقشة لأسلوبه فى تسجيل التاريخ، ولا هو مناقشة لكفاح الشعب كما رآه الجبرتى، ولا هو تعديل للأسس التى سار عليها المؤرخ أو العصر كله..

إننى أوافق المؤلف على أن الدعوة عامة لوضع مقاييس جديدة لكتابة التاريخ، غير هذه المقاييس الخفية التى اتبعها المؤلف ولكنى لم أعثر لها على أثر!

صادق الرافعى..

استئناف الحكم فى قضية صادق الرافعى!

إحساس تلامذة ومحبى مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٩٣٧) بأنه مظلوم، جعلهم ينشغلون بالدفاع عنه، وينسون أن يقدموا للقارئ شخصية «المتهم».

وأحسن نموذج لهذا النوع من الدفاع ما كتبه المرحوم سعيد العريان عن الرافعى. فقد استند إلى كتفى الرافعى ليدله على خصومه. فإذا اهتدى إلى خصم، أو توهم خصومة انشغل عن الرافعى به نفسه.. أى إنه فى قلب المعركة تحول من الدفاع عن الرافعى إلى الإقامة بين صفوف أعدائه!

وحتى الدكتور حلمى مرزوق فى كتابه عن «تطور الفكر الحديث..» الذى صدر أخيرًا، اعتمد على معلومات سعيد العريان، وارتدى ملابسه واستعار عواطفه الملتهبة فى الدفاع عن الرافعى. وهذا موقف غريب! فنحن نعرف أن سعيد العريان قد أخفى عن القارئ وجهة نظره. وهى أن الرافعى مظلوم. ثم إنه واجه القارئ بحكم قوى. ولم يشأ أن يعرض عليه حيثيات الحكم.

ولذلك فمن الضرورى استئناف الحكم فى مثل هذه القضايا الأدبية.. فى قضية عبدالرحمن شكرى والمنفلوطى والمازنى وغيرهم. ولقد أسعدنى الناقد الشاعر كمال النجمى عندما أكد لى رغبته الصادقة فى أن يتولى هو التعريف بالرافعى، والدفاع عنه بعد ذلك. وهو أكثر اهتمامًا بالتعريف بالرافعى عن طريق إعادة

نشر مختارات من مؤلفات: وحى القلم وتحت راية القرآن وأوراق الورد ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر. وكمال النجمى قادر على ذلك، ولاشك.

ويجب أن نتنبه إلى حيلة يلجأ اليها الذين يتولون الدفاع عن «المظلومين» من الأدباء فهم عادة يجاهرون بشعار معروف هو: لا كرامة لرسول فى وطنه ومعنى ذلك أنهم قادرون على رد الكرامة إلى الرسول وتأديب هؤلاء المواطنين ومعنى ذلك أيضًا أنهم قادرون على هذا الدور التطهيرى الخطير.

وهم أيضًا يتناسون حقيقة مهمة وهى أنه: من الصعب أن يكون الإنسان محبًا وعادلاً فى نفس الوقت. فالذى يحب لا يرى الحقيقة، وإنما يغطى الحقيقة بما يعجبه من الأزياء.. ولذلك فالذى يكسبونه باسم الحب. يخسرونه باسم النقد النزيه!

قال بقراط..

هارب إلى خيمة فى الظلام!

كثير من كتب الطب تبدأ صفحاتها بعبارة الحكيم بقراط: العلم طويل، والعمر قصير، والفرصة لا تواتى، والتجربة مضللة، والفهم صعب!

والذى قاله بقراط عن العلم يصدق أيضًا على الفن. بل إن الفن أصعب.. فالفن يدخله عنصر الذوق، والذوق شخصى.. ولذلك فهو ليس علمًا.. ومع ذلك نحاول أن نجعل الذوق علمًا. ومن هنا كانت الصعوبة المزدوجة!

ولا شىء يريح من يدرس الفن مثل رجل عالم له ذوق فنان. وهذا النوع من الناس قليل جدًا.. ومن هذه القلة الممتازة: أوموفد ويلسون فى أمريكا، وأندريه مارلو فى فرنسا، وأرنست فيشر فى النمسا وقد ترجم أسعد حليم بأمانة وصبر وفى عبارة شفافة، كتابًا لأرنست فيشر جعل عنوانه «الفن والاشتراكية» بدلاً من العنوان الأصلى «ضرورة الفن» واكتفى أسعد حليم بالفصول الثلاثة الأولى بدلاً من الخمسة التى يضمها الكتاب.

والفصل الأخير من الترجمة العربية هو من أروع ما ظهر فى اللغة العربية عن المعانى التى تدور على الألسنة فى أوروبا والتى تدور على ألسنتنا هنا. ما معنى الضياع؟ ما معنى العدم؟ ما معنى الناس؟ ما معنى أى إنسان؟ ما معنى الغربة والاغتراب والتغريب والاستغراب؟ ما معنى الالتزام واللامنتمى، والانخلاع عن الواقع؟

إجابات واضحة من الأدب والفن والفلسفة والتاريخ تجدها فى الفصل الذى عنوانه «الرأسمالية والفن» ففى هذا الفصل يشرح أرنست فيشر ما الذى يحدث للفنان وللإنسان فى المجتمع الرأسمالى من شعور بأنه غريب، أو بأن المجتمع نفسه هو الغريب. ومن شعور بالضعف أمام الأجهزة والآلات التى اخترعها الإنسان ، ومن شعور بالتفاهة والعبث واللامعنى، ومن رغبة مؤكدة فى الهرب من الواقع على موتوسيكل يصرخ، وصراخه يمنعنا من أن نفكر.. أو من رغبة مجنونة فى أن ننصب «خيمة» فى قلب الظلام، كما قال همنجواى!

وفى المجتمعات الرأسمالية يشعر الإنسان والفنان أيضًا، بأنه مضطهد، وبأنه لا يدرى إلى من يشكو وإلى من يهرب.. إنه يشبه «يوسف ك» الذى صوره كافكا فى مرارة ويأس. إنه أيضًا يشبه «الأى إنسان» الذى يتحدث عنه فيلسوف الوجودية هيدجر ففى هذا الفصل تجد كل الحروف وكل النقط وكل خيوط الحاضر والماضى، وعلامات الطريق إلى المستقبل الذى يرى فيه وبه، دوره الحقيقى كإنسان يحس وينفعل، ويفعل كل ما يبدد الضياع والتفتت والعدم بين جماهير الناس.

والكتاب من أوله لآخره يجيب عن سؤال واحد: هل الفن ضرورى؟

والسطور الأخيرة من الفصل الخامس والأخير تلخص الإجابة كلها: «إن الإنسان لم يصبح إنساناً إلا بعمله. فهو قد خرج من مملكة الحيوان ليغير كل ما هو طبيعى ويجعله أداة مصنوعة، فأصبح بذلك ساحرًا، خالقًا لواقع المجتمع، وسيبقى الإنسان ذلك

الساحر العظيم، وسيبقى الإنسان بروميثيوس الذى أنزل النار من السماء إلى الأرض، وسيبقى الإنسان أورفيوس الذى سحر الطبيعة بنايه الحزين، وسيبقى الفن ما بقيت الإنسانية!

توفيق الحكيم معتزلاً!

الأديب غالى شكرى شخصية لافتة. فهو عندما يكتب، يقدم نفسه للقراء ثم يقدم موضوعه والموضوع عادة يكون «نفسه» مرة أخرى.. فهو يكتب دائمًا عن نفسه مباشرة، أو عن نفسه من خلال الآخرين.. وعلى الرغم من أن الأدب نوع من الاعتراف - وأن هذا ليس رأيه - فإنه يعترف دائمًا دون أن يطلب إليه أحد ذلك. فهو يعترف أمام قسيس. هذا القسيس هو التاريخ، أو هو نفسه.. فهو المعترف، وهو القسيس الذى يعترف أمامه.

وأوضح نموذج لهذا الأسلوب من الكتابة، كتابه الأخير «ثورة المعتزل» دراسة فى أدب «توفيق الحكيم» وفى كثير من الأحيان تسمع صوت غالى شكرى عاليًا جدًا، ولا تعرف ما الذى يقول.. ولكن من المؤكد أن هذا هو صوته، وليس من المؤكد أن هذا الرأى من تأليف الحكيم.

وأول سطر فى الكتاب يقول: «لا أدرى متى حدث ذلك على وجه التحديد، حين تأملت ظاهرة غريبة فى حياتى الأدبية، وهى أن موقفى من أدب توفيق الحكيم يتسم بسلبية واضحة.. فإننى لم أكتب عنه مقالاً واحدًا، ولم أكن أقرأ له بانتظام، وإنما كنت أتابع من إنتاجه تلك الأعمال التى تثير الشغب بين النقاد.. أستطيع أن أقول: إن هذا الموقف أخذ من عمرى عشر سنوات كاملة تبدأ حوالى عام ١٩٥٢.. إلخ.

وبعد ذلك تقرأ ٤٠٠ صفحة فلا تعرف بوضوح لماذا اتخذ منه

هذا الموقف السلبى. ولا تعرف لماذا أصبح إيجابيًا معه. أو لماذا أصبح الحكيم نفسه إيجابيًا، وإنما كل ما هناك هو أن المؤلف يقرأ بصوت مرتفع لأعمال الحكيم والمؤلف يعتذر فى المقدمة عن حماسه فى بعض مراحل حياته وعن فرحته «بايمان ما» ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن هذا الحماس الشديد فى اكتشافه لتوفيق الحكيم، أو لاكتشافه لنفسه فى توفيق الحكيم - مع أن كل هذا ليس واضحًا فى كل الكتاب!

وينتهى الكتاب بأن الحكيم لم يكن «معتزلاً» وإنما كان معتزلاً فقط فى لحظات الإبداع. وليس هذا اكتشافًا جديدًا لا بالنسبة للحكيم ولا بالنسبة للمؤلف، ولا هى غريبة عن أى مؤلف أو عن أى كائن حى أثناء الإبداع - أثناء الولادة.

والعيب الجوهرى فى هذا الكتاب، هو أن المؤلف ليس موضوعيًا تمامًا، رغم حرصه على ذلك. وإنما هو ذاتى جدًا، شخصى جدًا.. فهو لم يكتشف أن الحكيم كان معتزلاً ثم تمرد، وإنما اكتشف أنه هو شخصيًا كان معتزلاً عن أدب الحكيم، ثم تمرد على عزلته وسلبيته هذه. ولذلك فالكتاب ليس دراسة لأدب الحكيم، وإنما لأسلوب غالى شكرى فى تقويم الأدب العربى الحديث والمنهج العلمى فى كل مجال - منتهى التواضع العلمى!

وإذا استطعت أن تسد أذنيك عن صوت المؤلف وأنت تقرأ هذا المجهود الكبير، فستجد كتابًا مفيدًا.

أحياؤنا لا يرزقون!

الذين نظروا إلى القرية فى سخط!

فى هذا الأسبوع صدر كتاب عنوانه لايشجعك على الاقتراب منه العنوان هو «حياة القرى» والمؤلف معروف بدراساته الدينية والتاريخية والأدبية. وكان من معالم مجلة الرسالة إنه الأستاذ محمود أبورية.. وإذا قاومت الأثر المباشر لهذا العنوان فى نفسك وقلبت صفحات الكتاب فلن تتوقف. فهى دراسة موضوعية نقدية صادقة للحياة فى الريف. والنقد والصدق هما جناحا السخرية ولذلك فالكتاب يستدرجك كثيرًا إلى الضحك..

والكتب التى صدرت من قبل عن العادات والتقاليد الريفية كثيرة. والقليل يستحق الاهتمام. وربما كان كتاب المؤرخ الإنجليزى لين بول عن «العادات والتقاليد المصرية» أحسن الكتب تصويرًا لحياة المدن والريف فى مصر من مئات السنين.

ولاشك أن المرحوم أحمد أمين عندما أصدر «قاموس» العادات والتقاليد كان لا يرفع عينيه عن كتاب لين بول.

والمويلحى عندما كتب «حديث عيسى بن هشام» قد أضحكنا على الرجل الذى أتى به من عالم الموتى.. وجعله يصطدم بألغام الواقع «الجديد» لكى ننفجر نحن بالضحك والدموع.. بالضحك عليه وعلى ماضينا أيضًا، وبالرثاء له ولأبناء الريف.. والمويلحى، وإن لم يتخذ الشعار الفلسفى المعاصر: انظر وراءك فى سخط، فمن المؤكد أن هذا هو المعنى العام لكتابه.. فنحن

ننظر إلى الماضى فى سخط وقرف.. ورثاء.. أى فى سخرية. والسخرية ليست إلا السخط.. وقد ارتدى ملابس الأراجوز!

وكتاب الأستاذ محمود أبورية قد حقق لنا هذا كله: حسن الإدراك والدقة والصدق والسخط. وهذا الكتاب يضم مقالات كان قد نشرها من ثلاثين عامًا عن شكل القرية وآفاقها الضيقة.. وألوانها القاتمة وعزلتها التى أثمرت الخزعبلات والخرافات. والمؤلف يرى - أو يخشى - أننا ابتعدنا عن القرية. وأننا «انفصمنا» عنها تمامًا. وأصبحنا لا نراها ولا نحسها. ولذلك ننسى واجبنا نحو أهلنا الذين يعيشون فى عادات وتقاليد مرهقة عند الزواج والموت.. وعند الذين «يعملون» العمل و«يربطون» و«يحلون» الأزواج وعند أدعياء العلم وتجار الدين.. والمؤلف يؤمن بما قاله الإمام محمد عبده: «إن نجاح هذه الأمة إنما يكون بحسن التربية ولا سبيل إلى التربية فيها إلا بإصلاح معتقداته، وتصحيح ملكاتها حتى تستقيم بذلك أعمالها وتصلح أحوالها».

ومن النوادر التى يرويها المؤلف أن صحيفة المقطم نشرت فى سنة ١٩٣٤ أن صندوق نذور السيد البدوى عندما فتحوه وجدوا به مائة وخمسين ألف جنيه!!

ووجدوا خطابات يعتذر فيها أصحابها عن عجزهم عن سداد ديونهم للسيد البدوى..

وقرأ الناس هذا النبأ واندهشوا ولم يذهب كثيرون إلى أبعد من ذلك!

وضحك الناس مع الشاعر حافظ إبراهيم ومصمصوا شفاههم ورثوا لحال الشاعر ولأنفسهم:

أحياؤنا لايرزقون بدرهم وبألف ألــــف ترزق الأموات
للسيد البدوى ملك دخلــه خمسون ألفاً والحظوظ هبات
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أرجائها الصلوات

.. ولكن الأستاذ محمود أبور رية كان من القلائل الذين ذهبوا إلى أبعد من الدهشة والرثاء وأصدر هذه المقالات الساخطة من أجل إنقاذ القرية.. إنقاذها من ابتعادنا عنها.. وتنكرنا لها.. ونحن عندما ننقذها منا، ننقذها لأنفسا أيضًا.

فلسفة العقاد..

ثلاثة أنواع من الكتب صدرت عن العقاد. النوع الأول كان مجموعة من المقالات للعقاد نفسه. وقد كان العقاد أول من احتفل بالعقاد. فصدر له كتابان عن دار الهلال: حياة قلم وأنا. والنوع الثانى كان شيئًا من الترجمة الذاتية أو من الذكريات مع العقاد. فأصدر طاهر الجبلاوى صديق العقاد كتيبًا بعنوان «فى صحبة العقاد» وواضح من العنوان ومن الكتاب أنه عن العلاقة الطويلة التى ربطت المؤلف بالعقاد.. وأصدر عبدالفتاح الديدى كتابًا بعنوان «عبقرية العقاد».. وهى ترجمة ذاتية أيضًا. فقد استعرض الديدى الأفكار الفلسفية للعقاد. واعتمد فى مناقشتها على ما قرأه من كتب العقاد وعلى تلمذته الطويلة فى مدرسة العقاد.. أما النوع الثالث فهو الذى يعرض علينا العقاد عرضًا موضوعيًا يساعدنا على فهمه أكثر ويهدينا إلى الجوانب المتعددة فى حياته. وأول كتاب صدر بعد وفاة العقاد، كان «مع العقاد» للدكتور شوقى ضيف.

وأخيرًا كتاب لعبد الحى دياب بعنوان «عباس العقاد ناقدًا» فى ٨٠٠ صفحة. وقد حصل به الأستاذ عبدالحى دياب على الماجستير. وقدم له الدكتور غنيمى هلال وجاء فى المقدمة أن هذه الرسالة لها أهميتها البالغة فى نظرى لأنها أول رسالة فى جامعاتنا العربية تتناول بالبحث ناقدًا رائدًا، انفرد دون أقرانه بأن له فلسفة فى النقد الأدبى متكاملة وافية الأبعاد تربط الأدب

بذات الكاتب، كما تربط الأدب بنزعة إنسانية عميقة وبفلسفة فنية أعمق».

وهذا أيضًا ما حاوله المؤلف فقد استعرض «الخلفية» الشخصية والاجتماعية والسياسية والفكرية للعقاد. وأقام علامات بارزة فى حياته لنقد الشعر ولنقد النقد ومن المألوف فى الرسائل الجامعة أن يظهر موضوعها بوضوح، وأن يختفى المؤلف. لأن دور المؤلف عادة هو دور المخرج الذى لا يظهر فى الفيلم، ودور المهندس الذى لا يظهر فى العمارة. ولكن المؤلف واضح فى تناوله لهذا الموضوع الواسع الطويل، ولذلك فكتابه هذا هو أوفى وأوضح ما ظهر من دراسات عن العقاد.

الملح يتساقط

أساطير الإغريق تحدثنا عن حزن أورفيوس على حبيبته أريديس، وتحدثنا عن الآلهة الذين تأثروا لبكائه ففتحوا له أبواب عالم الموتى لكى يرى حبيبته، ووعدوه بأن يبعثوا فيها الحياة.. واشترطوا عليه أن يمشى أمامها وألا ينظر إليها إلا بعد الخروج من تحت الأرض.. من عالم الجحيم.. ولكن أورفيوس لم يطق صبرًا. راح يقاوم. وأخيرًا قرر أن ينظر إليها بكل ما فيه من استطلاع وشوق وحب. وعندما وقعت عيناه عليها،وقعت هى على الأرض تمثالاً جامدًا من الملح، وخرج أورفيوس أشد حزنا على حبيبته التى ماتت مرتين.

ماتت بلدغة ثعبان على سطح الأرض.. وقتلها هو بنظرة تحت سطح الأرض!

والنقاد فى الصحف اليومية والمجلات يقومون بدور أورفيوس هذا. فهم ينظرون إلى الأعمال الأدبية والفنية وهى ساخنة.. ينظرون إليها فور صدورها فتتحول فى أيديهم إلى بلورات جامدة لامعة لها طعم الملح. والذى ينشرونه مرة يعودون فينشرونه فى كتاب مرة أخرى!

وهذه هى قواعد اللعبة الصحفية.. أن ينظروا بسرعة ويكتبوا بسرعة.. فالقراء يحبون أن تكون المقالات كالخبز: طازة.. فهم يفضلونها ساخنة. ويحرص الناقد على أن يلبى رغبات القراء

فينتقل إلى العالم الساخن لينظر وراءه فى حرارة. فتتساقط أفكاره لامعة متبلورة ويندم الناقد ـ هو الآخر ـ على أنه لم يصبر قليلاً، على أنه لم يمضغ أكثر، لم يهضم أكثر، لم يكتب أطول وأهدأ..

والقليل من النقاد أوتوا الصبر على النظر إلى المحبوبة.. فجاءت مقالاتهم أكثر إشراقًا وأكثر حرارة وأكثر جمالاً..

ومن بين هؤلاء القليلين رجاء النقاش مؤلف. «أدباء ومواقف» والكتاب قد صدر عن المكتبة المصرية فى بيروت فى ٢٥٠ صفحة. وقد عرض رجاء النقاش مواقفه الأدبية من النقد والشعر والتاريخ.

وقد استطاع بعقل وذوق أن يجعل دراساته عميقة وجميلة فى نفس الوقت عندما ناقش العقاد وسعيد عقل وصلاح عبد الصبور وأوسبورن ولورانس داريل وقضايا الفن والأخلاق..

إن رجاء النقاش فى هذه الدراسات قد نظر وراءه أحيانًا ولكنه فى معظم الأحيان تلفت حوله.. ثم اتجه إلى الأمام فى صبر!

الحق أقوى!

بل يجب أن يكون الحق قويًا

لا مصر انهارت. ولا العرب تفككوا، ولا الأحرار ألقوا السلاح.

ولا أحد استسلم لأمريكا أو خاف من بريطانيا.

وكلنا يعتقد أن هذه ليست نهاية المعارك . وأننا إذا لم ننفض ملابسنا ونمسك رايتنا وننهض من جديد، فإن الاستعمار لن يقف عند حد.

وإذا كان العدوان الثلاثى الجديد يضم أظافر أمريكا وأنياب بريطانيا ومرارة إسرائيل فإننا نحن الأحرار أعداء الاستعمار لم نكن وحدنا. فقد كان العرب جميعًا معنا، أقوى مما كانوا فى أى وقت. ومعنا الأصدقاء الكبار. ومعنا الدول الناهضة مثلنا.

ويجب ـ فورًا ـ أن نضع يدًا على الجراح ويدًا على السلاح. وأن ننفض ملابسنا، ونفتح عيوننا.. فإن للاستعمار يقظة فى غاية الحقد، وحقدًا فى غاية اليقظة. ونحن أصحاب حق ولكن الحق وحده لا يكفى.. يجب أن يكون الحق قويًا!

هذا العدو يجب أن تعرفه أكثر!

** الجنود هم وحدهم الذين يعرفون الكثير عن عدونا إسرائيل. فهم يعرفون إسرائيل، بكل دقة، ويعرفون تلالها ووديانها ومستعمراتها، ويعرفون أسلحتها، ويعرفون من أين جاءت وكيف يستخدمها اليهود، ويعرفون نظام التسلح ونظام التطوع، ويعرفون الطرق المرصوفة والمغارات والمطارات.

ويعرفون الشركات التى تتعامل مع إسرائيل، والحيل التى تلجأ إليها إسرائيل فى تهريب الأسلحة وجنودنا يعرفون ما هى نقط الضعف فى الجيش الإسرائيلى وفى الجندى الإسرائيلى. إن جنودنا يعرفون عدوهم بوضوح.. ويقلبونه فى أيديهم كأنه قنبلة، يعرفون مادتها وأسرارها، ويعرفون فى نفس الوقت كيف يحولونها إلى سلاح ضده.

** ولكن عامة الناس ليست لديهم معلومات كافية عن إسرائيل، لا عن تاريخها ولا عن تكوينها الاجتماعى ولا عن دعاواهم التاريخية. ولا عن أساليبهم المختلفة فى تزوير التاريخ.

** ولذلك أرى أن من أهم واجبات الأديب والمفكر أن ينشر الفكر المعادى ويرد عليه. وأن ينشر تاريخ هؤلاء اليهود لنعرف من هم؟ ولنعرف أى نوع من الناس نعادى ونحارب.

** إن الكتب التى تتناول بنى إسرائيل وتاريخهم وأساليبهم

الملتوية لاختطاف هذه الأرض الغالية من الوطن العربى لا تزال قليلة. مع أن اليهود يتناولون العرب والإسلام فى كتبهم ورواياتهم وأفلامهم. ولا تفوتهم فرصة ينشرون فيها الأكاذيب والأوهام عنا.

* فالكلمة كالمدفع سلاح خطير أيضًا.. ومعركتنا مع إسرائيل معركة حياة أو موت، حياة عسكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية وإنسانية. ولذلك يجب أن نعرف كل جوانبها وكل أعماقها لكى نتمكن من القضاء على عداوة اليهود بالقضاء عليهم. ونحن لا نقضى على اليهود إلا بالعلم والمعرفة. فالعلم قوة، ومواجهة العدو شجاعة، والإصرار على المواجهة إيمان. ونحن لا تنقصنا شجاعة المؤمنين وقوتهم!

حاكموه وأدانوه!

محاكمة تشرشل وإدانته على مسارح لندن!

الرئيس جونسون يحاكم الآن فى محكمة فلسفية فى أوروبا. والقضاة فى مقدمتهم: الفيلسوفان راسل وسارتر. وهناك محاكمة أخرى له فى نيويورك فى مسرحية اسمها «ماكبيرد»، ومحاكمة ثالثة فى لندن فى مسرحية اسمها « الأمريكيون».

وجاء دور تشرشل الآن فقد صدرت للكاتب الألمانى رولف هوضهوت «٣٥ سنة» مسرحية اسمها «الجنود».

وقد استغرق إعداد هذه المسرحية ثلاث سنوات. قرأ فيها المؤلف كل الرسائل المتبادلة بين تشرشل وترومان وروزفلت وستالين، وقرأ عددًا كبيرًا من الوثائق السرية. وخرج المؤلف الألمانى بنتيجة واحدة هى أن تشرشل هو المسئول عن هذه الغارات العنيفة فوق المدن الألمانية. وأن هذه الغارات لا ضرورة لها. وأن رجلاً عاقلاً مثل تشرشل ما كان يجب أن يرتكب مثل هذه الحماقة.

والمؤلف لا يلوم هتلر على شيء. لأن هتلر رجل مجنون. والمجنون لا قانون له..

والمؤلف يتهم تشرشل أيضًا بأنه هو الذى دبر اغتيال الجنرال البولندى أسكورسكى إرضاء لستالين فعندما سقطت طائرة الجنرال فوق جبل طارق فى طريقها من القاهرة إلى لندن، لم يكن قضاء وقدرًا، وإنما كان بتدبير من تشرشل والمؤلف متأكد من

هذه التهمة. ولا يستطيع أن يعترف بمصدر هذه المعلومات. فقد سمعها من شخصية موثوق بها، وهذه الشخصية لا تزال حية.

وسوف يقوم لورانس أوليفييه بدور البطولة فيها، وقد اتفق لورانس أوليفييه مع المؤلف على حذف بعض مشاهد المسرحية، وتخفيف الهجوم الشديد على تشرشل. ولكن المؤلف أصر على أن يبقى موضوع اغتيال القائد البولندى ضمن هذه المسرحية.

ولما سئل هوضهوت عن شعوره وهو يصدم الرأى العام البريطانى أجاب بأنه كرجل ألمانى لا يهتم كثيرا وأنه لا يستبعد أن تعرض هذه المسرحية فى العشرين سنة القادمة على المسارح الإنجليزية. وإذا كان المسرح القومى قد رفض عرضها، فإن مسارح أخرى سوف تعرضها!

وفى سنة ١٩٦٣ ظهرت لهذا المؤلف الألمانى مسرحية «النائب» فى خمسة فصول وأحد عشر مشهدًا على مسارح برلين. وهاجم فيها البابا بيوس الثانى عشر لموقفه الضعيف من الأعمال الوحشية التى ارتكبها هتلر ضد اليهود. ولما سئل المؤلف الألمانى إن كان يشعر بالاحترام لتشرشل، أجاب: نعم.. ولكن احترامى للإنسانية كلها أعمق وأعظم. ولو كان تشرشل مجنونًا ما كتبت هذه المسرحية. إنها وثيقة اتهام لكل عاقل مسئول!

إن المسرح فى إنجلترا قد هاجم العدوان الثلاثى على مصر، ويهاجم سياسة أمريكا فى فيتنام، ويهاجم سياسة بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية.. إنها أقسى وأروع محاكمة فى التاريخ لكل مجرمى الحرب!

أرحم من النسيان!!

** لا أعرف كيف احتفلت طنطا بأديبها الكبير مصطفى صادق الرافعى.. ولكن أعلم مقدمًا أن الرافعى لم يتناوله أحد إلا من خلال «النص» الأدبى.. أى أن الرافعى ليس إلا عبارات مصنوعة فخمة.. فهو صانع متأنق.. بهذه النظرة صوره المؤرخون.. وفى هذا الإطار دخل تاريخ الأدب.. وهى لا شك نظرة ضيقة وظالمة.

ومثل الرافعى أديبنا المنفلوطى وكذلك أحمد حسن الزيات، فهم جميعًا أدباء متأنقون.. ومعنيون فى الدرجة الأولى بفصاحة العبارة.

** ولا شك أن المنهج الذى نطبقه على هؤلاء الأدباء هو منهج ضيق خانق.. وهو يجردهم من «الفكرية».. ويجعلهم أدباء «شكليين» وليس لهم أى «مضمون».. ومعنى ذلك أنهم لم يرتبطوا بعصرهم.. ولم يكن لهم أى دور فى إثراء الفكر والفن - منتهى الظلم!

** وكذلك حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وكامل الشناوى، وكل الأدباء الظرفاء.. فلأنهم امتازوا بخفة الدم فقد نظرنا إليهم على أنهم نسخ أنيقة من «جحا» وأغفلنا جوانبهم الحيوية، أو علاقاتهم، أو وضعهم التاريخى.. وبذلك يعيش هؤلاء «نكتة» اجتماعية ويموتون على أنهم نكتة أدبية - منتهى الظلم أيضًا!

** ولذلك فمن الضرورى عند دراسة الأديب الحى أو الميت، أن نضعه فى ظروفه.. وأن نربطه بها.. وأن نحمله أعباء التاريخ. وأن نحاسبه على الذى فعله وعلى الذى لم يفعله.. حتى إذا كان ينتقل بين الناس على أنه نكتة.. فهذا موقف، وهو الذى اختار أن يكون ابتسامة على وجوه الناس.. وأن يكون ابتسامة عابرة على وجه الحياة الأدبية.

** ولكن الذى يحدث عند «تأريخ» حياة هؤلاء الأدباء وغيرهم، أننا نفرض عليهم قيدًا حديديًا خانقًا ونقول لهم: عيشوا فى هذا السجن، فهو أرحم من النسيان!

هيرودوت كذب؟

المؤرخ الفرنسى دريوتون يؤكد أن الفراعنة عرفوا المسرح.. وعرفوا المسرحية والسيناريو والإخراج، وعرفوا كراريس الممثلين وكراريس المخرج وعرفوا الإدارة المسرحية. وكانت عندهم الأسطورة والمأساة والصراع، ولأن هذه المسرحيات ذات طابع دينى مقدس، فهى أنواع متعددة من المآسى ولم يعرفوا الكوميديا، فليس من السهل أن يضحك الشعب أمام الملك، أمام الآلهة.. ولو عرف المصريون النكتة لضحكوا من تسخيرهم لبناء المعابد تحت الأرض، والأهرام على سطح الأرض من أجل بضعة أفراد ـ لقد ضحك الإغريق كثيرًا على ملوكهم وآلهتهم بل إن الآلهة كانوا يحسدون البشر على قدرتهم على الضحك بلا مناسبة!

والمؤرخ الفرنسى دريوتون فى الكتاب الممتع الذى ترجمه د. ثروت عكاشة بعنوان «المسرح المصرى القديم» يبذل جهدا هائلا فى تفسير النصوص الدينية وفى عرض الحوار بين «الممثلين» وفى تفسير حركة الممثلين على «المسرح»، وهو يلفت القارئ إلى أنه ليس من الضرورى أن يبنى المصريون القدماء مسارح، ليكون هذا دليلاً على معرفتهم بالفنون المسرحية فأوروبا نفسها قد مارست المسرح دون أن تقيم أبنية مسرحية والإغريق عرفوا المسرح، ولم تظهر الأبنية المسرحية إلا فى وقت متأخر

ولكن هنا فارقًا هائلا بين المسرح الفرعونى والمسرح الإغريقى، فالمسرح الإغريقى فن متكامل المضمون والشكل، والمسرح الفرعونى طقسى.. بل إن الحوار فى هذه «المسرحيات» الفرعونية أقرب إلى الندب أحيانًا ـ وقد عرف الفراعنة النادبات ـ وأقرب إلى الحوار بين الكاهن والمذنب، أو بين المذنب و«العراف» ومعظم العبارات غامضة رمزية ولها شكل الحوار فقط، ولكن ليس الحوار فنًا مسرحيًا.. وإلا كان كل كلام الناس تأليفًا مسرحيًا!

ومن المؤكد أن علم المصريات لا يزال ناقصًا، فحجر رشيد لم يكشف لنا كل شىء، لكن ضاعت نصوص وأحرقت وأبيدت،ولم يبقَ إلا القليل، وهذا القليل مثل أصابع صغيرة تشير إلى جبال من الوثائق التى ضاعت، فالحضارة المصرية قد اكتشفت الخلود: الجرانيت والكتابة!

وربما كان المؤرخ الصحفى هيرودوت عندما زار مصر ٤٥٠ ق.م هو الوحيد الذى فى استطاعته أن يقول الكثير عندما أطلعه الكهنة على طقوسهم الدينية، فى مدينة «صا الحجر» ولكنهم اشترطوا عليه أن يسكت ووفى بما وعد ـ مع الأسف ! ولم يقل للأجيال القادمة ما الذى رآه من أسرار مسرحية، وإن كان هيرودوت قد اكتشف أن عددًا من المفكرين والأدباء الإغريق قد سرقوا واقتبسوا الكثير من الفكر الفرعونى ولم يشأ أن يذكر أسماء المقتبسين ولا ما الذى أخذوه؟!!

** وقد لاحظ أن المصريين لهم حياة مختلفة عن كل الشعوب الأخرى: فالنساء يذهبن إلى السوق والرجال يمسكون المغازل فى البيت، ورجال الدين فى العالم كله يطيلون لحاهم، وفى مصر بلا

لحية ولا شارب، والعالم كله يكتب من اليسار إلى اليمين، والمصريون يكتبون من اليمين إلى اليسار والعالم كله يعرض أعماله المسرحية أمام كل الناس، والمصريون يعرضون مسرحياتهم أمام الملوك ورجال الدين.. سرًا!

** ولم يشأ هيرودوت المؤرخ الصادق أن يخون الأمانة، فسكت وانطبقت شفتاه مثل طرفى ستار على «فن» المسرحية عند الفراعنة!

إن هيرودوت هو أول إنسان انفرد «بسبق صحفى» ودفنه فى صدره!

والكتاب الذى ترجمه د. ثروت عكاشة عمل تاريخى وفنى يستحق التقدير، وقد بذل د. عكاشة مجهودا هائلا، فى تيسير أسلوب الكتاب وأضاف إليه الكثير من الهوامش الشارحة، وفتح لنا بهذا الكتاب بابا للاجتهاد فى دنيا المسرح الفرعونى.

إن كتاب «المسرح المصرى القديم» قصة بوليسية مثيرة فالمؤلف يطارد الحروف والطيور والحيوانات على جدران مصر الفرعونية كلها لعله يسمع صدى دقات المسرح التقليدية، التى ترددت من ألوف السنين!

قالها كافكا..

الفلاحة التى قالت للمأذون : لا

كان فى نيتى أن أجعله عملاقًا، ولا أعرف كيف تحول فى يدى إلى صرصار ـ عبارة قالها كافكا عندما فرغ من قصته القصيرة التى اسمها «إنسان يتحول إلى صرصار» وحتى هذا الصرصار لم يكن حشرة، وإنما كان إنسانًا معذبًا عنده إحساس «حشرى».. أو عنده إحساس أنه حشرة حقيرة ملقاة على ظهرها لا تعرف كيف تعتدل على أرجلها!

هذا الشعور يغمر المؤلف عادة عندما يقبل بحماس ملتهب ليكتب قصة أو مسرحية، ولكن ما يلبث هذا الالتهاب الذى يذيب الحديد، أن يصبح حرارة يتمدد بها الحديد فقط، وبدلاً من أن يذوب الحديد ويشكله الكاتب كما يريد فإنه يصبح حديدًا طيعًا يلين ويقاوم ومن هذه الليونة والمقاومة يأخذ الحديد شكلاً أقرب ما يكون إلى الحل الوسط بين إرادة الكاتب وعناد الحديد!

وقد ذكرت عبارة كافكا هذه وأنا أقرأ رواية «شىء من الخوف» لثروت أباظة.. فقد بدأ ثروت أباظة روايته بنزعة صوفية غامرة.. فالبطل يشعر بأنه الكون كله.. السماء والأرض.. والتاريخ.. وقوى التاريخ.. وأنه الحاكم والمحكوم وأنه الفلاح والمحراث والقمح، وعلى الرغم من أنه هو كل هذا الكون، فإنه فلاح صغير فقير محدود، له اسم وجسم وبعد عشرين صفحة من

هذه الرواية يكون هذا الفلاح قد تزوج ويكون كل الناس قد تزوجوا.. وتحولوا إلى أناس عاديين، إلى براهين تؤكد صحة قانون الوراثة بين الأب والابن وقوانين الطبقة الفقيرة.

ومعنى هذا التحول من إنسان يتسع للدنيا، إلى إنسان مثل أى واحد فى الدنيا، أن الكاتب قد ارتفعت درجة حرارته ثم هدأت وأحس أنه كإنسان فنان لا يستطيع أن يخلق إلها، ثم يحركه على هواه.. فإذا كان هذا البطل إلها، كآلهة الإغريق مثلا، فلا مشكلة له لأن آلهة الإغريق كانوا فى حروب بعضهم مع بعض.. أما حروبهم مع البشر فقد كان أمرها سهلاً لأنهم كانوا يتحولون إلى حيوانات وأشجار ثم إلى بشر لا يموتون.. ولكن ثروت أباظة أحس أن الموضوع أكبر منه.. ثم جعل الموضوع فى مستواه.. ثم دون مستواه.. وتحول البطل العملاق إلى كائن صغير خائف جبان، ولم تكن مشاعر البطل الكبرى سوى كبرياء إنسان صغير فقير، استند إلى جدران الكون فى مواجهة الضياع.

والرواية جوها وخطوطها وشكلها ريفى إنها تدور حول إرادة أحد المجرمين أن يتزوج فتاة لا غير.. وعند عقد الزواج لم توكل أباها.. ولم توافق على الزواج.. فالزواج من الناحية القانونية باطل.. وهو طبعًا باطل من الناحية النفسية.. وأصبح بطلان الزواج رأيًا عامًا على ألسنة الناس وبالطباشير على الجدران.. وأصرت الفتاة وقالت: لا.. وقالت إنه حتى لو قتلها فلن يقتل حزنه عليها.. وشعوره بالخيبة.. على أن هذا الشعور بالخيبة هو مأتم لأمل لم يتحقق وعندما قتل المجرم زوجته، جاءت أمها وحملتها على ذراعيها ـ وهى صورة سينمائية ـ فى طريق

ازدحم بعيون الآخرين الساخطين.. فالناس أمام المجرمين الإرهابيين لا يملكون إلا النظرات!

ورواية ثروت أباظة جميلة وفيها طموح وحوار ذكى، والمؤلف ولا شك مثالى أخلاقى.. فهو يحلم بأن يكون الحب هو طريق الزواج.. وأن يكون الحب قانون القرية والفقراء.. وقانون الخارجين على القانون.

ذاهبون إلى القتال!

ما أشبه الليلة بالبارحة..

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة، وقد اطمأن إلى اليهود بعد أن وقع معهم معاهدة حسن جوار وسلام، ولكن قلوب اليهود لم تكن صافية، فقد خرج زعماء اليهود: حيى بن أخطب، وسلام بنْ مشكم، وابن أبى الحقيق، وهوذة بن قيس سرًّا إلى أن قدموا مكة وقابلوا سادات قريش، أعداء محمد والمسلمين، وراحوا يدعونهم ويحرضونهم على حرب الرسول (ﷺ) وقالوا: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله»..

فقال أبو سفيان: «مرحبا وأهلا، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد يا معشر يهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دين محمد؟»..

وقال اليهود فى نفاق، كما هى عادتهم: «بل دينكم أولى من دينه وأنتم أولى بالحق منه».

وفضلوا فى سبيل تحقيق مآربهم السياسية عبدة الأوثان على الداعين إلى الله الواحد القهار، ولما اطمأنوا إلى خروج قريش معهم لقتال محمد والذين معه، جاءوا غطفان وقبائل العرب ودعوهم وحرضوهم على رسول الله (ﷺ) وقالوا: «إنا سنكون معكم وإن قريشا قد بايعونا على ذلك، وجعلنا لهم ممر خيبر سنة إن هم نصرونا عليه».

وتجهزت قريش وغطفان وقبائل العرب وساروا إلى المدينة للقضاء على رسول الله وصحبه وأتى إلى المدينة ركب من خزاعة وأخبروا رسول الله (ﷺ) بما اعتزم اليهود وقريش وقبائل العرب التى لم تدخل فى دين الله، فراح رسول الله (ﷺ) يستشير أصحابه فقال سلمان الفارسى: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا».

وحفر المسلمون خندقًا حول المدينة، وجاءت قريش وقبائل العرب، ولما نظر المشركون إلى الخندق، قالوا: « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب لتكيدها».

وحاصر العرب الذين استجابوا لدعوة اليهود المدينة، واشتد الضيق بالمسلمين، حتى إذا ما بلغت القلوب الحناجر، هبت ريح ليلاً فقلعت الأوتاد، وكفأت قدور قريش، وسفت عليهم التراب، فارتحلوا هربًا فى ليلتهم، ولما علم رسول الله (ﷺ) برجوع الأحزاب قال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وقد كان، فإن رسول الله (ﷺ) بعد الخندق سار إلى أعدائه وغزاهم فى عقر دارهم، وجاء الله بالنصر المبين.

وفى سنة ١٩٥٦ خرج بن جوريون إلى فرنسا وإلى إنجلترا ودعاهم لحرب المصريين وقال لهم: «إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصلهم».

فقال إيدن ومولية : «مرحبا وأهلا، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة عبد الناصر وصحبه».

ودبرت الخيانة بليل، كما دبرت من قبل، لما اجتمع زعماء اليهود بسادات قريش، وتجهزت إنجلترا وفرنسا، وأرسلت

أساطيلها وطائراتها لغزو مصر، وكان الاعتداء الثلاثى الآثم، وأيد الله بنصره المصريين، كما أيد بنصره من قبل المؤمنين، وجاء الله بالنصر، واندحرت قوى العدوان، كما اندحرت الأحزاب عند الخندق، وقد قال الصناديد من العرب، كما قال الرسول:

ـ الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم.

وما أشبه الليلة بالبارحة، إن تباشير النصر تلوح، وإننا لا نقول لزعيمنا وقائد ثورتنا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، كما قال اليهود لموسى ـ عليه السلام ـ، بل نقول له كما قال الأنصار للرسول (ﷺ): اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما ذاهبون، ووالله لو خضت بنا البحر لخضناه معك.

قتل ضميره!

من مذكرات أديب غير ملتزم

لا أعطف على الفقراء، ولكن أحقد على الأغنياء!

تصدر هذا الأسبوع ولأول مرة «المذكرات المفقودة» للأديب الفرنسى جوستاف فلوبير وقد كتبها وهو فى التاسعة عشرة من عمره.. وهى تؤكد أنه أديب عظيم.. وعظمته فنية، وفنه للفن فقط.. وفيها يقول: أنا أضع العواطف فوق العقل، والرحمة فوق العدل، والدين فوق الفلسفة، والجمال فوق المنفعة، والشعر فوق الجميع.

ويقول أيضًا: كل عمل نقوم به من أجل الخير هو غرور كاذب.. فنحن لا نعطف على الشحاذين ولكن يرضى غرورنا أن نعطيهم.. إن الإنسان يحب الجمال ويكره القبح بطبيعته، وهذا يفسر كراهية الكلاب للشحاذين.. فملابسهم ممزقة ورائحتهم كريهة..!

ويقول فى مذكراته أيضًا: إننى أحقد على الفنانين الكبار، عندهم المال والجمال والمتعة، آه لو كنت امرأة لما توقفت عن الرقص والغناء والحب والتأوهات.

ويقول أيضًا: لا أحب السياسة.. ولا أمل لى فيها.. وأفضل ألف مرة تصفيق الناس، وأنا فوق المسرح على تصفيقهم وأنا فوق منصة..!

ويقول : لا أرى أن تحرير الزنوج والنساء شىء عظيم..!

ويقول: ليس فى الدنيا أروع من أحلامى.. ومما يقوله

جوستاف فلوبير فى مذكراته هذه: ماذا يهمنى أن تتحطم الحضارة الغربية ألف مرة؟

كل ما سوف يحدث هو أن يعيد المؤرخون كتابة التاريخ..! إننى لا أحب العمال.. ولا أعطف على الفقراء.. إننى أشترك معهم فى شىء واحد: هو كراهيتهم للأغنياء..!

لمثل هذه المعانى الشاذة كان جوستاف فلوبير نموذجا للأديب الذى لا يريد أن يكون مسئولا عن عصره وقضايا عصره. فهو يريد أن يكون طفلاً مدللا.. لأن الطفولة تعفيه من المسئولية.. ويريد أن يكون امرأة تروى جسدها وتنشغل بحواسها عن الدنيا كلها.. أما الفقراء فهم لا يعنونه فى شىء إنهم لا يستحقون العطف ولا الشفقة ولا الوقوف إلى جوارهم ضد جشع الأغنياء الذين سلبوهم حياتهم.. وجوستاف فلوبير لا يرى الواقع.. وإنما يحلم بشىء آخر.. وفى رسالة بعث بها إلى أمة من مدينة القاهرة سنة ١٨٥٠ يقول فيها: «إننى أرى الخرائب والآثار القديمة، وأمام هذا الحطام يحلم الإنسان بشىء أجمل..»!

إن فلوبير أديب قرر أن يقتل ضميره، ويعانق نفسه، ويجتر شذوذه، وينفصل عن الوعى الصاعد فى عصره ليكون الصورة الكاملة لفنان لا ينتمى ولا يلتزم..!

موجة جديدة!

فى الفصل الأخير من مسرحية «لعبة البيت» للكاتب النرويجى إبسن، خرجت البطلة ساخطة وأقفلت الباب فى وجه زوجها بعنف.. وأحس المتفرجون أن البطلة غير مهذبة ثم اكتشفوا بعد ذلك أن المؤلف وقح لأنه أراد أن يقفل الباب فى وجه المتفرجين، وفى وجه كل الرجال فى القرن التاسع عشر فقد أرادت البطلة أن تقول: إننى لست لعبة.. إننى إنسان أيضًا!

ومنذ عشر سنوات حدث نفس الشىء على المسرح الإنجليزى فقد تحطمت النوافذ والأبواب، وتراشق الجمهور والممثلون بالبصقات واللعنات.. فقد اجتاح الأدباء الساخطون مسارح لندن.. وداسوا فيها المقدسات الجامدة لبريطانيا والتقاليد التى تمنع الأدب الشاب من الظهور إلى جوار شكسبير وشو.. وتسلط أوسبورن وبنتر ووسكر على الرأى العام الإنجليزى..

وأحس الناس أن رياحًا كريهة قد اجتاحت التاج البريطانى فى السياسة وفى الأدب وظهر مؤلف مسرحى أيرلندى اسمه بيهان عرض مسرحية «شخص غريب» هاجم فيها السجون الإنجليزية!

ولكن يبدو أن الساخطين قد تعبوا وأن موجتهم العالية العاتية قد انحسرت وظهرت على المسرح موجهة أهدأ وأعمق، فالساخطون جميعًا من الطبقة العاملة الفقيرة وكلهم لم يدخلوا

أبواب الجامعات، أما الموجة الجديدة فهى لأدباء جامعيين لا يربطهم خط أو خيط واحد.. ولكنهم يواجهون الواقع برفق أحيانًا وبقسوة أحيانًا.

فمسرحية إدوارد بوند التى عنوانها «لم ينقذوه» يظهر فيها طفل صغير يذبحه أحد البلطجية فيصرخ المتفرجون.. وفى نفس الوقت ينكشف نفاق المتفرجين.. فهم يفزعون من مشهد طفل يموت أمامهم، ولا يفزعون لألوف الأطفال يموتون من الجوع ونقص الدواء، ولألوف الرجال يموتون على خط النار..!

وكاتب مسرحى اسمه هامبتون يناقش فى مسرحيته التى عنوانها «متى قابلت أمى لآخر مرة؟» كيف أن الشذوذ الجنسى سببه الفقر وعدم التوافق الاجتماعى.

وأحسن أدباء الموجة الجديدة هو «بيل نوتون» وهو من المؤمنين بالحب والرفق فى البحث عن الحلول، ولذلك فشخصيات مسرحياته أناس عاديون يعيشون فى المصانع أو حولها وهذا واضح فى مسرحية «الربيع والنبيذ» وفى مسرحية «الغى»..

وهؤلاء الأدباء الجدد لم تتضح عندهم الرؤية بعد ولكنهم يرون شيئا ويقتربون منه.. وهم يحاولون كما حاول موسى عليه السلام أن يضىء نارًا فى الليل؛ ليهتدى بها فى صحراء التيه.. وهم يحاولون أن يخرجوا من متاهات السخط إلى وديان المحبة والسلام!

اللغز السنوى!

ألفريد نوبل تنبأ بمصير الجائزة التى تمنحها السويد باسمه كل سنة فهو الذى قال: «هذه الجوائز والنياشين لا قيمة لها فالنيشان الذى أخذته من السويد أدين به لطاهيتى التى استطاعت أن تبهر أعضاء البرلمان بطعامها الشهى.. والنيشان الذى أخذته من فرنسا أدين به لصداقتى لبعض الوزراء.. والنيشان الذى أخذته من البرازيل، أدين به لمجرد أننى أعرف الإمبراطور»!

وأصبحت الآن جائزة نوبل للآداب هى تسلية العالم كل سنة وربما كان برنارد شو أول من افتتح قائمة احتقار هذه الجائزة، وقد قال شو: إننى أغفر لألفريد نوبل أنه اخترع الديناميت، ولا أغفر له أنه أوصى بهذه الجائزة! وقال شو أيضًا: إن هذه الجائزة تشبه طوق النجاة الذى ألقى إلى غريق بعد أن اقترب من الشاطئ!

ورفض هذه الجائزة باسترناك، أديب روسيا ورفضها سارتر أديب فرنسا..

وهذا العام رفضها البابا بولس السادس، وقد أعلن الفاتيكان: أن البابا لن يقبل هذه الجائزة للسلام، لأن نشر السلام بين الناس أحد واجباته، ولما خشيت أكاديمية النرويج من صدى هذا الرفض البابوى، قررت إلغاء جائزة السلام.

وهذا العام عادت أكاديمية نوبل إلى نفس النكتة القديمة المتكررة فمنحت جائزتها الأدبية إلى مؤلف إسرائيلى مجهول اسمه صمويل جوزيف آنيون (٧٨ سنة). وهو لا يكتب إلا

بالعبرية. ولم يترجم له إلا كتاب واحد إلى الإنجليزية ومواطنوه لا يعرفونه، ولم يقرأوا له، وكانت مفاجأة لهم أن يفوز هذا المجهول الذى أقام فى فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٠٨!

وفازت بالجائزة أيضا شاعرة يهودية مجهولة اسمها نيللى ساكس (٧٦ سنة)..

وقبل ذلك فاز بجائزة نوبل فى الأدب كرافلت - أديب سويدى هل تعرفه؟ ومسترال شاعرة من شيلى ودليدا شاعرة إيطالية وكوزيمودو إيطالى، وسيفيريس يونانى وسان جون برس فرنسى ولاكسنس أيسلندى.. وكلهم مجهولون حتى لمواطنيهم!

وقد اختارت أكاديمية السويد هؤلاء الأدباء المجهولين، لأنها لا تريد أن تختار الأدباء الذين لهم موقف واضح فى السياسة أو فى الدين، وهى عندما اختارت أديب روسيا باسترناك لأنه كان على خلاف مع شعبه، فأحرجته. وعندما اختارت فى العام الماضى شولوخوف، فلكى تعتذر عن «مطب» باسترناك، ولكى تكفر عن رفض تولستوى وتشيخوف وجوركى وبافلوف!

ولا شك أن اختيارها هذا العام لاثنين من الأدباء اليهود يكشف عن روح المغامرة السياسية.. والأدبية التى تتسلح بها أكاديمية - أكاذيبية - السويد.

ولا أستبعد فى العام القادم أن تمنح هذه الأكاديمية جائزتها للسلام أو للأدب للحبيب بورقيبة باعتباره عربيا - وهى تعلم مقدمًا أنه ليس إلا عربى اللغة والوطن، ولكنه إسرائيلى التفكير!

شخصية مغرية!

عباس العقاد شخصيته تغرى بالدراسة

سوف تصدر عن العقاد كتب أكثر من التى صدرت عن طه حسين والحكيم، لأنه من السهل تحديد دور طه حسين فى الرواية والتاريخ.. وقد تحدد ومن السهل تحديد دور الحكيم فى المسرحية والقصة.. وقد تحدد، ولكن العقاد لم يتحدد دوره ولا وضعه.

فالعقاد قضية، ولذلك لابد أن يترافع فيها النقاد والمؤرخون؛ وأن يستدعوا المزيد من الشهود، وأن يتداولوا وأن يراجعوا حيثيات الحكم.

والعقاد أيضًا شخصية شائكة. فقد عاش مناضلاً متحديًا عنيفًا وكانت له مواقف، وكانت له أحكام.. ولابد من مناقشة هذه المواقف والأحكام من كل الاتجاهات الفكرية والفنية والسياسية.. وهذا يغرى الباحثين بتناول العقاد من جديد دائما.

والعقاد قد ظلم نفسه ظلمًا شديدًا، فقد بدأ العقاد حياته ساخطًا على القيم البالية، والأشكال الجامدة، فى القصة واستطاع أن يلقى الضوء على أدوات الدراسة والنقد ولكن العقاد فى سنواته الأخيرة وقع فى مصيدة الرأى العام غير المتخصص، فالرأى العام نظر إلى العقاد على أنه رجل متغطرس، وعلى أنه رجل متعصب، وعلى أنه أصيب بعمى الألوان العقائدية.. فماذا كانت النتيجة؟ لقد اتخذ العقاد ملامح هذه الصورة القاسية التى اختارها الناس له وكان حريصًا على أن يكون قريبًا من هذه

الصورة المشوهة.. ولذلك تغطرس وتعصب وضاق بكل رأى يخالفه مع أن العقاد بدأ حياته واسع الصدر، واسع العقل ولذلك لابد من رفع هذا الظلم عن العقاد.. وهذا يغرى الباحثين بأن ينقذوا العقاد من نفسه!

والكتب التى صدرت أخيرًا عن العقاد كانت لأدباء يرونه عن قرب: تلامذته وأصدقائه..

والذى يرى عن قرب لا يرى بوضوح.. وهو فى الواقع لا يرى، وإنما هو يكتب من الذاكرة، أو يكتب من صميم وجدانه.. ولذلك فهو ليس ناقدًا للعقاد، وإنما هو عاشق مخلص.

وهذا يغرى أيضًا بالابتعاد عن العقاد لرؤيته أوضح وأشمل.

والدراسة الأكاديمية الوحيدة للعقاد ـ وهو رجل غير أكاديمى ـ هى التى صدرت لعبد الحى دياب فى ٨٠٠ صفحة عن (عباس العقاد ناقدًا).

وهى جيدة صابرة، وهى ككل الدراسات الأكاديمية شاملة موضوعيةولكن عيبها الأساسى أنها تجيب عن سؤال واحد هو: من أين لك هذا؟ ولذلك فالباحث يملأ الدراسة بالمراجع، أى بالمصادر التى أخذ عنها ولا أحد يسأل الباحث مثلا: من أين لك هذا المعنى السخيف أو المعنى الجديد، وإنما المهم أن يثبت الباحث أمانته. فالباحث فى حالة دفاع عن النفس باستمرار.. وهو لكى يثبت أنه أمين يسوق أمامه مظاهرة من الشهود الذين يؤكدون صدق أقواله!

والدراسات الأكاديمية تشبه «قوائم» الطعام الأنيقة المنظمة الشاملة، ولكنها ليست طعامًا.. وإنما الطعام يجىء بعد ذلك ـ أى

عندما يتناول الباحث هذه الدراسات الأكاديمية بالقراءة.. فيمتصها ويقرؤها، كما كان العقاد يفعل دائما.. فقد كان العقاد كالنحلة يطير هنا وهناك ويعود يفرز خلاصة ما قرأ وما فهم وما تذوق.. بل لقد كان العقاد خلية نحل!

وهو ولا شك شخصية غنية مثيرة تغرى كل باحث بأن يتحول إلى مكتشف وإلى محام وإلى وكيل نيابة وإلى عاشق وإلى ساخط.. ولكنه سيكون ناقدًا دائمًا!

حياة بلا قصة!

عندما يخاف الأديب من التاريخ

الأديب الذى لا يكتب قصة حياته، يتولى النقاد والمؤرخون اختراع قصة له، وقد يكون هذا الأديب سعيد الحظ فيقرأ هذه القصة الخرافية، فيدافع عن نفسه وينشر الحقيقة كما يراها، أو كما يجب أن يراها الناس، ولكن معظم الأدباء الكبار ـ مع الأسف ـ لم يتنبهوا إلى ضرورة أن يسجلوا حياتهم، قبل أن يسجلها الناس!

والكاتب الإنجليزى توماس هاردى (١٨٣٠ ـ ١٩٢٧) حالة نموذجية. فقد عاش طويلاً دون أن يفكر فى كتابة قصة حياته مؤمنا بأنه ليس فى حياته ما يستحق التسجيل، وليس مغرورًا لدرجة أن يتصور أن له حياة! فكتب بعض المعاصرين قصة حياته وكانت مكذوبة، فاضطر إلى أن يكتب مذكراته وإلى أن يملى بعضها على زوجته الأولى.

ولكنه لم يكمل هذه الاعترافات.

فجاءت حياته ناقصة، ومذكراته اليومية لا تدل على شىء هام.

وساء حظه مرة أخرى عندما تولت السيدة فلورانس هاردى زوجته الثانية كتابة حياته بعنوان: «حياة توماس هاردى» وأضيف هذا الكتاب إلى السلسلة التعيسة التى كتبت عن حياة الأدباء بأقلام زوجاتهم.. فهى صورة للزوج المشغول أكثر منها

صورة للفنان المهموم وهذه النظرة الضيقة هى التى جعلت هذه الزوجات لا يرين من الفنان إلا أنه زوج مقصر فى واجباته الزوجية والاجتماعية.

وهذا المعنى تجده عند زوجات: تولستوى ودستوفيسكى ود. هـ. لورانس وهمنجواى وبيكاسو.. إلخ.

وزوجة توماس هاردى وإن لم تشر إلى هذا الرجل كزوج، فإنها عاشت معه فى وقت ما كان يصلح فيه أن يكون زوجا، وإنما هو أديب يصفى حسابه مع الأدب والحياة.

وكتاب «حياة توماس هاردى» قد ترجمه عثمان نويه فى جزأين من ٨٠٠ صفحة وعثمان نويه من أقدر الأدباء على الترجمة المشرقة، وقد صدرت من قبل كتب مترجمة فى الفلسفة وفى الأدب وتاريخ الأدب، كلها تمتاز بهذه المقدرة على إشاعة الشفافية فى الألفاظ والحيوية فى العبارة.

وإذا جاءت هذه الترجمة لحياة الرجل ضخمة ومكدسة بالمعانى والمواقف، فلأن زوجته حاولت أن تحتفظ له بكل ما قال، أيا ما كان الذى قال.. وعذرها هى أيضًا أن زوجها يرى أنه مثل إنسان كل أطرافه متداخلة فيما عدا رأسه.. فهى وحدها التى تطل من الأمام..

فهى أول ما يتصل بالعالم الخارجى.. ولكنها مع ذلك مقفلة ومنطوية على نفسها.. ولذلك لم تكن له حياة تستحق التسجيل.

الرواية الجديدة

كل ملابس هذه الشخصيات لا تهم

فى الرواية الجديدة نجد هذا التمرد الصارخ على القوالب والتحديدات القاطعة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عند بلزاك بصفة خاصة، فعند بلزاك نجد أن القصة لها أول معروف جدًا ونهاية مؤكدة، ونجد الشخصيات كلها مرسومة بدقة وعناية، وأن بصمات الشخصية لا تضاهى أية بصمات أخرى، وتحس أن المؤلف هو ضابط بوليس جنائى وكلب بوليسى وناقد وطبيب وعالم ويعرف كل شىء عن شخصياته، وهو الذى اختار لها لون الحذاء ولون الشارب، والحذاء ليس حذاء فقط، وإنما الحذاء له دلالة طبقية فكل طبقة لها حذاء من نوع خاص «وبلزاك ودستويفسكى وفلوبير» وغيرهم يعرفون كل شىء فى أعماق الشخصية.. فهم ليسوا مؤلفين وإنما هم آلهة!

وهذا طبيعى بالنسبة لأناس عاشوا فى ظل رياضيات نيوتن فكل شىء عند نيوتن دقيق ومعروف، وكل قوانين الأرض والسماء مؤكدة، والإنسان قد أصبح عالما بكل شىء لا يخفى عنه شىء ولا يخيفه شىء!

وقد سار الأدباء فى نفس الخط الذى سار فيه علماء الرياضيات والطبيعة والفلك!

ولكن هذا «اليقين» وهذه القواعد «القاطعة» قد زلزلتها نظرية النسبية.. ونظريات الاحتمالات الكبرى فى الطبيعة وفى

الرياضيات.. وتكوين الذرة نفسها لم يعد شيئا ثابتا ولا حركات الذرة مؤكدة ولا معروفة مقدما. هناك احتمال هناك شىء لا نعرفه بل هناك كثير جدًا لا نعرفه.. ثم لا يوجد هذا الإنسان البطل الهرقل الذى يقدر على كل شىء.. ويعرف كل شىء من أوله إلى آخره..

والرواية الجديدة فى فرنسا عند جرييه وكلود سيمون وساروت وفى سويسرا عند ماكس فريش، كلها تقدم لنا شخصيات ليست بطولية أو تقدم لنا أشياء لها قوة الشخصيات.. وتقدم لنا قصصا ليست محددة مؤكدة، فالمؤلف هو وشخصياته يتفاعلون معا، ويخرج من بينهما شىء لم يكن معروفا عند كتابة القصة.. والعالم الذى يعيش فيه الإنسان ليس كله من الناس، وإنما من أشياء جامدة تربطنا بالناس..

بل إننا لا نعرف أوصاف أبطال هذه القصص.

لا نعرف أسماءهم، فقد كانت الأسماء ضرورية فى المجتمع البورجوازى، وكان الزى هامًا جدًا ولكن من الذى يذكر أوصاف بطل قصة «الغثيان» لسارتر؟ من الذى يعرف ملامح بطل قصة «الغريب» لكامى..

لقد تقاربت معالم الناس وتشابهت، وأصبح الفصل الدقيق بين الناس صعبًا.

إن روايتين جميلتين لماكس فريش واحدة عنوانها: لست أنا.. والثانية عنوانها: ليكن اسمى فلانا والروايتان تعالجان مشكلة حقيقة الإنسان وصفاته وحقيقة التاريخ الإنسانى.

إن بلزاك كان مثل الرياضيين يرون أن الإنسان قد أصبح

قادرًا على كل شيء.. إنه إله.. أما الروائى الحديث فليس إلها، وإنما هو والمضمون والشكل والأشخاص على باب الله فهو لا يعرف من الحقيقة أكثر مما تعرفه شخصيات قصصه.

المترجم يمنى..

مسرحية هامة يترجمها أحد وزراء اليمن

عندما يكون الجوع هو بطل المسرحية، يصبح الممثلون شهود إثبات، والمجتمع متهمًا، والمؤلف خطيبًا ثوريًّا، وبراعة المؤلف تظهر بوضوح عندما لا تسمع صوته وهو يخطب وعندما لا ترى تشنجات الممثلين وهم يعرضون قضاياهم على الجمهور وهو يهتز ويسخط ويثور.

وقد كان المؤلف الأمريكى كليفورد أودتس بارعًا فى مسرحيته الهادفة «فى انتظار اليسار» التى ظهرت على المسرح سنة ١٩٣٥ أى عندما كان مؤلفها فى التاسعة والعشرين، وعندما كان مترجمها فى الثالثة من عمره، ومترجمها هو الوزير اليمنى السابق محمد أنعم وترجمته سليمة وإن كانت بها بعض التراكيب اللغوية غير السليمة..

وهذه المسرحية تعرض قضية، وتعرض أسلوبًا لحلها، فنحن أمام جماعة من العمال جلسوا على المسرح، وجلوسهم هو نوع من الاجتماع السياسى، إنهم يريدون زيادة فى الأجور وأصحاب رؤوس الأموال يرفضون فما هو الحل؟ الجواب: الإضراب طبعًا.

إذن لابد من أن يعرض المؤلف قصتهم واحدًا واحدًا وتتسلط بقعة من الضوء على كل منهم، فى نفس اللحظة التى يعرض فيها مدى قدرته على الثورة ولماذا يثور، وبقعة الضوء تتخللها أدخنة من سيجار واحد رأسمالى، والدخان ضرورى بل

والرأسمالى نفسه فى استطاعته أن يتجول على المسرح كما يحلو له، وأن يسمع وأن يعترض، ويكفى أنه يحول بين المتفرجين والممثلين..

أو بين الممثلين والمتفرجين الذين هم كوروس هذه المسرحية.. أى الذين هم طرف فى قضية الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية.

وتحت الضوء وتحت الجوع تتهالك أواصر الحياة الزوجية، وتذوب المثل الأخلاقية.. ويزداد بعض الناس صلابة..

فهم جميعًا يعيشون على أمل أن يتحقق الاتحاد والاتحاد قوة.. وعلى أمل آخر هو أن يظهر العامل الذى اسمه: ل ف ت ى - أى اليسارى أو اليسار.. ويظهر فى نهاية المسرح أن الرصاص قد أصابه وأنه لن يجىء ولكن إذا مات يسارى، فاليسار نفسه لم يمت!

وليست هذه جملة خطابية مثل عشرات العبارات الخطابية التى ظهرت فى هذه المسرحية وفى مسرحية أخرى هى «استيقظوا وترنموا» وإنما هى حقيقة مدوية كالرصاص، صارخة كالجوع فى بطون العاطلين.

والمسرحية من ناحية الشكل عبارة عن مشاهد ستة متتالية متجاورة.

ولكن الحركة الداخلية تجعل من المشاهد فيلمًا سينمائيًا هادئًا.. لم يضف كثيرًا إلى «المضمون» اليسارى، ولكن «الشكل» هو الذى أضاف شيئًا جديدًا إلى مسرح «ثورنتون وايلدر» التى توجته بعد ذلك مسرحيات أرثر ميللر.. خصوصًا مسرحية بعد السقوط!

عن الفن والجمال!

دراسة جديدة فى فلسفة الجمال

الدكتور زكريا إبراهيم فى كتابه الأخير «فلسفة الفن فى الفكر المعاصر» يشبه النبى موسى الذى رأى أرض الميعاد ولم يدخلها. فقد كان فى استطاعته أن يجعل كتابه هذا أول كتاب عن فلسفة الفن لو أنه أتعب نفسه قليلاً، ولكنه استراح إلى إيمانه بأنه من المستحيل أن نجد أفكارًا مشتركة بين الفلاسفة المعاصرين، خصوصًا فى فلسفة الفن.

ولكن على الرغم من هذا فإنه قد جمعهم فى كتاب واحد وفى موضوع واحد هو فلسفة الفن.

ويظهر أن المؤلف قد نسى هذا التناقض الذى وقع فيه، فحاول أن يربط بين كل هؤلاء الفلاسفة بصورة واضحة، ففى أول كل فصل نجده يقول: إذا كنا فى الفصل السابق تحدثنا عن الفيلسوف فلان، فليس من قبيل المصادفة أن نتحدث فى هذا الفصل عن الفيلسوف علان.. إلخ.

والدكتور زكريا إبراهيم.. وهو من العلماء، لم يشأ أن يعرض لنا بصورة علمية دلالة فلسفة الفن، ولا معانى الجمال والقبح والمنفعة والجلال، وعلاقة الفن بعلم النفس أو بالمجتمع ولم يشأ أن يتعرض للشعر أو الأدب وإنما تناول بسرعة آراء وعبارات ومقالات الفلاسفة الغربيين والمفكرين العرب: العقاد والحكيم وسلامة موسى والزيات وزكى نجيب محمود.

وهو بذلك لم يقدم فلسفة للفن وإنما أفكارًا عن فلسفة الفن، ولم يتعرض لمفكرين، وإنما تعرض لعدد كبير من الفلاسفة

الكبار، ولذلك كان من الأنسب أن يصبح عنوان كتابه «فكرة الفن فى الفلسفة المعاصرة».

ومن الأمثلة الطريفة التى جاءت فى الكتاب على لسان الفيلسوف الوجودى هيدجر، وهو رجل ليس طريفًا ولا خفيف الدم.. تفسيره للحذاء الذى رسمه الفنان فان جوخ، فالحذاء غليظ وقديم وقذر، وهذا يدل على أن صاحبه فلاح كادح مرهق يمشى فى طرق موحلة، وفى صراع من أجل البقاء.

هذه المعانى كلها ينطق بها الحذاء، ولأن الحذاء عمل فنى فهو لسان حال الحقيقة، فهو ميكروفون الحقيقة وشاشة ملونة للوجود، وهذه هى عظمة الفن وتفوقه على الطبيعة.. أى تفوق رسم الحذاء على الحذاء نفسه.

وهناك عبارات تستوقفك فى هذا الكتاب.. فمثلا عندما يتحدث المؤلف عن الأديب الفرنسى «ألان» يؤكد بصورة تدهشك أن لا أحد يعرف شيئا عن هذا الأديب الفرنسى، مع أن الذين يقرأون أندريه موروا، وهو كاتب شعبى، يطالعهم اسم «ألان» عشرات المرات.. وتلميذات المدارس يقرأن مقالات «ألان» القصيرة عن «الحب» وعن «السعادة» وعن «الزواج».. فليس «ألان» مجهولا إلى هذه الدرجة التى تجعل عالمًا مجتهدًا كالدكتور زكريا إبراهيم يؤكد ـ فى هذه العبارة الوحيدة القاطعة فى كل الكتاب ـ أنه رجل مجهول تماما عن كل الناس!

وإذا كان المؤلف قد فاته أن يرينا أرض الميعاد ـ أى فلسفة الجمال ـ فأنا لا أستبعد ـ على حسن إدراكه ومثابرته ـ أن تراها معه وبوضوح فى كتب أخرى!

هذا الفلكلور!

طوق نجاتك من الشعور بالندم..!

هناك بعض الكتب تمتص كبرياءك بمجرد الملامسة ففى صفحاتها الأولى تؤكد لك أنك جاهل وأنك تستحق العقاب وأن المؤلف يسعده أن يترسب فيك الشعور بالندم، وعلى أشلاء هذه الكبرياء يتربع المؤلف لأنه يعرف الكثير مما لا تعرف، وكذلك معظم الكتب التى صدرت عن الفولكلور فى مصر فصفحاتها الأولى تؤكد لك أنك لا تعرف حكمة الشعب فى : الريف والصعيد والواحات والبحيرات.

وهذه الأماكن لها سحر خاص فى كتب الفولكلور، فهى تتكرر بكثرة فى كل الصفحات، وتكرارها معناه أن القارئ قد أصبح بعيدًا عن هذه المناطق وأنه غارق فى القاهرة والعواصم الأخرى وأنه انسلخ عن الينابيع الحقيقية للحكمة الشعبية. والانسلاخ معناه أنه أصبح لحما بغير جلد، والجلد الذى يحميه هو التراث الشعبى القديم الذى انتقل إلينا فى أقصر وأقدم طريق عرفه الإنسان: من الفم إلى الأذن!

وكتب الفولكلور تتجه بعد «تأثيم» القارئ و«تجريم» المثقفين إلى استعراض الدراسات الشعبية فى كل بلاد العالم وكيف أنهم هناك ـ أى وراء الحدود ـ قد سجلوا حكمة الشعب على أشرطة وعلى اسطوانات وفى أرشيف، وكيف أن الفنون الشعبية لها متاحف ومعاهد، ومعنى ذلك أنهم هناك جادون، ونحن لسنا

جادين، وأنهم درسوا وأننا لم ندرس، وعلى ذلك فكل كاتب عندنا عن الفولكلور له أخطاء مبررة مقدمًا، وله أعذار مقبولة فورًا؛ لأنه يحاول أن يرتاد عالمًا مجهولاً عند كل الناس فهو رائد من رواد الفنون الشعبية.. والريادة شرف فى أى مجال!!

إلى أن قرأت كتابًا بعنوان «الفلكلور ما هو؟» بحذف الواو فى الكلمة الأولى (؟!) للشاعر فوزى العنتيل والكتاب مقدمة ضرورية لمن يريد أن يعرف شيئًا كثيرًا سريعًا عن مفهوم وأساليب دراسة وتاريخ الفولكلور فى العالم كله طبعًا تمهيدًا لدراسة الحكمة الشعبية فى بلاده ـ فى مصر مثلا..

ولا أقول إن الكتاب جميل ولا إن عبارته حلوة ولكنه كتاب مدرسى جاد ومفيد جدًا.. إنه مثل طوق نجاة ينقذك من الشعور بالندم وأنت تقرأ أى كتاب عن الفولكلور فى مصر!

مسرحنا الكوميدى

ملاحظات على المسرح الكوميدى فى مصر

حينما لا يستطيع المجتمع أن يصدر قانونًا لرذيلة ما، فإنه يمثلها على خشبة المسرح؛ ليضحك منها، ومن هنا تبدو ضرورة المسرح وخطورته، فكل ما لا يستطيع المجتمع عقابه بالقانون فإنه يعاقبه بالضمان، والنتيجة واحدة أن يصدر المجتمع حكمه بإدانتها.

وقبل ٢٣ يوليو كانت أبرز رذائل المجتمع المصرى تتمثل فى الإقطاعى المتجبر، والرأسمالى المستغل والتركى المتعجرف، والحاكم الفاسد، والمثقف الذى يعتقد أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ولم يكن الشعب يملك أن يعاقب أحدًا منهم بقوة القانون.. فالتجبر والاستغلال والعجرفة والفساد والغفلة كانت هى الدعائم التى يقوم عليها حكم طبقة النصف فى المائة، ويومئذ كنا نرى محاولات مسرحية تنجح مرة وتخفق أخرى كى تبرز هذه الرذائل وتجسدها على خشبة المسرح، وضحكنا مع نجيب الريحانى وغيره على المستغلين والمتجبرين والمتعجرفين والفاسدين.

ثم جاءت الثورة، وبقوة القانون سقطت كل الرذائل التى كنا نأمل مع نجيب الريحانى أن ندينها ونؤلب عليها الجماهير فتسخر منها وتضحك عليها، وكان من الطبيعى أن يتغير المسرح.. أن يتغير موضوعه بعد أن تغير المجتمع.

ولكن هل تغير موضوع المسرح فعلا بعد الثورة؟ إن الذى يشاهد مسرحياتنا الآن يكاد يشك أن هناك تغييرًا جذريا قد حدث.. إن موضوع مسرحياتنا يؤكد أن علاقات المجتمع المصرى لم تتغير؛ فمازلنا نرى على المسرح سلطة الإقطاع وفساد الحكام وعجرفة طبقة الأتراك، وعندى أن زمن هذه المسرحيات قد انتهى وأن مكانها الحقيقى كان يجب أن يكون قبل ٢٣ يوليو، أما وقد تغير المجتمع فعلاً بقوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية، فمن المحتم على المؤلف المسرحى أن يكتشف العلاقات الجديدة للمجتمع الجديد، فلم يعد الإقطاعى متجبرًا كما كان فى الماضى، ولكنه أصبح متسللا يحاول النفاذ إلى قلب المؤسسات الاشتراكية لينفث سمومه وأحقاده، ولم تعد طبقة الأتراك المتعجرفة ذات تأثير أو نفوذ بل أضحت شراذم تستحق الرثاء.

وقلمت أظفار الرأسمالى وتحطمت أنيابه.. فلماذا إذن نضحك من شىء، لم يعد له تأثير فى حياتنا الجديدة..؟

أما الجديد فهو ظاهرة التكالب للحصول على رفاهية نجوم السينما الأمريكية، وظاهرة الترفع عن الجماهير ومحاولات التشبه بمظهر الارستقراطية المنهارة..

وبيروقراطية المديرين، ورفاهية عمال مجلس الإدارة، وغيرها من الرذائل التى تمخضت عنها حياتنا الجديدة، وهذا كله ما يستحق العقاب بأن يضحك الشعب منه وعليه، وعندئذ سوف يصبح المسرح الكوميدى منبرًا للرأى ومظهرًا للرذائل الاجتماعية، ولن يشكو بعدها النقاد من هروب جمهور المسرح الكوميدى إلى السيرك القومى.

إنهم ينتظرون!

ثلاثة شبان

يتحدثون عن الانتظار

من الواجب أن نشجع المواهب الشابة بأن نجعلها تظهر فى الصحف أو فى الكتب أو أمام الميكروفون أو على المسرح، وقد رأيت أحدث تجربة مسرحية.. وعلى مسرح الحكيم كانت ثلاث مسرحيات من فصل واحد، الممثلون كلهم جدد والمخرجون أيضا، وهم جميعًا يحاولون أن يقتربوا من نماذج مسرحية حية معروفة، وفى الوقت نفسه يحاولون أن تكون لهم مزايا خاصة، وقد رأيت أحد الممثلين حائرًا بين صوت وأداء توفيق الدقن وأداء ممثلين آخرين غيره.. والذى يفعله الممثل بوضوح، يفعله المؤلف الشاب على نحو ما..

المسرحية الأولى اسمها وموضوعها «قطر الترحيلة» من تأليف سمير نوار.. الموضوع معروف وعناصره مألوفة، ولذلك كان الإتيان بالجديد شيئًا صعبًا، ولكن المؤلف الشاب استطاع أن يقول أشياء كثيرة ذكية، واستطاع أن يربط بين عناصر الانتظار والإثارة والضحك بصورة مريحة لا ترهق المتفرج، وقد ساعده الإخراج فى توضيح هذا المعنى كثيرا. والمسرحية الثانية عنوانها «السود» من تأليف نبيل بدران وموضوعها أيضًا معروف ومألوف، ولم يشأ المؤلف أن ينقل الموضوع إلى أرض قريبة، وإنما اختار المكان الطبيعى لهذه التفرقة.. اختار أمريكا

وتأثر بصورة واضحة بمسرحية «المومس الفاضلة» لسارتر.. بل إنه لم يرفع عينه عن مسرحية سارتر، ولا عن مسرحية «السود» للأديب الفرنسى جان جينيه.. وهذا طبيعى، ولكنه استطاع أن يقول رأيه بالصورة التى ترضيه وتقنعه.. وتقنع المتفرجين أيضًا.. والمجهود المبذول فى الإخراج يستحق التقدير.

والمسرحية الثالثة والأخيرة لعلى سالم واسمها «البوفيه»، وعلى سالم مؤلف معترف به الآن، ولذلك فمسرحيته متكاملة العناصر الفنية، وموضوعها هو القوالب الجامدة التى تخنق المؤلف الجديد عندما يتقدم بأحد أعماله الفنية، وقد استفاد على سالم من مسرحية «هبط الملاك فى بابل» لديرنمات.. فقد نقل عنه الصراع المضحك على الكرسى.. كرسى السلطان عند ديرنمات، وكرسى مدير المسرح فى البوفيه.. وقد تجمعت لعلى سالم كل عناصر التشويق والإثارة والنكتة، وكان الإخراج بسيطا بهيجًا..

والمسرحيات الثلاث تتحدث عن موضوع واحد بأساليب مختلفة: ما الذى يفعله الإنسان عندما ينتظر .. عندما ينتظر عزيزًا قادمًا فى قطار.. وعندما ينتظر الحب والعدل من البيض.. وعندما ينتظر ظهور عمله الأدبى؟.. ولم يكن انتظار الأبطال فى المسرحيات مريحًا.. ولكن كان ممتعًا للمتفرجين!

أجمل الذكريات

عندما تكون معشوقتك من ورق قديم!

اسم هذا الكتاب لا يشجعك على أن تمد يدك إليه، ولكننى أنصحك.. بل أرجوك أن تقلب فيه، وأنا أضمن أنك لن تستطيع أن تتوقف عن قراءته.. فهذه ليست إلا ذكريات باحث مجتهد ومخلص وليست إلا قصة حب..

المؤلف روسى واسمه كراتشكوفسكى (١٨٨٣ - ١٩٥١) لا تخف من الاسم، ولا يهمك كيف ينطق الروس هذا الاسم بسهولة. وهذا الكتاب قد نفدت طبعاته الروسية.. وهذه هى أول ترجمة عربية لكتاب فى ٣٧٥ صفحة واسمه «مع المخطوطات العربية». والمستشرق الروسى قد كتب هذه الصفحات من الذاكرة فى ظل القنابل فى مدينة لينتجراد فى الحرب العالمية الأخيرة، وفى ظل النار والدمار عكف المؤلف العجوز على تدوين أعز ما يملك من ذكريات ومن تجارب حارة فى بحثه فى كل مكتبات العالم عن المخطوطات العربية النادرة، واستحق من الدولة أن تعطيه أعلى نياشينها.

وبعد نهاية الحرب عاد لكتابه يضيف إليه الأرقام والتواريخ، ولكن لم يغير منه شيئًا.

والمؤلف يروى أجمل وأرق وأحر ذكرياته الأدبية والتاريخية فى روسيا وفى العالم العربى، ومع الأدباء العرب من كل مكان وفى شاعرية جميلة.

ففى إحدى الصفحات يدور هذا الحوار: تقول له : «هل تنسانى! إنك لم تعد ترانى؟ إنك أنت الذى وهبتنى الحياة.. لقد كنت نسيًا منسيا.. فى صندوق.. أو فى قبو.. فى الأرض.. فى الماء.. فى الرماد.. أصابتنى هذه العاهات التى تعرفها.. اختفت معالمى.. غرقت.. احترقت .. أنت أعطيتنى الحياة وأنا دفعت لك الثمن مضاعفًا، أنا التى أعطيتك المجد والسعادة.. إننى لا أنسى الزمهرير يحطم ضلوعك ويوجع عينيك.. ولكن أنا التى لمستك فانتقلت حرارة الشباب فى كل أوصالك... إلخ».

ليست هذه كلمات زوجته أو عشيقته.. وإنما هو كلام تخيله هذا الباحث العظيم يدور بينه وبين إحدى المخطوطات، التى أنقذها من الفناء ووهبها الحياة ووهبته السعادة فى الحياة والمجد بعد ذلك..

إن هذا الكتاب نموذج صادق لباحث مخلص عاشق ولهان.. ومعشوقته من ورق قديم!

بالكاميرا لا بالقلم!

مدرسة جديدة فى الأدب.. مدرسة الكاميرا

كتاب جديد صدر فى فرنسا لكاتب جديد.. أو طفل جميل.. يحمل شره الأطفال وجبنهم.. وجائزة رينودوت.. وأربعة وعشرين ربيعًا.. ونظرة قاتمة للحياة تضع أسلوبًا جديدًا فى الأدب.. وتبلور مدرسة جديدة فى الكتابة.. نستطيع أن نطلق عليها: مدرسة الكاميرا..

وهنا يتحول الكاتب إلى كاميرا.. يقوم بعملية تجسيد للحظة من الحياة واستبطانها فى تفاعل يشبه كثيرًا الدوامة.

الكتاب كله وهو قصة اسمها «الطوفان» عبارة عن إنسان يتجول فى الشوارع، وفجأة سمع صوت صفارة طويلة فى نفس الوقت الذى تقع فيه عيناه على فتاة تسير فى الشارع والمنازل القديمة.. والرصيف الذى بدا أحد أحجاره يهتز والعربات التى تحمل معنى الثراء الشديد وتحمل داخلها رعاع المدن ويعبر عنها بالتوابيت المتنقلة فى أماكن موحشة، ومن خلال هذه النظرة قال الكاتب كل ما يريده عن العبث والاختناق.. لم يتكلم عنهما بوضوح، ولكن لابد أن تحس بذلك وهو يقول: هذا ما تمنحه الإنسانية للأجيال القادمة.

وهكذا سخر من الحياة فى صورة مجردة بأسلوب الرومانسية الجديدة.

قال عنه فرانسوا نورسيه ناقد «الفيجارو الفرنسية» إنه لا

يدخلك إلى الدوامة لتفكر معه.. ولكنه يحمل السرعة الشديدة، التى تضعك فى مركز الدوامة لتقرر: الانتحار.. أو مزيدًا من الاستمرار ويقول نورسيه: بالرغم من مكر النقاد فإنهم لم يستطيعوا أن يحسوا من أين تأثر الكاتب.. وإن كان فى المونولوج الداخلى يشبه كثيرًا كامى لكنه موضوعى؛ ومدرسة الكاميرا خلقت خصيصًا لسيليزيو بكل أحاسيسه المتفتحة الذى يصم العصر بالضياع والجريمة والسقوط.

الكتاب أصدرته «جاليمار» إحدى دور النشر الفرنسية التى تمتاز بأنها «أكثر ذيوعًا وانتشارًا».

وهنا نلمح شيئًا فى دور النشر عندنا التى لا تمنح كاتبًا جديدًا الفرصة.. لماذا؟..؛ لأن دور النشر عندنا أولا تستند إلى الأسماء.. ولا توجد بها لجان للقراءة أو لتقييم الكتاب الجدد.

كما أن النقاد هناك لهم كلمة مسموعة.. لهم رأى .. لهم موقف.. هناك ثقة.. وهناك عشرات الكتب بل ومئات القصص التى تظل معلقة على أرفف المكتبات وتحير القارئ؛ لأنه لا يعرف شيئًا عن أى كتاب سوى عنوانه وصورة الغلاف وفرصة للمغامرة بالشراء.

جان دارك!

من أخناتون حتى فتاة اللورين!

مجموعة من الغرائب التقت فى كتاب واحد هو «جان دارك عرض وتحليل وتعقيب» فى ٣٠٠ صفحة.. المؤلف عبد اللطيف محمد الدمياطى شخصية غريبة الأحوال والأطوار وله قصة منشورة فى هذا الكتاب بيّن فيها كيف كتبه وكيف تعاون أناس طيبون على طبعه ونشره، وفى الكتاب أيضًا، كيف اعتمد على نفسه وتعلم وكيف سافر إلى فرنسا ليكتب هذا الكتاب فى الأماكن التى عاشت واحترقت فيها جان دارك ـ فتاة اللورين.

والكتاب يبدأ بترجمة نصوص عن هذه الشهيدة جان دارك، ويستعين المؤلف بالمراجع وحتى بالقواميس الكبرى المعروفة وينقل عنها، وبعد هذه النصوص يقوم بتفسيرها وربط جان دارك بالتاريخ الروحى كله من أيام آدم، أخناتون ونوح وموسى وعيسى ومحمد.. ويجعل المؤلف التطور الروحى فى التاريخ منطقيا ومربوطًا بمخطط واحد.. فكل ما جاء على لسان أخناتون قد تردد فى كل الأديان مع فوارق صغيرة يقتضيها العصر..

والمؤلف له تجارب فى عالم الروح.. تجارب عامة عن القراءة والنظر الطويل.. وله تجارب خاصة شخصية جدًا وفيها يشكو من سيطرة روح صديق له يعيش فى فرنسا على أفكاره، هذا الصديق قد أحرق كل ما بعث به المؤلف من خطابات ورسائل وقد جاء إحراقها مثل إحراق جان دارك، محطمًا لمعنوياته وحياته..

وهذا الكتاب يحتاج إلى إعادة نظر، وإعادة كتابة وتغيير فى التبويب.

فتكون الفصول الأولى عن تاريخ الفلسفة الروحية أو الروحانية - على الأصح - وبعد ذلك يختار المؤلف نموذجًا لجان دارك ويبين لنا لماذا اختارها، ثم يروى تجاربه الشخصية وينهى الكتاب بهذه التطلعات إلى مستقبل أكثر صفاء له وللإنسانية.

ومن المؤكد - استنادًا إلى منطق المؤلف نفسه - أنه قد سجل هذه الصفحات فى حالة «شوشرة» عقلية أو «معاكسة روح أخرى له».. ولكن الكتاب يقدم لنا جهدًا واضحًا وفهما مخلصًا لعالم الروح أو لتفسير واحد متعصب لنوع فريد من البشر مثل جان دارك!

فيلسوفٌ ملتزمٌ

معنى الالتزام عند أندريه مالرو

من معانى الالتزام أن الإنسان يكون مسئولا عن كل ما يفعله.. فمادمت حرًا فى أن أفعل، فأنا مسئول عما أفعل.

وكل نوع من الفعل له نوع من العقبات وله نوع من الحرية، فالذى يمشى فى الشارع يجب أن يحرص على السير على اليمين، وأن يحرص على ألا يدوس الناس، وأن يتقيد بالشارع وبالمرور فى داخل الشارع، والذى يتسلق الجبل، يتخطى العقبات. وهذه العقبات تحدد حريته، وفى نفس الوقت امتحان لهذه الحرية..

والذى يكتب عنده عقبات، وأمام هذه العقبات تتحدد حريته، وتتحدد مسئوليته أيضًا..

ولست مسئولا فقط عن الذى أكتبه، وإنما عن الذى يكتبه الآخرون.

وحتى إذا سكت عما يكتبه الآخرون، فهذا السكوت ليس عملا سلبيا وإنما هو موقف إيجابى؛ لأن معناه: أننى قررت ألا أكتب سواء كان يعجبنى أو لا يعجبنى.

فلا شىء يعفينى من المسئولية.. من مسئوليتى أمام نفسى، ومسئوليتى أمام الآخرين..

فالالتزام معناه: المسئولية الخاصة والعامة، فالإنسان الحر يلتزم أمام جميع قضايا عصره، كأنه مسئول عن تشريع الدنيا كلها، فلابد أن يكون له موقف، وأن يكون لهذا الموقف صورة تقرؤها أو تلمسها..

وقد أدرك الكاتب الفيلسوف أندريه مالرو هذه المعانى بصورة باهرة، وهو فى العشرين من عمره. وهو لم يكتف بالرؤية الواضحة لمعانى الحرية والمسئولية والالتزام، وإنما ذهب يحقق هذه المعانى بدمه، فقد شارك فى حركات التحرير وشارك فى تنظيم المقاومة، لا فى فرنسا وحدها أو فى أسبانيا، وإنما ذهب إلى آسيا.. إلى الصين وإلى هونج كونج، ولو قامت ثورات أخرى فى آسيا لتطوع يحمل سلاحًا فلسفيًّا خطيرا هو: الالتزام. إن مالرو كان أسبق من الموجودين المعاصرين من فهم الالتزام بمعناه العالمى، وكان أسبق أيضًا من معاناة الالتزام فى الأدغال وفى الطائرات وعلى الدبابات.

وروايات مالرو الرائعة أجمل صورة وأصدق معركة للفيلسوف الملتزم.

سقط الحائط الرابع!

هذه هى أقصى درجات اللامعقول

أصبحت معروفة كل محاولات مسرح العبث، الشهير باسم مسرح اللامعقول. رأينا معظم مسرحيات بيكت ويونسكو وقرأنا أغلب مسرحيات جينيه وبنتر وبانجيه وليفين وميتزبرج ولايندر وكروبكين ودوينا الدرز.. وغيرهم.

وسقط الحائط الرابع نهائيًّا بين الممثلين والمتفرجين.. ولم يعد هناك هذا الفاصل التمثيلى بين الممثل والمتفرج، وجلس الممثلون بين المتفرجين.. وصعد المتفرجون إلى صفوف الممثلين، واختفى الستار بالطول وبالعرض.

وفى مضمون المسرحيات تعالت الشكوى من اللغة. وفى الحوار سجل مسرح العبث شكواه الفلسفية من المنطق، وما بعد الطبيعة وتعدد الزمن. فهناك أكثر من زمن.. وحدث هذا التزامن أو (التآنى) –أى التلاقى بين آونة ماضية وآونة حاضرة أو مستقبلة.

وأصبح من الممكن أن يتجاور اثنان فى مكان واحد، وكل منهما يفكر فى شىء مختلف، ويجىء الحوار بينهما.. أو يجىء حوار، ولكن ليس بينهما.. وإنما يظهر اثنان يتكلمان فقط، كل واحد فى شىء لا علاقة له بما يقوله الآخر.. تمامًا كما يتجاور اثنان فى الشارع أو فى سيارة أو فى المقابر.. مجرد جوار جغرافى، جيرة مكانية فقط.. كل هذا ممكن. ومعقول ومقبول.

وكل هذا يؤكد (عبثية) الحياة والفكر والفن.. ولكن هذا العبث يخضع لقوالب وأصول. فهو عبث بالقواعد، ولكن فى داخل قواعد. كل هذا أيضًا معقول ومقبول.

وفى برلين، قام «فريدريش لانجر» ـ وهو أديب شاب ـ بتجربة جديدة فى مسرح العبث، ففى مسرحية له عنوانها (بعض الوقت وبعض الناس). المسرحية فى فصل واحد. وقبل النهاية يوجه أحد الممثلين سؤالا، ويتطلع إلى الجمهور. وينهض أى إنسان ويجيب عن هذا السؤال على المسرح. ومن الممكن أن ينهض اثنان أو ثلاثة ويقولون أى كلام له علاقة بالمسرحية أو لا علاقة له بالمسرحية. ومن الممكن أن يخرج الجمهور من المسرح. أو يبقى. ويتحول المسرح إلى مطعم أو إلى صالة رقص.. كما يحلو للمتفرجين..

وبعد نصف ساعة من هذه الهيصة، يعلن أحد موظفى المسرح أن المسرحية قد انتهت ويدعوهم إلى اللقاء غدًا..

أخيرًا : طه حسين!

لا هو .. ولا نحن قلنا كل شيء!

تنبيه: اتفقت مع الأستاذ فريد شحاتة، سكرتير طه حسين، ألا يقرأ له هذا المقال.

* * *

لم يكن فى الاستطاعة أن يقول طه حسين أكثر أو غير ما قال. فهو مريض جدًا.. فنحن حملناه على مقعد إلى الدور الأرضى.. ليجلس أمام كاميرات التليفزيون.. وأنا أعلم أكثر من غيرى أنه بين لحظة وأخرى قد ينهار، وتعاوده حالة من الإغماء التى تصيبه مرة ومرتين فى اليوم الواحد.. أو نفاجأ نحن بالسيدة حرم طه حسين فتهدم كل ما فى البيت على رءوس كل من فى البيت من أدباء ومهندسين(؟!!)

ولذلك تواصينا على عدم إرهاق طه حسين.. وعلى أن نتركه هو الذى يقول ما يريد، ولا يهم أبدًا ما نقوله نحن.. فلا يزال أمامنا الكثير من الوقت لنقول فى الصحف وفى الإذاعة وفى التليفزيون.. وليس هناك كثير من الوقت أمام عميد الأدب العربى ـ أطال الله حياته ـ هذه حقيقة.

وقد أثار طه حسين قضايا ما كان يصح السكوت عليها، بل أصدر آراء وأحكامًا عنيفة خاطفة. وكان لابد من مناقشتها، لولا اتفاقية الصمت التى تم توقيعها بيننا قبيل التسجيل، فرأى طه حسين فى كافكا والأدب الأسود يحتاج إلى مناقشة.. ورأى طه

حسين فى الاتجاهات الجديدة فى الأدب عند ألان –روب جرييه أو عند ألبير كامى أو حتى فهم طه حسين للفلسفة الوجودية.. كل هذا يحتاج إلى مناقشة وتصحيح. وإن لم يكن من الضرورى أن يكون طه حسين ملمًا بكل الاتجاهات الجديدة فى الأدب أو فى المسرح أو فى السينما. ليس ضروريًا أن يتابع بشباب ويقظة كل هذه الاتجاهات الشابة الجديدة.

وعندما سألت طه حسين عن منهج العقاد، أو منهج التفسير النفسى فى الترجمة لأى أديب أو فنان، أو فى الترجمة الذاتية، وضربت مثلاً بالعقاد فى سلسلة العبقريات، وأعلن طه حسين أنه لم يفهم العبقريات، كان من الممكن أن أناقشه. فعندما قال: أنا لم أفهم العبقريات: كان لابد لى أن أسأله: هل لم تفهم منهج العقاد؟ هل لم تفهم تطبيق العقاد لهذا المنهج؟ هل لم تفهم المعطيات التاريخية التى اختارها العقاد؟ هل أنت تختلف معه على معنى العبقرية؟ هل العقاد أسرف فى استخدام هذه «الكلمة»؟..

ولم أكن حريصًا على أن أسأله وحدى، فأنا مسئول عن البرنامج، ولم أشأ أن أجعل المناقشة تدور حول العقاد وطه حسين، وأنا أعرف ما بينهما، وطه حسين يعرف مدى حبى للعقاد..

ورضيت بهذه الندوة أو هذه الجلسة العائلية التى التف فيها حول طه حسين عدد من الأدباء يمثلون ألوانًا واتجاهات مختلفة فى الأدب والفن. وابتلعت الظلط من أجل نجاحها.. ولم يكن من الضرورى أن يقولوا كل شىء، ولكن من الضرورى أن يقول طه حسين.. فمن أجل تصوير طه حسين صوتًا وضوءًا، كانت هذه الحفلة التاريخية!.

فؤاد حسنين

المشردون.. المفسدون فى الأرض

صدرت كتب كثيرة عن إسرائيل، شعبًا وعصابات وحكومة وقاعدة استعمارية ومؤامرة ضد الإنسانية، ودينًا تعصبيًا معاديًا لكل دين ولكل قيم أخلاقية، وبرتوكولات سامة للقضاء على كل الناس غير اليهود. ومعظم هذه الكتب يستحق القراءة والتأمل.

ولكن من أحسن الكتب وأكثرها شمولاً لتاريخ قبائل بنى إسرائيل الشاردة من العراق إلى فلسطين إلى مصر إلى سيناء ثم إلى أرض كنعان ثم إلى بابل ثم إلى كل أركان العالم، كتاب صدر فى مجلدين للدكتور فؤاد حسنين على.. الجزء الأول بعنوان: المجتمع الإسرائيلى – حتى تشريده.. والجزء الثانى: المجتمع الإسرائيلى منذ تشريده حتى الآن، والكتاب قد أصدره معهد البحوث والدراسات العربية.

ولأن هذا الكتاب يغطى ثلاثين قرنًا من التاريخ المعقد، فإنه قد تضمن موضوعات كثيرة سريعة. ولأن المؤلف الدكتور فؤاد حسنين من علماء الدراسات السامية، ولأنه متخصص ومتعمق؛ فقد تناول هذه الدراسات بإيجاز شديد فى الجزء الأول.. وبتفصيلات كثيرة فى الجزء الثانى.. ولذلك فهناك أمور كثيرة تحتاج إلى شرح وتوضيح بالنسبة للقارئ غير المتخصص.

ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب «الموسوعى» مفيد، وهو

مقدمة ودليل ضرورى لكل من يريد أن يعرف الكثير عن تاريخ هذه العصابة الإجرامية من البشر. ولم يترك المؤلف تاريخ الإجرام اليهودى فى العالم كله، فقد أشار إليه.. وأشار إلى أن اليهود لم ينعموا بعصور ذهبية من السلام الطويل، إلا فى ظل الحكم الإسلامى فى البلاد العربية وفى الأندلس. وباعتراف اليهود أنفسهم، فماذا كانت النتيجة؟

لقد قطعوا اليد التى أطعمتهم، وحطموا البيت الذى أواهم، هذه طبيعتهم. والكتاب المقدس يلعنهم ويتوعدهم ويرى أن الخراب والدمار هو ظل لهم.. وأن هذا الظل سوف يخنقهم فى النهاية. آمين!

فى أكتوبر خلق الله العالم

وفى إحدى ليالى أكتوبر
خلق الله العالم!
الإنسان مهموم بالموت

الروح هى ذلك اللمعان الذى لا ينطفئ إلا بالموت.. أو الذى لا ينطفئ بالموت! الروح جوهرة فى الوحل! الروح كالقدم.. والجسم حذاؤها!.. الروح تحتاج إلى القليل، الجسم يحتاج إلى الكثير!.. لا شىء يتعذب به الجسم، ولا تسعد به الروح!.. هناك ميناء ترسو عليه الروح– يومًا ما!.. ﴿يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾..

ولم يقل العلم الحديث أو القديم أكثر من هذه الآية الكريمة. وكل ما جاء فى كتب العلماء مثل الذى جاء فى دواوين الشعراء.. وكلها تقول: إن هناك روحًا أو نفسًا، وأن هذا «الشىء» الرقيق اللطيف الذى يحركنا ويدفعنا وينير لنا سوف يبقى بعد الموت.. ولكن أين يبقى وكيف يبقى، فهذا ما لا يعرفه أحد!

والديانة المسيحية كالإسلام، تؤمن بخلود الروح بعد الموت. والديانة اليهودية آمنت بهذا المعنى ابتداء من القرن الثانى بعد الميلاد.. وكان الإسلام هو الدين الوحيد الذى عرفته أوروبا المسيحية، ولكن عندما دخل أبناء البرتغال الهند عرفت أوروبا ديانات أخرى غريبة. ولكن ظل الإيمان بخلود الروح سائدًا عند كل الناس. وعلى الرغم من وجود أفكار لاتينية ويونانية كثيرة،

بقيت الديانة المسيحية بأفكارها مسيطرة على كل العقول والقلوب.. والشاعر اللاتينى لوكريشيوس له ديوان اسمه «أمور الطبيعة» يؤكد فيه أن الروح فانية.. وحتى بعد أن عرفت أوروبا الديانات البوذية والكونفوشية، لم تتغير نظرتها إلى الروح الخالدة.

وعندما وقع الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا لم يكن بسبب خلود الروح أو فنائها، وإنما بسبب هذا القلق الشديد على الحياة بعد الموت.. فى الجنة أو فى النار.

وهذا القلق على مصير الإنسان بعد الحياة يجعل البروتستانت قريبين من الإسلام واليهودية.

وظل كل شيء فى أوروبا دون أن يتغير حتى جاء القرن السابع عشر. وفى هذا القرن حدثت ثورة على الديانة المسيحية هى أقوى ما عرف الإنسان. ولايزال أثرها باقيًا حتى اليوم. فهى ثورة مستمرة. وفى القرن السابع عشر كان عدد الملحدين قليلاً. ولم يجرؤ كثيرون على أن يجاهروا بالإلحاد. فقد كان العقاب معروفًا عند الكاثوليك والبروتستانت وهو إحراق الكافر حتى الموت!

وفى القرن السابع عشر عرف الناس مناقشة الدين بالعقل. وبالغ الناس فى النقاش، وكثيرًا ما أسفرت المناقشات عن فرح الناس بالعقل وفقدانهم للدين..

ولكن هذه المناقشات كانت رد فعل عنيف ضد الحروب الدينية التى أسالت الدماء على طول القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفضحت الإنسان أمام نفسه. فهذه الحروب

الدينية قد جعلتنا نعرف الشر الكامن فى النفوس والتعصب والكذب والنفاق، وكيف استطاع الساسة أن يستغلوا سذاجة المؤمنين من أجل أطماعهم الخاصة والعامة.

ولابد أن يكون إنشاء «الجمعية الملكية» فى إنجلترا؛ من أجل تقدم التفكير الإنسانى فى ذلك الوقت. فقد جعلت هذه الجمعية شعارها: أن تقبل كل ما يؤكد العقل صحته وتؤيده التجربة. وبذلك يرتفع التفكير الإنسانى، ويرتفع الإنسان أيضًا.

وقد حدث تطور فى التفكير الإنسانى فى القرون الثلاثة الماضية. وهذا التطور عقلى وكل تطور يحققه الإنسان يجعل صورة الدنيا والآخرة تتغير أمام عينيه..

فمن المؤكد أن هذا الكون قد خلقه الله. والله قادر على كل شيء، عليم بكل شيء. لا خلاف ولا جدال. وأن الإنسان هو سيد الكون. وأن الأرض التى يعيش عليها الإنسان هى مركز الكون- هناك شك وخلاف على ذلك بين العلماء، فليس صحيحًا أن الأرض هى مركز الكون. وليس صحيحًا أن الشمس خلقها الله لكى تنير للإنسان. وليس صحيحًا أيضًا أن الإنسان هو سيد الكون.

فالعلم الحديث يؤكد لنا أن الأرض ليست فى مركز الكون، ولا هى مركزه فهى جسم تابع للشمس. والشمس هذه ليست إلا واحدة من ألوف الملايين من المجرات من الشموس الموجودة فى المجرة. والمجرة ليست إلا واحدة من ملايين الملايين من المجرات الموجودة فى الكون. بل إن العلم الحديث لا يعرف بالضبط إن كانت هذه المجرات عددها ألوف الملايين أو ملايين الملايين.. فلا

أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال: كم عدد النجوم فى الكون أو كم هو طول أو عرض أو حجم الكون؟ هل الكون تتقارب أجسامه أو تتباعد؟ لا أحد!

كان المفكر الفرنسى باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) عندما ينظر إلى السماء يشعر بشىء من الدوخة العقلية ويقول: لو كنت أعرف معنى هذا الصمت الرهيب.. معنى هذه الأجسام التى تلمع بعيدًا بعيدًا عن اليد وعن العين.. لو كنت أعرف معنى لهذا كله؟

ومات دون أن يعرف. وسيموت ملايين الملايين دون أن يعرفوا أيضًا!

وفى القرن السابع عشر بدأ الإنسان يشعر بأن الكون أكبر، وبأنه هو أصغر. وبأن الأرض ليست هى هذا المسرح الدائرى الذى يتحرك عليه الإنسان البطل.. وحتى هذا الكون الذى تصوره العلماء فى القرن السابع عشر كان كونًا تافهًا محدودًا.. فالعلم الحديث قد اكتشف أبعادًا مخيفة لا نهاية لها..

وقد بلغ من ثقة الناس بعلمهم ومعلوماتهم أن الكنيسة الشرقية كانت ترى أن العالم قد خلقه الله بالضبط سنة ٥٥٠٩ قبل ميلاد المسيح!

واليهود جعلوا تاريخهم هو سنة ٣٧٦١ قبل ميلاد المسيح أيضًا!

وفى أحد الكتب التى نشرت سنة ١٦٥٠ كتب كبير الأساقفة واسمه اشمر: أن الله خلق العالم كله فى تمام الساعة السادسة من مساء يوم ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

ونحن نعرف اليوم أنه فى هذا التاريخ بالذات كانت توجد مدينة عامرة اسمها أريحا!

وعلماء الجيولوجيا يقولون لنا: إن الحياة قد ظهرت على سطح الأرض منذ ألفى مليون سنة!

وإن الكرة الأرضية نفسها قد انفصلت عن الشمس منذ أربعة آلاف مليون سنة!

وإن الحياة سوف تبقى على الأرض ألفى مليون سنة أخرى- هذا إذا لم يفقد الإنسان عقله ويستخدم الأسلحة النووية فى القضاء على نفسه وغيره!

وهذه الأرقام لا تدهش الهنود، فقد امتلأت كتبهم القديمة بأرقام مماثلة عن أصل الحياة وعن عمر الروح وعن يوم القيامة.. ولكن هذه الأرقام تصدم المعتقدات المسيحية وتهزها من جذورها!

ومن المضحك أن العلم الحديث الذى أكد لنا ضخامة الكون، يؤكد لنا أيضًا تفاهة الإنسان: حياته وموته. ودوره فى هذه الحياة، ودوره أمام الموت، فالإنسان ليس هو الابن المدلل الجالس على حجر الكون.. ولا هو الكائن الوحيد الذى أبدعته القوى الإلهية المطلقة!

والخلاصة: هى أن العلم الإنسانى يؤكد للإنسان أنه ليس شيئًا ذا قيمة فى هذا الكون. ولا يهم أبدًا إن عاش أو مات.. أو كان أو لم يكن!

ولابد أن تكون هذه الكشوف العلمية قد جعلت الناس فى أوربا تهز رؤوسها يمينًا وشمالاً، وحتى إذا سقط من رؤوسها شىء، فعليها أن تدوسه دون أن تنظر إليه. فليس شيئًا مهمًا ما يسقط من الرأس؛ لأن الرأس، وصاحب الرأس ليسا شيئًا فى هذا الكون..

وعلى الذين يتصورون أن الله شخص أو إنسان، أن يراجعوا أفكارهم.. فليس من المعقول أن يكون الخالق لهذا النظام الدقيق وهذا العالم الهائل إنسانًا.. أو مضطرًا لأن يكون إنسانًا لأى سبب.. ومن القضايا التى أثيرت فعلاً فى الديانة المسيحية: أن الله قد تحول إلى إنسان؛ من أجل خلاص الإنسان.. ولكن هذا الإنسان -بالنسبة للكون ليس شيئًا مهمًا- فهل معنى ذلك أن يكون هذا الخلاص قد تكرر فى كل مكان يكون فيه إنسان أو كائنات مثل الإنسان.. مع ملاحظة أن الفلك الحديث يؤكد لنا أن هناك الملايين من الأجسام فى هذا الكون يسكنها أناس عاقلون.. أو كائنات عاقلة.. وليس من الضرورى أن يكون لها شكل الإنسان. فكيف نعرف أن الإنسان الذى نعرفه الآن هو مرحلة نهائية لتطور الكائنات؟ من يدرى؟ ربما كان هذا الإنسان مرحلة بدائية جدًا فى تاريخ التطور الحيوى للكائنات على هذه الأرض.. أو هذا الكوكب.. وأن هناك تطورًا أو تطورات أخرى أعمق قد حدثت فى كواكب أخرى.. أو فى ملايين الملايين من الكواكب الأخرى. لا ندرى. ولكن ليس مستحيلاً.

فليس من المعقول أبدًا أن نتصور أن العناية الإلهية والقدرة الإلهية والعظمة الإلهية قد حصرت كل قدراتها فى كائن واحد فى كوكب واحد: الإنسان وهذه الأرض!

والعالم الكبير آينشتين عندما جلس يتأمل الشرور الإنسانية وسفالة الإنسان، قال: إنه كائن صغير يعيش على أرض صغيرة.. إن الإنسان أتفه من أن ينشغل به هذا الكون كله!.

ومثل هذه الأفكار التى يرددها الناس الآن لم تكن معروفة

كلها فى القرن السابع عشر. ولو عرف الناس بعضها؛ فإن أحدًا لا يجرؤ على أن ينطق بها. ونحن نعرف ماذا حدث للفلكى الإيطالى جوردانو برونو عندما أحرقته الكنيسة سنة ١٦٠٠. وأحرقته الكنيسة لأنها هى الأقوى. وإن كان هو الأصح؛ فقد كانت للكون صورة أخرى لا ترتضيها الكنيسة. اختلف الرجل والكنيسة، وانتصر الأقوى.. فاحترق وشعر الناس بالسعادة وتزاحموا على الكنيسة يشكرون الله الذى أنقذهم من شر العلماء!

وفى سنة ١٦٨٠ أصدر عالم آخر كتابًا بعنوان «حوار حول كثرة الأكوان» ولم تسترح الكنيسة لمثل هذا الحوار..

وفى سنة ١٧٧٦ عندما أصدر المؤرخ البريطانى إدورد جبون الجزء الأول من كتابه الشهير «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» أُعجب الناس به، ولكن الفصول الأخيرة من هذا الكتاب أغضبت الكنيسة، مع أن المؤرخ الكبير لم يقل أكثر مما يهمس به الناس.

وفى القرن الثامن عشر جاءت الثورة الفرنسية وهزت كل المعتقدات الدينية.. ولكن الطبقة الغنية فى فرنسا تمسكت -بمنتهى النفاق- بأبواب وأجراس الكنيسة، فقد كانت الكنيسة رمزًا للإقطاع. وكانت الأفكار الاشتراكية تهب من الشرق ومن الغرب على أوربا وعلى فرنسا بصفة خاصة؛ فكان لابد من أن يحتمى الأغنياء بالكنيسة.

وفى أمريكا الآن نجد الطبقة المتوسطة تشبه الطبقة الغنية فى فرنسا.. فالأمريكان يلتفون حول الكنيسة.. ولكن لأسباب اجتماعية. فالمجتمع الأمريكى متحرك.. والناس يتناثرون حول

المدن الكبرى. ولابد أن يلتقوا ويكون مكان اللقاء هو الكنيسة نفسها. فهى مركز الحياة الاجتماعية، فالجماعات الصغيرة تتهافت على الصلاة، وأثناء الصلاة وبعدها وقبلها يلتقى هؤلاء الأمريكان ويتصافحون ويتعارفون.. فالكنيسة ليست إلا أحد الأندية غير الرياضية، وغير التجارية ولكنها تؤدى بعد ذلك إلى الأندية وإلى المطاعم والشركات.

ويمكن أن تذهب إلى مدينة هوستون فى ولاية تكساس لترى عددًا هائلاً من الكنائس. كلها جديدة وغريبة الشكل. ولكنها ضئيلة الحجم، إذا قورنت بالعمارات الفخمة والمؤسسات ولكنها موجودة، والناس يذهبون إليها أيضًا، وفى الكنيسة تتم الصفقات التجارية أو تقوى العلاقات الاجتماعية.. ففى المدن الكبرى يضيع الناس.. ولا يجدون الوقت الكافى لأن يكونوا بشرًا. فقط فى الكنائس يدخل الناس وليس فى جيوبهم ورق ولا أقلام ولا عقود ولا تليفونات!

ولو ذهبت إلى المكسيك بالطائرة لوجدت نفسك فى القرن السابع عشر فى أوربا. فالكنائس كثيرة وكبيرة.. بل إن الكنائس أكبر وأضخم من كل المبانى الأخرى. والناس يعتزون بالكنيسة، ويدفعون لإنشائها ما توافر لديهم من المال. وهم جميعًا يرددون العبارة المعروفة. «كنيستى عقلى وقلبى»!

ومن العجيب أن الناس فى القرن السابع عشر كانوا أشجع فى مواجهة الموت. فكل إنسان يعرف أن الموت بيد الله، أما ما بعد الموت ففى يده هو أن يدخل الجنة أو يدخل النار. وليس عليه إلا أن يعمل ما هو خير أو ما هو شر.. وكان الناس يعرفون أن الموت

آتٍ لا محالة. فإذا جاء كان من الضرورى أن يعترف الإنسان بأخطائه لأحد رجال الدين. ولذلك إذا أحس الإنسان المريض، أو أقاربه، باقتراب الموت يجب أن يصارحوه بذلك وأن يستدعوا له قسيسًا. ومهمة القسيس هى أن يساعد الروح على رحلتها إلى العالم الآخر.. وأن يساعد الميت على أن يتخفف من ذنوبه، ويكفى أن يعترف بها. فإذا اعترف خف وزنه وسقطت خطاياه.. وليس من الإيمان أن يسكت الطبيب أو الممرضة أو الأهل على تذكير المريض بأنه ميت حالاً أو سوف يموت..

ولكن فى المجتمع الأمريكى يكرهون استخدام كلمة الموت - مع أن أمريكا هى أكبر دولة تخصصت فى صنع أسلحة الموت فى العالم كله. ويفضلون أن يقولوا إن فلانًا: مضى.. أو.. ودع.. وذهب وراء السور - أو ذهب إلى غير عودة.. أو.. كان.. والأمريكان سعداء بأن يقولوا: إن هناك شيئًا واحدًا تعرفه أمريكا هو: الحياة على الطريقة الأمريكية!

وأعجب من ذلك أن الموت تجارة رابحة فى أمريكا.. فهناك شركات لبناء القبور.. والحدائق حول القبور.. وصناعة ملابس الموتى.. وسيارات لنقل الموتى.. وموسيقى لوداع الموتى.. وهناك لافتات فى كل مكان تطلب من الناس: لا تنسوا أن تختاروا موقعًا جميلاً بعد هذه الحياة..

وإذا كان الناس فى القرن السابع عشر –بداية الثورة العقلية– لا يهابون الموت.. فقد رأينا مفكرين كبارًا – رغم إيمانهم الشديد– يفزعون من الموت.. فالأديب الدكتور جونسون (١٧٠٩ – ١٧٨٤) كان شديد الإيمان بالله واليوم الآخر.. ولكن خوفه من

الموت أقوى من خوفه من اليوم الآخر.. وكان يقول دائمًا: وبعد ذلك.. لا يكون للإنسان «بعد».. إننى لا أعرف: لا معنى كلمة «بعد»، ولا معنى كلمة «ذلك».. الحقيقة أنه لن يصبح للمعنى أى معنى!

والطبيب الأمريكى لا يصارح المريض بأنه سيموت.. لأن الموت كلمة مفزعة للطبيب والمريض معًا!

والأمريكى المعاصر قد استغرقته الحياة تمامًا. أو أغرقته. فهو إذا عمل غرق. وإذا استراح من العمل غرق فى اللعب وفى الأكل وفى الشرب وفى النوم.. ولا يطفو على وجه الحياة إلا عندما يموت!

ويروى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى أن له عمًّا مات فى الثلاثين ويحتفظ له بهذه العبارة البليغة: إن الإنسان يرفع رأسه فوق أمواج الحياة لحظة واحدة. وفى هذه اللحظة يلقى نظرة خاطفة ثم يموت. ولكن هل هذه النظرة شىء تافه؟!

إنها ليست شيئًا تافهًا.. مهما كانت خاطفة فهى على كل حال نظرة وبعدها تجىء نظرات أطول وأعمق وأبعد.. ومن ملايين النظرات والتأملات من عيون وعقول الناس هى التى تكشف لنا أبعاد الكون وأعماق النفس الإنسانية!

ويجب على الإنسان أن يحتفظ بهذه النظرة من أجل الحضارة الإنسانية!

** ولكن العقل الإنسانى اهتدى إلى أشياء رائعة ومروعة.. ردت إليه شيئًا من الاعتبار، لا كل الاعتبار.

فاكتشاف أينشتين لنظرية النسبية قد أوقف الإنسان على

قدميه.. فنظرية النسبية تقول لنا نحن غير المتخصصين: إن الإنسان فى هذا الكون كله هو مجرد كائن يتفرج من فوق جسم متحرك على أجسام أخرى متحركة.. فالأرض تتحرك وكل ما حول الأرض يتحرك.. أو الإنسان يركب سفينة تعبر المحيط وينظر إلى القمر أو إلى الشمس.. فهو يمشى فوق السفينة.. والسفينة تمشى فوق الماء.. والأرض تتحرك بالماء.. والقمر يتحرك أمام الأرض.. ولكن الإنسان الذى يتفرج هو أيضًا يؤثر فى المناظر التى يراها.. فالإنسان ليس متفرجًا فقط. إنه متفرج يمثل فى المسرحية التى يتفرج عليها.. والعقل يقول لنا إن هناك ملايين من المتفرجين.. على أرضنا.. أو على كواكب أخرى.. فالإنسان لم يعد شيئًا تافهًا، وإنما هو سيد.. وهو ليس السيد الوحيد.. لكنه أحد ملايين الملايين من السادة فى ملايين الملايين من السنين على ملايين الملايين من الكواكب الأخرى!!

واكتشاف آخر اهتدى إليه فرويد يقول: إن الإنسان ليس هو العقل الذى يرى ويدبر. أو الإنسان ليس هو هذا الذى نتحدث إليه بالمنطق. وإنما فى داخل الإنسان كهف.. محيط عميق لا قرار له، هذا المحيط هو اللاشعور.. وهذا اللاشعور هو مستودع التاريخ الإنسانى والحيوانى كله.. وهو أيضًا مستودع التاريخ الشخصى والعائلى.. فليس الإنسان كائنًا واحدًا. وإنما هو ملايين الكائنات العاقلة والمجنونة والمتوحشة والخائفة.. فإذا كان الكون يحيط بالإنسان ويحيره، فهناك كون آخر فى داخل الإنسان أعمق وأعظم من هذا الكون الخارجى.. والعقل الإنسانى بتركيبه العجيب المعقد أعظم من تركيب الكون المحيط بنا وإذا كان فى

الكون نجوم تلمع.. ففى العقل الإنسانى أفكار تلمع وتبهر.. وإذا كانت الأكوان المحيطة بنا أجسامًا مشتعلة مترابطة بقوانين دقيقة، فإن العقل الإنسانى أعظم وأروع .. وإذا كان علماء الفلك يرون فى دقة الكون وعظمته دليلا على عظمة الله، فإن تكوين الإنسان أكبر دليل على عظمة الخالق.. فليس نجوم السماء هى التى تبهرنا.. ولكن ما يدور فى نفوسنا وعقولنا هو الذى يبهر ويحير..

وإذا كان النظر إلى السماء يجعل الإنسان يشعر بضآلته، فإن التأمل فى النفس يجعل الإنسان يشعر بعبقريته.. وعظمة الذى خلقه وخلق الكائنات الحية كلها..

وإن اكتشاف اللاشعور هذا والاستغراق فيه قد هدانا إلى شىء جديد، وهو أن الإنسان إذا كان يريد الحياة فهو أيضًا يريد الموت.. دون أن يدرى.. فإذا كان هناك غريزة حب البقاء، فهناك غريزة حب الفناء.. فليس الموت سيفًا يسقط على رقابنا فجأة.. وإنما الموت سيف نتطلع إليه ونصنعه.. ولا ننتظره، وإنما نضعه تحت أعناقنا ونتقلب عليه..

وهذا سر أيضًا من أسرار هذا العالم العجيب الذى نحمله فى أعماقنا أعمق من البحر، وأكثر التهابًا من النجوم، وأشد وحشة من الغابة، وأعمق ظلامًا من الليل.. ويعود الغموض إلى كل ما فينا وما حولنا.. ليتردد فى عقولنا وقلوبنا من جديد، ولتنحنى عقولنا من داخل رؤوسنا، وتنحنى رؤوسنا أمام الحقيقة الكبرى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.. جدًا!

إجابة جديدة عن سؤال قديم..

ماذا يفعل المال بالرجال؟

الأديب جورج شحاده ليس معروفًا بين الأدباء العرب، لأنه عربى: إسكندرانى المولد، لبنانى الأصل فرنسى اللغة والحياة والثقافة.. كأنه من المفروض ألا نلتفت إلى أدبائنا أيا كانت أرضهم.. وكأن الثقافة لا تنبت على أرض عربية أو بأقلام عربية..

فلا أحد يعرف جورج شحاده، ولا أحد يعرف السيدة أندريه شديد. ولا أذكر أننى قرأت لهما بالعربية إلا رواية واحدة للسيدة أندريه شديد، ظهرت فى القاهرة هى «اليوم السادس».. وإلا هذه المسرحية لجورج شحاده والتى ترجمها فتحى العشرى إلى اللغة العربية فى عبارة شفافة متينة. وهى مسرحية «مهاجر برسبان». وصدرت أخيرًا، وهذه المسرحية شاعرية الجو عبثية السياق.. فقد سافر إلى صقلية رجل من أستراليا ومات فى إحدى القرى. فأصبح موته فورًا مشكلة بوليسية. وكان لابد من حيلة ريفية خبيثة.. فقيل إن الرجل جاء يبحث عن ابن له فى الجزيرة. واهتدى التفكير الريفى الخبيث إلى استدعاء أجمل ثلاث نساء وما دمن جميلات فلابد أن لهن مغامرات قديمة.. وطلب إليهن أن ينظرن إلى جثمان الرجل لعل واحدة تعرفه.

ولما عرفن سبب الاستدعاء ثرن وثار أزواجهن أيضا. وكان

لابد من البحث عن حيلة ترضى الأزواج. فقيل للأزواج إن الميت قد ترك ثروة لابنه.. أى على كل رجل أن يقنع زوجته بأنها أنجبت ولدًا من الرجل ليفوز بالمال. واعترضت اثنتان والثالثة قبل أن تعترض قتلها زوجها ليبدو أمام الناس رجلا شهمًا غيورًا على شرفه.. واستراح أهل القرية إلى شهامة الرجل، وإلى أن عار القرية قد غسل بالدم، ولكن لسوء حظ هذا الرجل لم يكن وحده عندما قرر أن يقتل زوجته. فقد استمع إليه رجل آخر.. فهو -إذن- نذل حقير وزوجته ضحية بريئة شريفة!

وهذه المسرحية مزيج من مسرحية «من أجل لوكريس» التى كتبها جيرودو.. ومسرحية «زيارة السيدة العجوز» لديرنمات.. فهى جميعًا امتحان عنيف لشرف أحد الرجال أمام المال.. وامتحان أعنف لشرف كل الرجال أمام الجريمة.. ثم المسرحية بعد ذلك: عقاب لمن يسكت، وعقاب لمن لا يسكت عن هوان الإنسان..

والأديب جورج شحاده ليس فيلسوفا ولكنه شاعر صاحب جو وألوان وموسيقى. وهو يسوق مع الشمس سحبًا من الخوف والغموض.. ولا يهمه بعد ذلك إن سقط المطر وصفت السماء. فليس من الضرورى أن تصفو.. فلا صفاء فى عقول الناس ولا فى قلوبهم ولا فى أرضهم ولا سمائهم!

النجاح أبو الفشل!

كانت فلسفته تقول:

إن النجاح يولد من الفشل!

مات فى الأسبوع الماضى أكبر فيلسوف ألمانى معاصر: كارل ياسبرز (٨٦ سنة). وكان أستاذًا فى جامعة بازل منذ ثمانى سنوات.

وإن كان فى السنوات الأخيرة قد أصبح عاجزًا تمامًا عن الكلام أكثر من ساعة فى جلساته الخاصة أو فى التليفزيون السويسرى أو الألمانى.

وفى سنة ١٩٣٧ قررت الحكومة النازية إحالته إلى المعاش لأنه رفض أن يطلق زوجته اليهودية.. وفى سنة ١٩٤٥ قرر النازى وضعه هو وزوجته فى أحد معسكرات الاعتقال، ولكن القوات الأمريكية أطلقت سراحه عندما احتلت مدينة هيدلبرج التى كان أستاذًا للفلسفة فيها.

وهو أولا طبيب بشرى، ثم طبيب نفسى.. وانتقل بعد ذلك إلى الفلسفة. وهو يرى أن «الفلسفة» كلمة سيئة السمعة. ولذلك كان يقتصد فى استخدامها ويفضل أن يقول: إننى رجل صاحب مجموعة من الملاحظات المنسقة -بدلا من أن يقول إنه صاحب مذهب فلسفى!

ولذلك لم يسترح إلى الألمان عندما أطلقوا عليه اسم: أبو الفلسفة الوجودية الألمانية -وإن كان بالفعل كذلك!

والفلسفة عنده يجب ألا ندرسها كالنحو والصرف.. وإنما يجب أن تكون أسلوبنا فى إيقاظ الوعى الإنسانى، وقد فعل هو ذلك كثيرًا، وهو يرى أن الفشل الكبير هو وحده القادر على أن يدفعنا إلى النجاح.. أو بعبارة أخرى: إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك حقيقته إلا أمام فشل.. أزمة.. موت.. كارثة.. موت صديق.. أو إشراف على الموت.. أو صدمة عاطفية.. أو أزمة أخلاقية.. أو مصيبة فى عمل.. فمن الفشل يولد النجاح، كما تولد الكهرباء من سقوط المياه!

والإنسان لا يستطيع أن يعرف قدراته وهو منعزل عن الناس، وإنما بالناس ووسط وضد الناس يستطيع أن يعرف حدوده. ولا يستطيع أن يحقق شيئًا فى حياته الاجتماعية إلا بالقدر الذى يتوافق فيه مع الناس!

وقد عاش الطبيب الفيلسوف «كارل ياسبرز» مريضًا بصدره حتى مات.. وكان يضحك كثيرًا لهذه النكتة التى يسخر بها من المرض الذى جعله فيلسوفًا: لا أعرف ما الذى كنت أصنعه لو كنت قوى العضلات عريض الصدر طويل النفس!

من المؤكد أنه كان سيموت فى سن مبكرة.. فالمرضى هم الذين يعيشون طويلا.. ويتفلسفون!

شاعر من ليبيا

رفيق.. شاعر تعرفه ليبيا

الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى، كان فنانًا مبدعًا وساخرًا.. قال عنه فقيد الفكر العربى الكبير المرحوم العقاد «إنه شاعر ممتاز» وقد سجل هذا الرأى فى أول ديوان يصدر للشاعر الليبى قبل وفاته عام ١٩٦١ غريبًا فى أثينا.

وأحمد رفيق المهدوى أو «رفيق» كما هو معروف فى وطنه ليبيا شاعر تقليدى ومجدد فى نفس الوقت، مجدد فى أفكاره وفى مضامين قصائده، تقليدى فى قوالبه التى يصب فيها مشاعره وأحاسيسه الرقيقة، وهو وإن لم يكتب قصيدة واحدة على الطريقة الجديدة التى تتمسك بالأوزان وتتخلى عن وحدة القافية فى أغلب الأحيان، فإنه نادى بالتحرر من قيود الشعر التقليدى المضنية فقال فى إحدى قصائده:

أما آن للشـــعر أن يستقل   ويخلص من ربقة القافية؟؟

وكان «رفيق» شاعر جماهير من طراز نادر، ما إن يكتب قصيدة ويتلوها على رفاقه وأصدقائه حتى تنتشر بين أبناء الشعب بمختلف فئاته.. فقد كان الاستعمار الإيطالى فى ذلك الوقت يشن حرب إبادة فاشية على الشعب الليبى، وكان «رفيق» ابنا مخلصا لهذا الشعب يسخر موهبته فى محاربة جلادى بلاده، وضاقت به سلطات الاحتلال الإيطالى، فما كان من الوالى إلا أن أصدر قرارًا بنفى رفيق إلى تركيا وفى منطقة جيحان عاش رفيق

فترة ليست بالقصيرة ولكنه قبل أن يسافر، وبينما كان على سلم الباخرة أطلق قصيدة مؤثرة جدًا مطلعها:

وداعًا أيها الوطن المفدى فراقك عـز علـى جـدا

وعندما سمح له الإيطاليون بالعودة إلى ليبيا كتب عدة قصائد تصف مشاعره وهو فى وطنه من جديد، رغم أنف المستعمرين، وفى إحدى تلك القصائد يوضح ما قلنا حين يهتف:

عاد المشوق إلى بـلاده رجـع المطوح من بعاده

وهو ساخر فى حياته الخاصة وفى شعره، يطعم بعض أبياته أحيانًا بالكلمات العامية التى يكون لها مدلول ساخر عند العامة، فعندما ذهبت إيطاليا إلى غير رجعة كتب «رفيق» قصيدة زف فيها إلى الشعب بشرى زوال الكابوس المظلم، استهلها بهذا المطلع:

قد انتلف الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

ونلاحظ أنه استبدل «لقد ذهب» بـ«قد انتلف» فى البيت المشهور – وكلمة «انتلف» تعنى فى اللهجة الليبية «ذهب» ولكنها تقال للاستياء من بقاء شخص غير مرغوب فيه ثم ذهب.

ولقد ظل «رفيق» مخلصا لوطنه طوال حياته لم يخش فى الحق لومة لائم أو ظلم ظالم، حتى أن الناس فى إحدى المرات عابوا عليه سكوته فترة طويلة على مسألة تحتاج إلى شجاعته، فرد عليهم بقصيدة طويلة استهلها بقوله:

يقول أناس مالك اليوم ساكت وقد كنت فى كل الخطوب تقول

وكانت بقية أبيات القصيدة سخرية قاسية من المسألة التى أراد الناس منه أن يتحدث عنها، وقد أثارت ضجة كبيرة لمدة ليست قصيرة.

وفى ظلال الأكروبوليس وقرب آلهة الإغريق فى اليونان أسلم «رفيق» الروح، وكأنه يردد البيت الذى ناجى به شاعر إيطاليا «دانونزيو»:

رفرفى فى عالم الأرواح أصبحت طليقة.

هذا عمل ضخم

صدرت دائرة المعارف الإسلامية

فى سلسلة «كتاب الشعب» صدر الجزء الأول من «دائرة المعارف الإسلامية» التى تمكن ثلاثة من الشبان المتحمسين من ترجمتها. وأصدروا منها ١٥ مجلدًا –أى حتى بلغوا حرف العين– وهؤلاء الشبان الثلاثة كان عندهم إيمان كبير ومال قليل. ولذلك كانت مغامرة وصفها الحاقدون بأنها مغامرة طائشة ولكنهم لم يتوقفوا. وقد بدءوا عملهم الكبير سنة ١٩٣٣. والثلاثة هم: إبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى ود. عبد الحميد يونس، وهذه الموسوعة قد صدرت فى أوروبا بالإنجليزية والفرنسية والألمانية بإشراف الاتحاد الدولى للمجامع العلمية.. وتختلف هذه الموسوعة عن أية موسوعة فردية أخرى مثل موسوعة بطرس البستانى أو فريد وجدى.. لأنها خلاصة جهود متضافرة من علماء متخصصين..

وفى مقدمة الطبعة الجديدة التى صدرت عن «كتاب الشعب» وعد الأدباء الثلاثة –الذين لم يصبحوا شبانًا بعد - بأن يكملوا هذا العمل الجليل - وفقهم الله. مثلا تجد فى هذه الموسوعة القيمة تحت كلمة «آدم» قصصًا وتفسيرات وطرائف عن كيفية خلق أبينا آدم وكيف أن ملك الموت هبط إلى الأرض وجمع طينًا أبيض وأحمر وأسود؛ لتكون العجينة التى سوف يخلق الله منها أول كائنات على الأرض. فخلق تمثالا وسواه ونفخ فيه.

وكان آدم يتكلم اللغة العربية فى الجنة. ويتكلم اللغة السريانية على الأرض. ويقال كان يعرف ٧٠٠ لغة. وحواء أنجبت له ولدين ومع كل ولد أخت توأمة له. وزوج توأمة قابيل لهابيل وتوأمة هابيل لقابيل. فغضب الأخوان وقتل أحدهما الآخر. ويقال إن آدم عاش حتى رأى من ذريته أربعين ألفًا وعندما أمره الله أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض نزل آدم فى جزيرة سيلان. ونزلت حواء فى جدة، ثم التقى الاثنان فى عرفات ودفن الاثنان فى غار الكنوز فى جبل أبى قبيس قرب مكة. ويقال إن جثمان آدم نقل إلى القدس فى المكان الذى يعرف بمعبد آدم..

.. ويقال إن الله خلق آدم يوم جمعة وطرده من الجنة يوم جمعة وتوفاه يوم جمعة.. إلخ..

ولا تزال المكتبة العربية فى حاجة إلى القواميس وإلى دوائر المعارف فى كل المعارف الإنسانية.. ولا شك أن هذه الموسوعة عمل ضخم يستحق التقدير والتكريم.. وهذه المبادرة من كتاب الشعب تستحق من كل المثقفين أن يقبلوا على اقتناء هذه الموسوعة الضرورية لكل مثقف وكل مؤمن أيضًا!

لفائف البحر الميت

كل ما حدث فى كهوف قمران

أحد الرعاة واسمه محمد الديب من قرية «خربة قمران» شمال غرب البحر الميت بالأردن، كان يطارد إحدى معزاته. وهربت إلى أحد الكهوف.. وجرى الراعى وضربها بقطعة حجر. والحجر اصطدم بجرة من الفخار.. وذهب الراعى ليرى الجرة فاصطدمت قدمه بلفائف من الكتان. وفى داخل الكتان أخطر وثائق تاريخية ظهرت فى القرن العشرين.

وكان ذلك فى سنة ١٩٤٧ . وذهب الراعى ومعه هذه اللفائف إلى القدس، وعرضها على تجار الآثار. وتنقلت اللفائف من العرب التجار إلى رهبان الأديرة إلى التجار اليهود إلى علماء الآثار وظهرت هذه الأوراق مترجمة فى الكتب وظهرت ألوف الكتب تتحدث عن هذا الاكتشاف الذى يلقى الأضواء الباهرة على مئات السنين قبل ظهور المسيحية وبعدها.

هذه اللفائف اسمها «مخطوطات البحر الميت» وقد عرضتها إسرائيل فى جناحها فى المعرض الدولى ببروكسل سنة ١٩٥٧..

وتابعت الدراسات التى كتبت عن هذه المخطوطات. وهى تنتقل بين أيدى التجار، ثم بين أيدى اللصوص والمزيفين، ثم تنقل من المتاحف إلى الجامعة العبرية، وتنقل من الكهوف إلى متاحف الأردن، ومنذ سنتين كتبت أدعو الدارسين العرب أن يتناولوا بحث هذه المخطوطات التى عثر عليها العرب فى الأرض

العربية، وتلقيت من الأستاذ محمود العابدى خطابا يؤكد فيه أنه بدأ بالفعل يدرس هذه المخطوطات، ويترجم أحسن ما كتبه المؤرخون عنها.

وأرسل لى الفصل الأول من الكتاب، وبالأمس فقط تسلمت كتابا ممتعا قرأته كله بلذة وإعجاب. والكتاب بعنوان «مخطوطات البحر الميت» وهو من منشورات دائرة الثقافة والفنون الأردنية وفى ٤٠٠ صفحة. وهو ملىء بالصور التاريخية والرسوم الموضحة.

وهذا الكتاب وهذا المؤلف وهذا المترجم والروح العلمية التى شجعت على نشر هذا الكتاب نموذج رفيع لحب العلم والأمانة فى البحث. والحرص على إشاعة النور فى أى كهف، وفى أى عصر وفى أى مجال..

والأستاذ محمود العابدى قد مهد لدراسة هذه المخطوطات بتاريخ واضح، طويل عن اليهود وحركاتهم فى المنطقة، وشرح مذاهبهم الدينية، وخلافاتهم الطائفية وتناول المؤلف أيضًا الظروف التى اكتشفت فيها هذه المخطوطات، وكيف تنافس عليها اللصوص والتجار ورجال الدين ورجال الضرائب ثم عرض المعنى العام للمخطوطات المكتوبة على الورق والمكتوبة على النحاس وعلى الفخار. ثم تحدث بالتفصيل عن الجماعة الدينية التى تركت هذه المخطوطات فى الكهوف.. وكيف كانت حياتهم «الشيوعية» البدائية فى هذه الأديرة: الطعام معا والعمل معًا ولا أحد يملك شيئًا..

وتابع المؤلف قصة هذه المخطوطات بعد أن استعارتها

الحكومة الأمريكية لتعرضها فى الولايات المتحدة، وكيف سافرت إلى كندا ثم إلى بريطانيا.. وكيف شاهدها الملايين من الناس. وبعد هذه الرحلة الطويلة أعيدت إلى متاحف الأردن لتقع من جديد فى أيدى لصوص التاريخ من اليهود فى عدوانهم الأخير على الأرض العربية.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب متخصص، وأنه اختار مجالا ضيقًا، فإنه ولا شك متعة علمية وقصة تاريخية مثيرة، ومجهود يستحق التقدير.

ولكننا لم نضحك!

فى تاريخ اليهود مئات من النصابين الذين ادعوا أنهم «المسيح» المنتظر، وأنهم جاءوا لينقذوا الشعب اليهودى من الاضطهاد الواقع عليه فى كل العصور، وأكثر هؤلاء النصابين من الخطباء والدجالين.. وكان نصيب عدد كبير منهم القتل والسجن.. وأكثرهم هرب بجلده، وقد اختار الأستاذ مصطفى السعدنى الوزير المفوض السابق مادة مسرحيته «الكوميديا اليهودية»، التى صدرت له أمس شخصية النصاب «شبتاى» الذى ادعى فى سنة ١٦٦٥ أنه هو المسيح، ثم ادعى بعد ذلك أنه إله إسرائيل، وسار وراءه اليهود.

وعندما جلس مصطفى السعدنى ليكتب هذه المسرحية فتح أمامه كتابين هما: التلمود.. وكتاب فرويد الذى موضوعه «موسى والتوحيد».. والمسرحية فى ثلاثة فصول وعشرة مناظر وهى من منشورات لجنة التعريف بالإسلام التى يشرف عليها محمد توفيق عويضة، والمسرحية تحدثنا عن فتاة يهودية هربت إلى أحد الأديرة المسيحية وأقامت عشر سنوات، ثم هربت.. ووقعت بين ذراعى حارس للقبور اليهودية وحارس للشريعة أيضًا ومنه تعلمت ما هى اليهودية، وما معنى الجنس والرذيلة والدعارة المقدسة.. والفتاة اسمها سارة.. وهى قريبة الشبه من استير التى استولت بجمالها وحيلتها على أحد ملوك الفرس، وهى نموذج أيضًا للأسلحة السرية التى يطلقها اليهود على

الملوك والأمراء، واليهود لهم سلاحان: المال والجمال، والمال يدفعه الرجال وتعود النساء إلى الرمال مرة أخرى.

ويظهر أحد الأنبياء الذى يبشر بظهور المسيح «الدجال» وتفهم أن سارة هذه يجب أن تكون غانية لترتفع إلى مستوى الزواج من المسيح «الدجال» أو من إله إسرائيل، والتعاليم اليهودية تنص على أن تكون زوجته غانية وأن تكون قد احترفت الدعارة، وتظهر سارة أخرى..

وتظهر استير أخرى.. وتنتقل الأحداث إلى القاهرة إلى أيام الأمير عبدالرحمن كتخدا، الذى أقفل حانات الخمر، وحارات اليهود..

ثم تقيم الحكومة العثمانية محاكمة «للدجال».

وتجرى المحاكمات، ويرى اليهود أنه من الأفضل لهم أن يكفروا بالرجل.. الذى آمنوا به إنقاذًا لكل اليهود.. ويقرروا جميعًا أن ينكروه علنًا، ولكنه هو أيضًا ينكرهم.. ويفاجأ الجميع بأنه أشهر إسلامه! وتنتهى محاكمة الدجال والمسرحية!

وهذه المسرحية «الهادفة» مليئة بالمعلومات والمناقشات وفيها صناعة حوارية وفيها مواقف ذكية وهى تؤكد أن المؤلف عالم بالتاريخ وتؤكد أنه أيضًا فنان.. فعنده كل أدوات الفنان: الإلمام الشامل بموضوعه والدراية بالشكل والحيوية الجدلية.

وإن كان «الهدف» الأخلاقى الدينى السياسى يغلب على الشكل والمضمون ويجعل المسرحية مجرد مناقشات دينية.. ولكن المسرحية مع ذلك ممتعة، وإن كانت نهايتها تجعلنا نحس أن المؤلف قد ضحك علينا. فهو أولاً لم يضحكنا .. وهو ثانيًا قد

أقام قلعة شامخة وملأها بالأشباح والسلاح والرعب والنار والدمار.. وفى آخر لحظة وجدنا البطل يدفع أمامه حجرًا صغيرًا، فإذا هو خارج القلعة حر طليق: لقد أسلم مع أن حادث إسلام أحد آلهة اليهود هو بداية المسرحية، وليس نهايتها!

لولا الحياء

نموذج محترم لكتابة التاريخ

أخيرًا.. صدر كتاب أمين عزالدين «تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى سنة ١٩١٩».. وقد انتظرنا هذا الكتاب من وقت طويل وأمين عز الدين عنده مبررات كثيرة لأن يجيء هذا الكتاب متأخرًا في الزمان، فالمصادر التاريخية لحركة العمال أو لطبقتهم أو علاقتهم بالطبقات الأخرى غير متوافرة.. فلا العمال سجلوا حياتهم ولا النقابيون كتبوا مذكراتهم..

فلا يبقى أمام المؤرخ إلا أن يمسك مصباح «علاء الدين» ويبحث في محاضر البوليس عن الخناقات بين العمال والحكومة فيما بين ١٨٩٠ و١٩٣٩، وإلا أن ينتظر حتى سنة ١٩٧٢ عندما توافق الحكومة البريطانية على عرض تقارير اللورد كرومر التي كتبت سنة ١٩٢٢، وكذلك الصحف التي صدرت في هذه الفترة.. ومن خلال هذه المنابع التاريخية المتواضعة يستطيع المفكر المتخصص أن يجد طريقه بصعوبة.

وأمين عز الدين يثير قضية تتعلق بالمنهج وبفلسفة التاريخ عندما يتساءل عن ضرورة كتابة تاريخ الطبقة العاملة، فهو يرى أن هذا التاريخ ضروري؛ لأننا قد اعتدنا أن نكتب تاريخ السادة والحكام، وأن نغفل تاريخ الشعب وكفاح قواه العاملة من عمال وفلاحين ومثقفين وجنود ورأسمالية وطنية.. كما أنه من الضروري جدًا أن نبين أهمية العمل الإنساني من خلال كفاح الشعب.

والذى فعله أمين عز الدين فى كتابه هذا هو تطبيق ناجح لمسح الأرضية الاجتماعية والسياسية والعلمية للطبقة العاملة فى مصر وهو نموذج محترم لأية محاولة لتاريخ دور المثقفين أو الفلاحين أو الجنود، وهذا الدور الحيوى يهمنا جدًا ونحن نمارس التطبيق الاشتراكى لكفاح قوى الشعب المتحالفة.

وهذه الدراسة التى قدمها أمين عز الدين جادة مفيدة وهو يذكر فى المقدمة وفى صفحات الكتاب كل الكتب الرائدة فى هذا المجال ومدى استفادته منها.

وفى الكتاب اهتمامات طريفة ذات طابع إنسانى رومانسى.. ولكن الرومانسية هى مرحلة من مراحل الواقعية أو درجة من درجات الفهم للواقع الاجتماعى.. فعندما نشرت الصحف أن عددًا من العمال قد تعطلوا، نظم الشاعر الخفاجى هذه الأبيات:

برح اليوم بالظهور الخفاء
فكلوا الأغنياء يا فقراء
امضغوهم وعلقوا الإثم فى
جيدى فهم بانتحارنا الأثماء
وابلعوهم وكلكم مستعد
لابتلاع الأحجار لولا الحياء

الشمس خالتى والقمر خالى

صدر فى لندن كتاب بعنوان «الفكر العربى المعاصر» لكاتب إنجليزى اسمه أرشيبالد ماكمورى فى ٤٥٠ صفحة، والكتاب يتناول الأدب فى مصر وسوريا ولبنان والعراق ومختارات من الشعر الجزائرى والتونسى وبعض أزجال البدو.. والمؤلف قد بذل مجهودًا هائلاً فى الحصول على ترجمات دقيقة لكل هذه النصوص العربية وقد حصل على ست ترجمات مختلفة للأزجال البدوية فقد أعجبه زجل بدوى يقول: لو كانت الشمس خالتى والقمر خالى، والنجوم أولاد أختى، والأرض ملك أبى؛ لزرعت القمح طوال السنة؛ وقلت للناس جميعًا «كلوا واشكروا... إلخ»، فقد جاءته ترجمة فرنسية ثم أسبانية ثم ترجمها هو إلى الإنجليزية.

والكتاب به مجهود هائل وحسن إدراك وفهم لطبيعة الروح العربية، وأعلن فى المقدمة أنه سوف يعود إلى التوسع فى دراسة الفكر العربى المعاصر.. والذى لم يعجبنى فى هذا الكتاب، هو بعض الأحكام المطلقة التى تتنافى مع الروح العلمية مثل قوله: لقد كان أحمد شوقى «أحسن» الشعراء صياغة.. وكان حافظ إبراهيم «أكثرهم» مصرية.. بينما كان كُتَّاب السياسة «أشد» الناس ميلا إلى الإصلاح ... إلخ..

ولكن هذا الكتاب بروحه العامة يستحق الدراسة والاهتمام.. والنصوص التى أوردها المؤلف لشعراء البادية الجزائرية والمغربية لم يسبق نشرها.

أكرم للمؤلف أن يقول: لا!

سمعت فقط وقرأت أن القطة عندما تخاف فإنها تأكل أولادها، وهى تظن بذلك أنها تخفى أولادها فى أحشائها، تخفيها إلى الأبد.. لم أر هذا المشهد المؤلم، ولكننى رأيت شيئًا من هذا فى التليفزيون السويسرى منذ أيام، فقد أعلن التليفزيون أن الكاتب السويسرى ماكس فريش سوف يظهر الليلة ويتحدث إلى الناس عن سبب الخناقة التى بينه وبين مخرج إحدى مسرحياته.

وكان من نتيجة هذه الخناقة أن أوقف عرض المسرحية، وأعاد الناس تذاكرهم. وكان ذلك خبرًا مثيرًا، لا بالنسبة لمدينة زيورخ وحدها، ولكن لسويسرا كلها. وعندما ظهر ماكس فريش فى التليفزيون كان إنسانا آخر يختلف عن ذلك الرجل الهادئ الحكيم الذى جلست إليه فى بيته أربع ساعات.. إنه مختلف، إنه قط قد قرر أن يبتلع أولاده وأن يقضى عليهم، فهذا خير ألف مرة من أن تمتد يد المخرج إلى «خربشة» مسرحيته، التى عنوانها «الغروب فى الخريف».. لقد فوجئ ماكس فريش بأن المخرج - دون اتفاق معه - قد عبث فى سطور المسرحية، وأعلن فريش: أن هذه جريمة قتل، وأنه يرفضها فورا، تماما كما ترفض كل أم أن تجيء المربية وتغير ملابس أبنائها وأسماءهم أيضًا!

ورأيت ماكس فريش ثائرًا.. إننى أعرف مثل هذه الثورة وأراها مشروعة وطبيعية.. وأعرف وقاحة وجرأة المخرجين.. وأرى أنها

«عقدة» المترجم الذى يريد أن يكون مؤلفا، وعقدة المرأة العاقر التى تخطف أولاد الآخرين!

لقد رفض ماكس فريش أن يأكل مسرحيته، رفض أن يخاف كالقطة.. ورفض أيضًا أن يأكل مسرحيته رجل آخر؛ ولذلك سحب المسرحية من المسرح ومن المخرج، وانتهى حديثه الثائر.

وأغمضت عينى برفق؛ حتى لا أرى سوى صورة هذه الكبرياء المبدعة!

١- طبعوها فى لبنان!

كتب يكتب فى مصر

باع يبيع فى لبنان

الكتب المصرية التى مازال لها سوق، تطبع فى الخارج، إما بغير علم المؤلف والناشر، أو بالاتفاق مع المؤلف، وتصدر فى طبعات جديدة أنيقة غالية الثمن.. وتصدر لنا وتروج وتربح.

الكتب التى يتعذر نشرها هنا تطبع فى الخارج، ثم يسمح بدخولها وبيعها هنا!.. وكأن الهدف هو التضييق على حركة النشر فى مصر!

والناشر اللبنانى يجيد الاختيار، ويعرف ماذا يحتاج السوق.. عبقريات العقاد أعيد طبعها فى بيروت.. إسلاميات طه حسين تصدر لأول مرة فى مجلد كامل يباع بثلاثة جنيهات ونصف فى القاهرة.

ودور النشر فى بيروت عرفت أهمية طبع الأعمال الكاملة للمؤلفين المصريين الكبار.. أما نحن! فنطبع ١٩ مجلدًا فى حوالى ٤٠٠ صفحة للمجلد الواحد عن الأعمال الكاملة لدستوفسكى!

كان من الممكن نشره مع روسيا ضمن اتفاقياتنا الثقافية فيوفروا لنا الورق وتكلفة الطبع، ونقدم نحن الترجمة والتنفيذ والتوزيع.. ونخدم معا الإنسانية بإخراج الأعمال الكاملة لدستوفسكى.

لماذا يطبعون فى بيروت الأعمال الكاملة لكتابنا ويربحون،

ونحن نطبع لدستوفسكى وفى هذه الظروف ونحن بحاجة إلى كل مليم؟! إن دار الكاتب العربى قد اندفعت فى حماسها.. ويجب أن نجد من يوجه هذا الحماس، إننى مع الدكتور عبدالرحمن بدوى فيما كتبه فى هذا المكان منذ أسبوعين وفى البكاء على ما جرى للكتاب المصرى، ولست مع الدكتور أبوالنجا فى الرد الذى نشره فى «أخبار اليوم» بعد ذلك فى أن مأساة الكتاب المصرى تنحصر فى أننا غلبنا الكيف على الشكل، إن رقما مخيفا يتردد عن خسارة دار الكاتب العربى خلال العام الماضى.. وطبع كتابنا فى الخارج يؤكد أنه هو فى حد ذاته مازال سلعة رائجة.. فلابد أننا نخسر، لأننا لا نختار المناسب من الكتب.

٢- سرقوها فى بيروت!

رسالة من ثروت عكاشة إلى شارل حلو

دور النشر فى مصر، والمؤلفون يشكون من أن الناشرين فى لبنان يسرقون كتبهم.. وذلك بأن يطبعوها دون إذن أو يغيروا أسماء المؤلفين المصريين ثم يبعثوا بالكتب إلى ملايين العرب فى كل مكان.. والشكوى قديمة.. والحسرة أليمة.. ولا حل!

ومنذ أسابيع نشر د.عبدالرحمن بدوى الأستاذ الزائر فى جامعة ليبيا رسالة فى هذا المكان يشكو من الناشر اللبنانى، الذى يتحكم فى بيع الكتاب المصرى. وقد رد عليه د. السيد أبوالنجا فى أخبار اليوم مؤكدًا أن الشكوى فى محلها.. ولكنه ليس هو - ولا اتحاد الناشرين - مسئولا عما يصيب وأصاب الكتاب العربى.

وتوجهت أنا بالشكوى إلى د. ثروت عكاشة.. فهو وحده الذى يستطيع أن يقول وأن يفعل شيئًا فى مواجهة هذا النهب الأدبى للمؤلفين ولوزارة الثقافة المصرية نفسها، فقد عكف النصابون الناشرون فى لبنان على تزوير كتب دار الكاتب العربى وتغيير أسمائها وأسماء مؤلفيها - دون إذن طبعًا - بل إنهم صوروا كتابا واحدا هو كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبى ٢٠ جزءا كاملة ثم عرضوه للبيع على ورق أحسن وسعر أرخص وفى كل مكان.

وقد سارع د. ثروت عكاشة واتصل بالدكتور حسن عباس زكى فى تشيكوسلوفاكيا يطلب إليه أن يسارع فى تعديل قوانين تصدير الكتاب العربى.. وأوفد إلى بيروت د. سهير القلماوى وسعد الدين وهبة، وبعث برسالة شخصية إلى رئيس جمهورية لبنان، ورسالة أخرى إلى وزير الثقافة ورسالة ثالثة إلى سفيرنا فى بيروت.. وواضح أنه يطلب المساعدة فى هذه الكارثة الأخلاقية والاقتصادية والثقافية أيضًا، ولابد أن يكون تفتيش بعض دور النشر وفضح أعمال التزوير والتصوير نتيجة لهذه الاتصالات الرسمية..

ووضعت الحراسة على ٣٠٠ ألف كتاب كانت معدة للتصدير.. أما حسن إيرانى فقد اختفى.. وأما أخوه مصطفى إيرانى فقد ألقى القبض عليه..

والكتب المصادرة قيمتها ربع مليون جنيه.

ومن أحلامنا جميعًا ـ طبعًا ـ أن يلقى اللصوص عقوبة رادعة.. وأقول من أحلامنا.. فقد حدث أكثر من مرة أن ألقى القبض على ناشر لبنانى، وأفرج عنه بعد ساعات! ولذلك لابد أن يتم الاتفاق على مستوى الدولة، ولابد من تغيير القيود الجامدة على تصدير الكتاب المصرى وتمويل الكتب وتحصيل ثمنها من الخارج.

ولاشك أن هذه المبادرة من د. ثروت عكاشة تستحق التقدير الكبير من كل المؤلفين والناشرين فى مصر.

٣- تزييف الكتب المصرية

كان لابد من اتخاذ خطوات عملية رسمية بعد فضيحة الناشر اللبنانى، الذى وضعت مخازنه تحت الحراسة واعتقل أخوه فى بيروت.. فقد هاجم البوليس مخزنا يضم أكثر من ربع مليون كتاب «مزورة» مسروقة من مصر، من المؤلفين المصريين ومن دور النشر الكبرى.. وجاءت الخطوة العملية على شكل مذكرة هامة قدمها د. ثروت عكاشة إلى مجلس الوزراء؛ تمهيدًا لاتخاذ قرارات عاجلة من وزارات الثقافة والخارجية والاقتصاد والخزانة.

وقد جاء فى مقدمة المذكرة: أنه حدث فى السنوات الأخيرة أن دخل الناشرون اللبنانيون مجال المنافسة عن طريق التزييف لمطبوعاتنا، وما لبث هذا العمل العدوانى أن اتسع نطاقه.. وأصبح من واجبنا أن نتحرك؛ لنحمى ثمار جهودنا الأدبية والمادية من الضياع، ولم يقصر الناشر اللبنانى على الكتب الثقافية بل تعداها إلى الكتب المدرسية، وهو مجال أكثر اتساعا وأهمية، وبالتالى فإن فقداننا له يمثل خسارة مادية فادحة.. والناشر يلجأ إلى حيلة خبيثة، فهو يعتمد على عملاء له فى البلاد العربية والإسلامية، ليتقدموا بعطاء لتوريد الكتب المصرية، فإذا رسا على أحدهم بعث إلى شركائه فى لبنان كى يقوموا بتزييف نسخ طبق الأصل من الكتب المصرية بطريقة الأوفست فى مطابع لبنان، ثم يبعثوا بالنسخ

الجديدة إلى السعودية والأردن ونيجيريا وليبيا.. وهى خسارة فادحة لمؤلفينا وناشرينا.

وجاء فى المذكرة أيضًا: أن بادرة طيبة قد حدثت بالنسبة للكتاب المدرسى فى السعودية وهى حصول وزارة التربية والتعليم السعودية على موافقة الناشر المصرى والمؤلف المصرى قبل أن تقبل إرساء العطاء على أحد من العملاء.. وهذا الحل لا ينطبق على الكتاب الثقافى وهو ما يدفعنا إلى التفكير فى حل آخر.

وبعد أن استعرضت المذكرة العيوب والثغرات التى ينفذ منها الناشر اللبنانى، تقدمت المذكرة بعدة توصيات إلى وزارات الثقافة والخارجية والاقتصاد والخزانة.

فبالنسبة لوزارة الثقافة:

١- لابد من العناية بكتب التراث والكتب الدينية والقصص، لا باعتبارها أهم أبواب الثقافة فحسب، ولكن باعتبارها الكتب التى يستند إليها طلب الأسواق الخارجية.

٢- إعادة النظر فى اتحاد الناشرين لوضع سياج حول المهنة بحيث لا يدخلها من ليس أهلا وبحيث لا تكون وسيلة للتهريب.

٣- إصدار قرار باستثناء شركات القطاع العام المصدرة للكتب عن ضرورة الحصول على استمارة «ت. ص» وهى الاستمارة، التى تقضى بضرورة إعادة ثمن المادة المصدرة خلال ستة أشهر من تاريخ التصدير.

وبالنسبة لوزارة الخارجية أوصت المذكرة بالاحتجاج على نشر بعض الكتب التى ضبطت فى قضية الناشر اللبنانى حسن إيرانى وكذلك ضرورة الاتصال بحكومات الدول العربية

والإسلامية لعدم قبول أية كتب دون شهادة من الدولة التى أصدرتها أولا، وقد فعلت الحكومة السعودية ذلك وبالنسبة لوزارة الاقتصاد أوصت المذكرة: ١- مراجعة أسماء مصدرى الكتب على ضوء ما ظهر من تحقيقات لبنان واستبعاد من يثبت اتصاله بها ٢- قصر تصدير الكتب تدريجيا على شركات القطاع العام أسوة بالصحف والمجلات. ٣- النص على استثناء الكتب من اتفاقيات الدفع المعقودة بين الجمهورية وغيرها من الدول ٤- التصريح لمؤسسة التأليف والنشر باستعمال جزء من حصيلتها لا تقل مؤقتا عن نصف حصيلة المبلغ بالعملة الصعبة فى شراء الكتب الأجنبية وأدوات الطباعة والورق، أسوة بما تصرح به لجريدة الأهرام. ٥- السماح بشحن الكتب على بواخر وطائرات غير مصرية إذ دعت الضرورة إلى ذلك.

وبالنسبة لوزارة الخزانة أوصت المذكرة التى قدمها د. ثروت عكاشة إلى مجلس الوزراء: ١- إعطاء سلفية للمؤسسة؛ لتقوية جهاز التوزيع فى الخارج تستردها مقسطة على خمس سنوات يجب ألا تقل عن ٢٥٠ ألف جنيه. ٢- دفع إعانة لشركة «راكتا» للورق؛ تغطية للفرق بين سعر الورق من إنتاج الشركة الذى يستخدم فى طباعة الكتب وبين سعر المثل فى الدول الأخرى، للنزول بسعر الكتاب إلى مستوى سعره فى الدول العربية، خاصة فى لبنان.

ونحن نأمل أن تكون هذه الخطوة الإيجابية نواة أولى فى تدعيم الكتاب العربى والمؤلف المصرى والناشر المصرى فى الداخل وفى الأسواق العالمية.. وأن تكون هذه البداية هى النهاية لسارقى الكتب ومزورى الثقافة فى لبنان.

المسرح اللا مسرحى!

تجربة جديدة لتوفيق الحكيم

مسرح الثلاثة أشخاص:

الحكاواتى - والمقلداتى - والمداح

مسرح العبث أو مسرح اللامعقول هو الذى يمكن أن يوصف بأنه المسرح اللامسرحى..

والرواية الجديدة اسمها الرواية اللاروائية.. أو قصة اللاقصة.. والمعنى لهذا الاتجاه الواحد فى المسرح وفى الرواية: أنه لا داعى للتمسك بالقواعد التقليدية للمسرحية من أيام أرسطو حتى اليوم. وأن المؤلف والممثل والمخرج والجمهور فى استطاعتهم أن يتحرروا من «أكذوبة» أن هناك مسرحية أمامهم.. وأنه يمكنهم أن يشعروا بأن كل ما أمامهم هو تمثيل فى تمثيل، وأنهم يعلمون ذلك، وأن الممثلين على المسرح يعرفون هذه الحقيقة ويؤكدونها بمجرد النظر إلى الجمهور وانتظارهم حتى يقعدوا فى أماكنهم، هذا النظر والانتظار معناه أنهم يشعرون بشىء وأناس خارج المسرح، وهذا يتنافى مع المسرح التقليدى.

وبهذا التطور المسرحى ابتعد المسرح أيضًا عن تقليد السينما بأضوائها وديكورها، وارتد المسرح إلى بساطته القديمة أيام كان الممثل يقف بين الناس وعلى الأرض.. يشعر بهم ويشعرون به.. وتستمر المسرحية.

والسؤال الذى شغلنا، وشغل توفيق الحكيم أيضًا فى كتابه الأخير «قالبنا المسرحى» هو: كيف كان «القالب» المسرحى المصرى؟

ولاحظ توفيق الحكيم أن السامر قد ظهر مع الحملة الفرنسية، كما يروى الجبرتى، وهو شخصيا قد حاول تجربة السامر فى قصة قصيرة اسمها «الزمار» وبطلها ممرض يعمل فى السامر، ثم خطا الحكيم خطوة أخرى عندما أدخل الفنون الشعبية فى مسرحية «الصفقة» وجعل المسرح أحد أجران القرية وبلا ديكور، وخطوته الثالثة عندما ظهرت له من خمس سنوات مسرحية «ياطالع الشجرة» وهى من ناحية المضمون مصرية شعبية ومن ناحية «الإطار» إذا جاز استخدام هذه الكلمة - لا معقولة.

ولكن أعمالنا المسرحية المقتبسة والمؤلفة كانت دائمًا فى هذا القالب أو الإطار أو الشكل العالمى. والقالب سمى قالبا؛ لأنه يقبل أى مضمون من أى بلد وفى أى وقت، فهل عندنا قالب آخر غير السامر يمكن أن نصب فيه أى مضمون ثقافى شعبى أو عالمى، ويظل هذا القالب عالميا أيضًا.. أى صالحا لنا ولغيرنا؟

عثر توفيق الحكيم على «قالب» كان موجودا قبل عصر السامر.. فقد كان من المألوف أن يقف الحكاواتى والمقلداتى والمداح بين الناس ويروى لهم القصص والنوادر والأحداث، والناس يستجيبون له ويشعرون بمتعة؛ ولذلك فقد استراح الحكيم إلى هذا القالب الجديد المكون من ثلاثة أشخاص هم: الحكاواتى والمقلداتى والمداح، فالعمل «المسرحى» - إذا جاز استخدام هذه الكلمة - يركز فى ثلاثة أشخاص.. يظهرون أمام الناس بأسمائهم العادية وملابسهم العادية ويقدمون للناس على الأرض وفى الحقول وفى المصانع أى عمل فنى عالمى، ابتداء من أيام الإغريق حتى المسرح الألمانى الحديث.. وقد تبدو هذه مهمة

سهلة، ولكنها صعبة من الناحية الفنية.. فالحكاواتى سيقوم بدور المدير المسرحى والمخرج والمذيع والشارح.. والمقلداتى سيقدم نفسه وسيدخل فى عدد كبير من الشخصيات أمام الناس، وهو كالنحات الذى يصنع تمثالا أمام الناس، ولكن هذه الصناعة لا تجعل منه إنسانا آخر.. إنه هو.. هو..

ومادام المسرح الحديث بلا خداع ولا إيهام ولا مسرح أيضًا، ومادام المتفرج يريد أن يعرف اللعبة وما وراءها ويريد أن يرى الحاوى وأن يرى الحيل أيضًا، يريد أن يرى الثوب وبطانته، فلا خوف على هذا القالب القديم من أن يشعر المتفرج أمامه أنه ليس مسرحا؛ لأنه فعلا لا مسرح ولا كذب ولا إيهام ولا حيل ولا حاوٍ..

والقالب الجديد تثقيفى وتعليمى أيضًا.. وإذا كان يحتاج إلى شىء هام جدًّا فهو يحتاج إلى مقلداتى ممتاز قادر على أن يكون نفسه وكثيرًا غيره فى نفس الوقت.

وقد اختار توفيق الحكيم عدة مسرحيات عالمية ووضعها فى هذا القالب الجديد: إجماليون لاسخيلوس ترجمة لويس عوض، وهملت لشكسبير ترجمة خليل مطران، ودون جوان لموليير ترجمة إدوار ميخائيل، بيرجنت لإبسن ترجمة د. على الراعى، وبستان الكرز لتشيخوف ترجمة د. سهيل إدريس.. وست شخصيات تبحث عن مؤلف لبراندللو ترجمة محمد إسماعيل محمد.. وهبط الملاك فى بابل لديرنمات ومن ترجمتى..

وهذه التجربة الجديدة لتوفيق الحكيم تستحق التأمل مرة أخرى.. وليست هذه إلا إشارة لعمل جديد لأديبنا العظيم.

الأطفال أولا!

ثقافة:

الصغار.. قبل الكبار!

فى العالم كله اتجاه جديد الآن.

دور نشر خاصة للأطفال.. مسارح للأطفال.. دور سينما للأطفال.. مجلات عامة للأطفال.. ومجلات متخصصة أيضًا للأطفال.

وفى إذاعات الدنيا ومحطات التليفزيون برامج جديدة جريئة، الهدف منها أن تنفتح عيون الأطفال على العالم وهم أكثر جرأة وأكثر وعيا.. ولحماية الطفل من أجهزة الإعلام المتعددة المتنوعة.

هدف الاتجاه الجديد فى العالم كله أن يشغل الأطفال بكتبهم ومجلاتهم وأفلامهم ومسرحياتهم وبرامجهم، فلا يتجهون لبرامج الكبار، أو إذا اتجهوا إليها كانوا مزودين بنوع من الحماية الفكرية.. الذهنية.. الفنية.

ومنذ شهرين بدأت وزارة الثقافة تتبنى هذا الاتجاه الجديد فأنشأت المكتب الاستشارى لثقافة الأطفال؛ للتنسيق بين كل المشروعات الثقافية الخاصة بالطفل من مسرح وسينما وإذاعة وتليفزيون ونشرة؛ ولوضع خطة جديدة تبدأ بالطفل.. بالجيل الجديد.

وقد بدأ المكتب عمله بأن جمع كل الذين يكتبون للأطفال

ويغنون ويمثلون لهم أو يقدمون برامجهم، وقد عقد المجتمعون عدة اجتماعات قدم كل منهم خلالها تجربته الشخصية، كما قدم التربويون تجاربهم ونظرياتهم، ومن خلال حصيلة هذا كله اتفق على عدة مشروعات فى طريقها للتنفيذ، بل بدأت عملية التنفيذ فعلا بالنسبة لبعضها.

* تقرر بالاتفاق مع الهيئات التعاونية المختصة إنتاج لعب ذهنية للأطفال.

* تقرر أن يعود مسرح الأطفال بفرقة جديدة.. وهناك ٤ مسرحيات صالحة، وقد رئى أن يقوم الكبار بالتمثيل للأطفال بدلا من الصغار باعتبار أن هذه هى الطريقة المثالية فى مسارح الأطفال عالميا.

*سيصدر كتابان، الأول للدكتور مصطفى فهمى يتضمن توجيهات للذين يكتبون للأطفال والثانى للدكتور مرسى سعد الدين عن تجارب الدول المختلفة فى ثقافة الأطفال.

* تقرر تدريس دراما الأطفال فى معهد الفنون المسرحية وأفلام الأطفال فى معهد السينما.

* تقرر تكوين مكتبة كاملة عن كتب الأطفال.

* ستنظم دورة مسائية تدريبية للذين يكتبون ويرسمون ويقدمون برامج للأطفال.

أسند الإشراف على المكتب إلى الدكتور مرسى سعد الدين.. ومرسى سعد الدين قام بالتدريس فى الجامعة.. واشتغل بالصحافة وعمل فى المجلس الأعلى للفنون والآداب وله نشاط واسع ناجح فى الحقل الإفريقى والآسيوى من خلال عمله فى

مؤتمر التضامن الإفريقى والآسيوى، وهذا المنصب الجديد فى ثقافة وفنون الأطفال يعتبر أكثر مسئولية من كل مناصبه السابقة.. وهو عمل يحتاج إلى جهد، وإلى تعاون كل الهيئات التى تعمل فى ميدان الأطفال؛ للتنسيق بين الجهود وتوحيدها للنهوض بها؛ ذلك لأن الخطوة الأولى للارتقاء بالمجتمع هى البدء برعاية أطفاله فكريًا وفنيًا.

عبقرية حمدان

دراسة فى عبقرية هذا المكان

ليس كثيرًا أن يصادف الإنسان كتابا جميلا مثل هذا الكتاب الذى صدر للدكتور جمال حمدان بعنوان «شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان». والكتاب دراسة علمية لا جدال فى هذا. ولكن أسلوب الكتاب شاعرى. وهذه الشاعرية لا تجعل الكتاب أقرب إلى الأعمال الأدبية، منه إلى الأعمال العلمية. ولكن تجعل من المؤلف ظاهرة لافتة فى «تأديب» العلم أى جعل العلم عملا أدبيًا جميلاً. أو عملاً سهلاً سائغًا لمن يهتم بالأدب ومن يهتم بالجغرافيا. والكتاب هو دراسة جغرافية.

وعبارة «عبقرية المكان» عبارة لا تخيف. فالمؤلف يقصد بالعبقرية المكانية: الصفات التى تتميز بها مصر عن غيرها من البلاد الأخرى. والعبقرية هنا يقصدها المؤلف حرفيًا. فهو يرى أن مصر «فلتة جغرافية» وتاريخية أيضًا.

مثلاً اقرأ هذه العبارة وهو يتحدث عن معشوقته الفاتنة: إنها فرعونية الجد، عربية الأب، وهى بجسمها النهرى قوة برية، وسواحلها قوة بحرية. وهى تضع قدمًا فى الأرض، وقدمًا فى الماء وهى بجسمها النحيل تبدو ضعيفة، وبرسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسًا ضخمًا. وهى فى قلب العالم العربى، ووسط العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى.. وهى وسط بين كل شىء بل هى سيدة الحلول الوسطى.. فى الدور الحضارى

والتاريخى والموارد والطاقة والسياسة والحرب وفى النظرة والفكر.

إنه طبعا يتحدث عن عبقرية مصر المكانية - الجغرافية.

وعندما يتحدث عن الثورة المصرية يضعها بين الثورات الكبرى فى هذه المعادلات الرياضية الواضحة:

الثورة الفرنسية = قومية + استعمارية. الثورة الروسية = لا قومية + لا استعمارية.

الثورة المصرية = قومية + لا استعمارية.

وبعد ذلك يفسر هذه المعادلة وغيرها. وعند د. جمال حمدان الكثير جدًا من التفسيرات المقنعة من ناحية الشكل والمضمون.

ومن المؤكد أن هذه السطور ليست تعريفًا بالكتاب ولا محاولة «لتقديم» المنهج والهدف والدلالة، ولكن هذه السطور إشارة فقط إلى عمل فكرى يستحق التقدير فى أى وقت. وهو يستحق التقدير مرتين: مرة لما جاء فيه، ومرة أخرى لما يثيره فى نفس القارئ من أفكار وقلق. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد صدر منذ شهر تقريبًا؛ فإن أى كاتب مثقف يجب ألا يسامح نفسه إذا هو تكاسل عن الإشارة إليه.

وأهم ما يشير إليه هذا الكتاب، هو أنه يشير إلى مفكر له أسلوب خاص يجمع بين حرارة الشعر وشفافية العلماء!

للتزوير بقية!

قضية تزوير الكتب فى بيروت

ترحيب الناشرين المصريين

باستبعاد المنحرفين من صفوفهم

دعونا لمعالجة مشكلة تزوير وسرقة ونهب الكتاب المصرى فى بيروت.. فقد ثبت أن عددًا من الناشرين فى لبنان يسرقون الكتب المصرية ويبيعونها فى جميع أنحاء العالم.. واستجاب د. ثروت عكاشة بسرعة. وأوفد د. سهير القلماوى وسعد الدين وهبة إلى بيروت. وهناك صودرت إحدى دور التوزيع بما فيهامن ٣٠٠ ألف كتاب.. واتخذ د. ثروت عكاشة خطوة إيجابية أخرى فقدم مذكرة إلى مجلس الوزراء يطلب فيها الموافقة على تعديل إجراءات تصدير الكتاب المصرى ويطلب المعونة المالية لشركة راكتا لتخفيض تكاليف الكتاب المصرى.

وطالب بتطهير اتحاد الناشرين من العناصر المنحرفة على ضوء ما جاء من تحقيقات مع الناشرين فى لبنان.

وطالب بأن يكون توزيع الكتاب من اختصاصات القطاع العام. وقد وجه د. ثروت عكاشة مذكرته أيضًا إلى وزراء الخارجية والاقتصاد والخزانة يطلب مساعدتهم فى هذه القضية الخطيرة.

وفى يوم الإثنين الماضى بعث اتحاد الناشرين بمذكرة إلى وزير الاقتصاد حسن عباس زكى يردون فيها على ما ورد خاصا

بهم وماسا بشرف مهنتهم فى مذكرة د. ثروت عكاشة. وقد استهلوا مذكرتهم «بأن الدولة رأت إنشاء أول اتحاد للناشرين فى ج. م. ع. فعرض مشروع القانون بإنشاء الاتحاد على مجلس الأمة ووافق عليه وصدر القانون الخاص بإنشائه. فكانت هذه خطوة طيبة نحو دراسة مشاكل النشر والعمل على حلها، داخل إطار يضم جميع المشتغلين بالنشر. وضم الاتحاد ٦٤ عضوًا. ومن هؤلاء ٦١ عضوًا من القطاع الخاص وعضوان من القطاع العام والعضو الباقى من مؤسسة صحفية.. وقد حرصنا من جانبنا على ألا يكون مجلس إدارة الاتحاد مجالاً لعرض رأى القطاع الخاص أو تبادل الاتهامات بينه وبين القطاع العام. إيمانًا منا بأن المصلحة القومية العليا تتمشى فى تعاون القطاعات الثلاثة.

وجاء فى مذكرة اتحاد الناشرين فى مذكرة د. ثروت عكاشة تطالب بإعادة النظر فى اتحاد الناشرين. واتحاد الناشرين لديه قانون يتضمن مواد ترحب باستبعاد أى عضو منحرف.. وإن كان انحراف عضو واحد ليس معناه انحراف كل الأعضاء.

وتطالب المذكرة بمساواة القطاع الخاص والعام أمام استخدام الاستمارة «ت. ص» فمما يحقق العدالة ويتمشى مع مصلحة الدولة أن يعامل القطاعان الخاص والعام على قدم المساواة، لأن احتمال وجود منحرف فى القطاع الخاص يقابله احتمال وجود منحرف فى القطاع العام. فإما أن يعفى الجميع من تقديم هذه الاستمارة، كما كان الحال بين عامى ٥٦ و٦٦ مع فرض رقابة فعالة على المشتغلين بالتصدير، يلزم الجميع

بتقديم هذه الاستمارة. وطالبت مذكرة د. ثروت عكاشة بمراجعة أسماء مصدرى الكتب على ضوء ما ظهر من تحقيقات لبنان واستبعاد من يثبت اتصاله بها، فإن اتحاد الناشرين يرحب بهذا الإجراء ويطلب سرعة البت فيه.

وجاء فى ختام مذكرة اتحاد الناشرين إلى وزير الاقتصاد أن «نشر الكتب» فى جميع البلدان وجميع العهود، يلقى من الدولة تشجيعا ورعاية كاملة، بوصفه أداة نشر لنشر الثقافة والتقارب بين الأمم. ولهذا كان دائمًا يعامل معاملة خاصة. لا يحظى بها غيره من السلع.. والقطاع الخاص يلقى رعاية وتشجيعًا فى تصدير جميع السلع فيما عدا الكتاب.

وإذا كانت الدولة تنفق ملايين الجنيهات على وسائل التثقيف والإعلام الأخرى، كالإذاعة والتليفزيون والمراكز الثقافية والمنح الدراسية وإعارة آلاف المدرسين للخارج، فالأولى بها تشجيع القطاع الخاص على المضى فى نشر الكتاب، وخاصة أنه لا يتطلب مساعدة مالية، بل يعاهد نفسه على تدعيم الاقتصاد القومى وجلب أكبر قدر ممكن من العملات الأجنبية.

شرير موهوب!

هذه العبقرية الشريرة

من الشخصيات العجيبة فى تاريخ الأدب العالمى هذا الرجل سير ريتشرد برتون الذى توفى سنة ١٨٩٠. فهو نموذج للرجل الأسطورة أو للبطل المناضل. أو صاحب الرسالة الخطرة. فهو مولع بالسفر ومجنون باللغات. فقد سافر إلى بلاد كثيرة من العالم واشتغل قنصلا لبلاده فى أماكن مميتة. وهو يعرف أربعين لغة ويتكلم عشرات اللهجات.

وهو الذى ترجم ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية وساهم فى ترجماتها الفرنسية والإيطالية والألمانية وهو الذى ترجم كتابا جنسيًّا عاريا اسمه «كاما سوترا» من الأدب الهندى القديم. وهو الذى ترجم كتابا «بذيئا» اسمه «الروضة العطرة» وترجم عشرات من الكتب العارية وأصدر أربعين كتابا عن رحلاته. وأصدر أربعة كتب عن الشعر اللاتينى وأربعة كتب عن الشعر البرتغالى. وكتب ترجمة لحياته فى ألف صفحة وعندما أحس ريتشرد برتون أن نهايته قد دنت جلس فى بيته يترجم ويكتب عن الأدب الجنسى. وكانت فلسفته فى ذلك: أن الرجل المتقاعد يجب أن يحرك خياله. فالخيال أسرع من القدمين واليدين والعينين وأنا أستطيع بخيالى أن أفتح كل باب مقفل.. وكل قلعة حصينة وكل قلب من حديد..

ومنذ أيام صدر كتاب هام عن حياة ريتشرد برتون بعنوان

«رجل يقوده الشيطان» لكاتبة إنجليزية اسمها السيدة برودى.

ومؤلفة هذا الكتاب مفتونة بشخصية هذا الأديب الإنجليزى، ومعجبة بروحه الشريرة. ومعجبة أكثر بمغامراته الجنسية. فلم تكن له أية مغامرات عاطفية. لأن الحب صناعة العاطلين.. أما الجنس فصناعة الهاربين من عذاب الحياة وعذاب الضمير. وكان هو هاربا طوال حياته. هاربا من نفسه ومن غيره. ولم يجد نفسه إلا فى أحضان؛ تحريضا على الرذيلة.. ولكن هذا الرجل قد أدى خدمة جليلة للأدب العربى ولا شك. فترجمة ألف ليلة وليلة ليس بالعمل السهل، ولا يمكن أن يكون الدافع إلى هذا العمل الضخم شريرًا. فليست «ألف ليلة وليلة» شرا كلها ولا هى الرذيلة حيث العرق والاحتقار والحيوانية وإنما هى وثيقة تاريخية للأدب والفكر والحياة الاجتماعية فى مرحلة من مراحل المعاناة العربية من النيل إلى الفرات.

وإذا كان ريتشرد برتون شريرًا فى حياته، فإنه فى أعماله الأدبية هذه لم يكن شرا كله. وإنما له قوة الشياطين الذين نقلوا عرش بلقيس من اليمن إلى القدس.. فهو أيضًا قد نقل عشرات الألوف من الصفحات العربية والهندية إلى اللغة الإنجليزية.. وليس هذا شرًا، وإنما هو خير كثير!

شكوى لغير الله!

ليست هذه شكوى لرئيس مؤسسة مصر للبترول. فالذى حدث: هو عقوبة أستحقها! وأنا أستحقها لأننى حسن النية.. اكتشفت بالأمس فقط أننى أتعامل مع الذين يسيئون إلى مؤسسة مصر للبترول.. يسيئون إلى مصر كلها.. وإلى كل ما هو قطاع عام - مع الأسف الشديد!

فقد اعتدت أن أذهب بسيارتى إلى محطة مصر للبترول على شارعى عدلى وثروت. وهى أكبر محطة من نوعها فى القاهرة. لأن هذه المحطة فى مكان متوسط، وقريبة من كل المكتبات التى أتردد عليها.. ولأن عددًا كبيرًا من الملاحظين بالمحطة كانوا تلامذتى فى الجامعة.. واعتدت أيضًا أن أترك السيارة للمحطة لأتسلمها بعد ساعتين مغسولة مليئة بالزيت والشحم وهو إجراء مألوف وعادى جدًا.

وأمس فقط فوجئت بأن رائحة كريهة تنبعث من السيارة. ولجأت إلى معلوماتى الأولية واستنتجت أنه لابد من وجود عيب ما. وقد يكون هذا العيب فى الزيت. ومددت يدى أكشف عن الزيت.. واكتشفت أنه فى لون الطين.. وهذا شىء لم يحدث لى قط. لأن المسافات التى أقطعها يوميا «قصيرة جدًا» ولأننى أعرض سيارتى بانتظام على محطة التشحيم.. ولجأت مرة أخرى إلى معلوماتى الأولية.. واكتشفت أن هذا الزيت لم يتغير منذ شهرين..

وذهبت إلى إحدى محطات التشحيم وسألت العارفين ببواطن السيارات والمحطات فقالوا: إن هذا الزيت لم يتغير منذ ثلاثة شهور!

ومعنى ذلك أننى ذهبت إلى محطة مصر ثلاث مرات متوالية. ودفعت ثمن تغيير الزيت. ولم يتغير هذا الزيت فى المرات الثلاث.

وأنا لا ألوم إلا نفسى. وأنا أستحق هذه العقوبة التى لا أعرف كم تكلفنى، فقد احترق موتور السيارة. ولا يمكن أن تكون تكاليف الموتور إلا بضع مئات من الجنيهات سببها «قلة ذمة» بعض الذين نحسن الظن بهم.. بعض الذين نعطيهم مصائرنا ومصائر ما نملك.. وسمعة بلدنا.. وسمعة الإدارة.. وممارسة مبادئ الاشتراكية.. والتجربة الاشتراكية كلها!

وأنا متسامح فيما أصابنى.. ولكن الشكوى لرئيس مؤسسة مصر للبترول هى باسم عشرات الألوف من المواطنين الذين يحسنون الظن.. أو الذين يضيق وقتهم عن الانتظار بالساعات إلى جوار سياراتهم.. والذين يؤمنون بأن هناك ضميرًا.. مع أن معلوماتنا الأولية عن الضمير أنه جهاز إلكترونى غريب موجود تحت الجلد.. تحت كل خلية من خلايا الجلد والمخ والقلب.. إننى أرفع شكواى واحتجاجى بالنيابة عن الناس الطيبين الذين سوف تحترق موتورات سياراتهم، ويتهمون الظروف، ويتهمون المطبات فى الشوارع ويتهمون نقص قطع الغيار ويعلقون خرزات زرقاء خوفا من الحسد.. مع أن الذين يجب أن يعلقوا فى أعمدة محطة مترو: هم بعض موظفيها!

مفاجأة!

من الذى يقرأ طه حسين؟

كانت مفاجأة لنا - أو على الأصح لى أنا وحدى - عندما أعلن أحد المتقدمين لامتحان الإذاعة أنه لم يقرأ سطرًا واحدًا لطه حسين. وكان هذا أمام لجنة مكونة من د. مهدى علام وعبدالحميد الحديدى ومحمد محمود شعبان وأنا. وأقول كانت مفاجأة لى لأن الزملاء أعضاء اللجنة شاهدوا هذا الموقف قبل ذلك منذ عدة سنوات. وأنا أؤكد لنفسى ولغيرى أنها مفاجأة. لأننى لا أتصور أن أحدا من المشتغلين أو الدارسين للأدب الإنجليزى أو الفرنسى أو العربى طبعًا فى بلدنا لم يقرأ لطه حسين. وليس من الضرورى أن يكون قد قرأ كل أعمال طه حسين.. فكتاب أو ثلاثة كتب تكفى لأى مثقف متخصص فى غير الأدب العربى.

ولكن الطالب الذى لم يقرأ لطه حسين هو خريج قسم اللغة الإنجليزية، أى قسم الأدب الإنجليزى. أى إن له اهتماما أدبيا خاصا، ولابد أن يكون له اهتمام أدبى عام. ولا يمكن أن يكون الأدب العربى مستبعدًا من اهتمامه ولكن هذا ما حدث. وأمام دهشتى حاول الطالب أن يجد أسبابا عائلية منعته من قراءة كتب طه حسين أو شىء لطه حسين. ويبدو أن هذه الأسباب العائلية قد أقنعته بألا يذهب إلى مكتبة عامة ويستعير كتابا لطه حسين أو عنه. ولم أقتنع.. ودهشتى لم تقنع الطالب بأنه إنسان

غريب. أو أنه شاذ. ولما لاحظت أنه لا يعرف بالضبط كم عدد سكان القاهرة ولا كم عدد سكان الإسكندرية ولا عدد أعضاء الجامعة العربية.. اندهشت لنجاحه فى الإعدادية. أما نجاحه فى الليسانس فأترك الدهشة لغيرى.. أما حرص هذا الطالب، بعد ذلك، على أن يكون مذيعا أو محررًا بقسم الأخبار فى الإذاعة. فشىء يبعث على الدهشة العامة.. دهشتنا جميعًا!

آيات من سورة الإسراء

قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

عند هذه الآيات الكريمة وقف طويلا المؤرخ الروائى عبدالحميد جودة السحار. واستعرض تاريخ بنى إسرائيل منذ انهدم عليهم المعبد أول مرة فى عهد بختنصر قبل الميلاد بخمسة قرون. ثم عندما انهدم عليهم المعبد مرة ثانية بعد الميلاد بسبعين عامًا. وظلوا بعد ذلك مشتتين فى الأرض يحلمون ببناء هذا المعبد من جديد. وقد لاحظ السحار أن اليهود دخلوا المسجد

أول مرة فى عهد الملك الفارسى قورش.. ثم هذه المرة بعد العدوان الثلاثى الجديد.. والآيات الكريمة تتوعد اليهود بالدمار والخراب بعد ذلك، لأنهم سوف يفسدون فى الأرض. كما أفسدوها وأفسدوا فيها قبل ذلك. ويلتفت السحار أيضًا إلى «بروتوكولات حكماء صهيون» وكيف طبقها اليهود حرفيا فى كل العصور، مستخدمين المال والجمال.. الفلوس والجنس - قصة الفتاة استر التى قدمها اليهود لأحد ملوك الفرس، ثم جعلوها قديسة بعد ذلك!

ويختم السحار كتابه الجديد «وعد الله وإسرائيل» بأن سيناء سوف تكون مقبرة لإسرائيل، إذا ما تمسك المسلمون بكلمة الله واتباع منهجه واجتهدوا وبذلوا العرق والدم.. فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».

أساس علمى لثقافتنا

ثقافتنا المعاصرة - التى تمتد جذورها إلى القرن التاسع عشر، سواء كانت بعثا للتراث أو استيعابا للثقافات الأجنبية - وصلت اليوم إلى مرحلة تحتاج من جميع المهتمين بها إلى وقفة علمية ذات وجهين: وجه إحصائى ووجه تاريخى.. فنحن فى سوق الثقافة أشبه بالتاجر الذى لا يخلو إلى نفسه لحظة آخر النهار ليقوم بعملية جرد يحسب فيها مكاسبه وخسائره. حقا هناك محاولات فى هذا الطريق، لكنها يجب أن تلقى للتعريف والتشجيع حتى تستمر فى أداء رسالتها كالمجلات والدوريات التى تقدم للقارئ العربى المقالات والقوائم الببليوجرافية فتتابع أولا بأول ما تنشره مطبعتنا فى مختلف فروع المعرفة. هذه الجهود الإحصائية يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع إنتاجنا الثقافى حتى لا يظل مبعثرا يفتقر إلى التنسيق، مما يتسبب عنه جهد كبير لا يخلو فى النهاية من ثغرات. فيتحول الجهد إلى مجرد اجتهاد.

أما الوجه الآخر فهو التأريخ. والتأريخ هنا معناه خلق الذاكرة لإنتاجنا الثقافى. وهو ليس مجرد تسجيل لنشاط متتابع فى الزمن، بل هو لون من ألوان النقد: تقييم وإبراز للاتفاق والاختلاف والمدارس والاتجاهات والتأثر والتأثير.. ولعل الأدب أحسن حظا من غيره، فهناك من أرخ لتطور الرواية أو القصة

القصيرة فى مصر، وإن كانت وقفتهم على بعد أربعين أو ثلاثين سنة من حاضرنا. بل هناك محاولات تبذل فيما يقدم من رسائل جامعية أو فيما يلقى من محاضرات بمعهد الدراسات العربية للتأريخ لهذه الفنون الأدبية فى مختلف البلاد العربية.

أما مسرحنا فليس هناك إلا كتاب يتيم وقف عند الحرب العالمية الأولى، والفنون التشكيلية لم تحظ إلا بكتاب موجز أشد الإيجاز. بينما تنتظر بقية فنوننا الجميلة من يخلق لها الذاكرة كالسينما والعمارة والموسيقى. كذلك ما نطلق عليه مجموعة العلوم الإنسانية كالفلسفة وعلم الاجتماع.. إلخ بالإضافة إلى مساهماتنا فى مجال العلوم البحتة.

ولاشك أن دوائر المعارف العامة والمتخصصة ستلبى حاجة أساسية فى هذا المجال، لأنها ستمصر إنتاجنا الثقافى ممثلا فى أفراده البارزين، وفيما تؤرخ له كلما عرضت لجانب من جوانبه، وفيما تثبته من مراجع فى نهاية كل مادة. وغياب هذه الموسوعات معناه فقدان للعمود الفقرى لثقافتنا المعاصرة، أى إننا لانزال نعيش ثقافيا فى مرحلة ما قبل الفقريات.

إننا نرجو وندعو أن نتضافر أفرادًا وهيئات فى سبيل هذه الوقفة العلمية عند إنتاجنا الثقافى المعاصر، على نحو ما فعل أجدادنا بالنسبة لتراثنا، فنواصل ما بدءوه. وإلا فإن ما يكون اليوم ميسورًا، قد يتعذر غدًا تحقيقه. وما لم نبادر إلى القيام به فسيقوم به غيرنا كالمستشرقين والأجانب، ممن قد يحيطون بثقافتنا من حيث الشكل، لكنهم يعجزون عن النفاذ إلى سرها وروحها.

آخر الغاضبين

آخر مسرحيات الغضب..

الكاتب الألمانى رولف هوخهوت يصفه النقاد بأنه ضمير أوربا المعذب.. والذى يحاول أن يجعل عذابه الخاص جحيمًا شعبيًا. لقد كانت مسرحيته الأولى «النائب» هجومًا عنيفًا على البابا بيوس الثانى عشر لأنه وقف إلى جوار هتلر ضد اليهود. وكانت حجة البابا أن هتلر واليهود أعداء المسيحية، ولكن هتلر أقوى..

أما مسرحيته الثانية المعروضة فى لندن الآن فهى «الجنود»، وهى من ثلاثة فصول فصلان على ظهر بارجة بريطانية ثم فى غرفة نوم تشرشل بمقر مجلس الوزراء. وهو فى هذه المسرحية يتهم تشرشل بأنه ألقى القنابل على المدنيين فى ألمانيا.. وأنه هو القاتل الحقيقى للجنرال البولندى سيكوزسكى الذى كان عدوا للسوفيت، و هاربا منهم ولاجئا فى فرنسا وبريطانيا.. وقد تخلص تشرشل من الجنرال البولندى كعربون للصداقة البريطانية السوفيتية.. فقد اتفق تشرشل مع قائد الطائرة على أن يسقطها بالقرب من جبل طارق. مات الجنرال ونجا الطيار الذى ظهر فى التليفزيون الفرنسى يؤكد أن الحادث قضاء وقدر. وليؤكد المؤلف الألمانى أن هذه كذبة تدل على مدى إخلاص الطيار لتشرشل، وعلى شىء أهم من ذلك أن تشرشل أسطورة وأن هذه المسرحية محاولة للقضاء عليها.

وأعظم تحية وجهت للمسرح هى رفض الهيئات الرسمية والرقابية فى بريطانيا عرض هذه المسرحية. وقال الرقيب العام: لو كانت كتابا ما عارضناها.. لكنها مسرحية.. أى محاكمة وإدانة ومناقشات فى كل بيت واستئناف للمناقشات فى الصحف والإذاعة والتليفزيون. واستشعرت المسارح الحرج الشديد إذا لم تعرضها.. عدم عرضها يتنافى مع حرية الرأى.. ويؤكد أن شخص تشرشل مصون لا يمسه بريطانى أو ألمانى. ولذلك سارعت فعرضتها. وأقبل الناس يتفرجون على عمل مسرحى ممتاز مشحون بالنصوص والأرقام. وإذا كانت هذه المسرحية تهز من شخصية تشرشل الذى هو تجسيد للتاريخ الحديث، فإن هذا التجسيد يؤكد عيبا فى المؤلف وفى الألمان عموما: هو إيمانهم الأعمى بكل رجل عظيم.

ومن أهم ملامح الفكر الإنسانى بعد الحرب العالمية الثانية هو: الغضب.. فالمفكرون غاضبون على الإنسانية.. ولكن الإنسانية لم تغضب.. إنها تذهب وتتفرج على الغاضبين وتصفق لهم وتشجعهم فى كل مسارح أوربا وأمريكا.. فالإنسانية لا تحترم قاتليها ودافنيها.. وإنما تحترم من يهزها ويثيرها ويفتح بالغضب عينيها، وبالسخط عقلها، وبالإيمان قلبها بعد ذلك!

خياله وقع!

إنها أحلام الصغار

الذى تخيله هـ. ج ولز من خمسين عامًا، أثبت العلم الحديث أنه قريب من الواقع. وأن الفرق بين ما رآه الكاتب الكبير وبين ما يصممه العلماء هو خلاف على التفاصيل.. وكذلك ما تنبأ به الكاتبان الكبيران: ألدوس هكسلى وجوليان هكسلى فى مجالات العلوم والعلاقات الاجتماعية تحقق بعد ذلك بسنوات وما كان يحلم به جورج أورديل فى عالمه المثالى بكل أشكاله المفزعة أصبح قريبًا من التحقيق مع الأسف.

ولا يبعد أن نحقق صورة الإنسان كما تخيله برناردشو فى مسرحية «العودة إلى متوشالح» فالعلم يؤكد أن رأس الإنسان يكبر قليلاً عما كان عليه من ألوف السنين.. وأن أطراف الإنسان تصغر وتقصر نسبيا.. وأنه لا يبعد مستقبلا أن يكون أكبر ما فى جسم الإنسان رأسه - وأن يولد الطفل وعنده تجارب شاب فى الخامسة عشرة. العلم الحديث يؤكد أنه فى الإمكان «استزراع» الذكريات والتجارب الإنسانية باستخدام المادة السنجابية الموجودة فى المخ - التجارب التى أجريت على الفئران تبشر بذلك!

أغرب ما اكتشف فى الأسبوع الماضى وفى التليفزيون الفرنسى أن أحد أحفاد الأديب الفرنسى جيل فرن قد اكتشف أن جده قد تخيل السفن المسافرة من الأرض إلى القمر فى كتاب له

بعنوان «من الأرض إلى القمر» وقد وصف بالأرقام شكل ووزن وسرعة السفينة التى سيطلقها الإنسان إلى القمر. فقال: «سوف تكون من الألومنيوم وتنطلق بسرعة قدرها ٤٠ ألف كيلو متر فى الساعة، أما طولها فسيكون ٣٦٥ سنتيمترا، ووزنها ٤٣٤٧ كيلو جراما».

أما مواصفات السفينة أبولو ٨ فهى: من الألومنيوم وسرعتها ٣٨٧٢٠ كيلو مترا فى الساعة وطولها ٣٦٥ سنتيمترا ووزنها ٥٦٢١ كيلو جراما أما المناسبة التى أعلن فيها حفيد الكاتب الفرنسى، فهى أنه سئل فى أحد البرامج: وما قيمة هذه القصص الخرافية التى يكتبها الرجال للصغار؟ وكان جوابه يجب أن نطلق خيال الأطفال.. يجب أن يصنع الكبار ريشا لأجنحة الصغار.. فبغير خيال الصغار، وأحلام الكبار، لن يحقق - ولم يحقق - للإنسانية شىء.. لا على الأرض ولا على القمر، دعوهم يحلموا وينعموا فليس الواقع إلا أحلام الصغار وقد تحققت!

ذلك المجهول

ليس مثل الكتاب الذى أصدره د. كمال نشأت عن «مصطفى صادق الرافعى». وإنما أتمنى أن يصدر كتاب آخر أشمل وأعمق.. فقد تمنيت أن أرى دراسة عن الرافعى. عنه هو وعن أدبه وعن أسلوبه وعن عصره. وعن الظلم الواقع عليه وكيف أنه شجع على الظلم. وكيف كان يغرى الأدباء بأن يظلموه ليشكوهم ويشكو منهم.. ثم يصب غيظه عليهم وعلى الأيام.. وطلبت إلى أبناء الرافعى أن يساعدوا النقاد والمؤرخين على أن يعيدوا صورة الأديب الكبير ويرفعوها فى مكانها اللائق بها فى الأدب الحديث.. وقد وعد أبناؤه بأن يقيموا عيدا ومهرجانا وتمثالا فى طنطا، ليتمكن الفنانون والمؤرخون من دراسته والإضاءة له والإضاءة به أيضًا!

وليس كما فعلت الدكتورة نعمات فؤاد فى كتابها «دراسة فى أدب الرافعى» فقد كانت قاسية عليه.. وقد عابت عليه أنه ضعيف.. وهذا العيب تحية مزدوجة.. فهى تحية له أنه ضعيف، لأنه فنان.. ولأنه إنسان.. وتحية لأنها تصوره فى لحظة أنه ليس بشرًا!

ولكن الرافعى - وكل فنان - فيه حقيقة وفيه وهم.. يستعين على حياته بالعقل، وعلى حبه بالخرافة.. وكان الرافعى يستعين بالجن والشياطين على محبوبته مى.. وكان الرافعى - وكل إنسان

- على درجة من الغرور.. فهو يقدر نفسه ما دام أحد لا يقدره.. وهو يقول عن نفسه: أنا عظيم جدًا. ما دام لا يسمعها من أحد! وكأن الرافعى قد عاش عمره كله ليستمع إلى عبارة قالها سعد زغلول عندما وصف أسلوبه بأنه: تنزيل من التنزيل.. وربما كان سعد زغلول مجاملا. ولكن الرافعى التقط هذه العبارة وملأ بها صدره وعقله ولم يعد يقنع من أحد من النقاد أو المعاصرين أن يصفه بما دون ذلك.. معذور!

وكتاب د. كمال نشأت ليس الكتاب الذى نتمناه. ولكنه وعد بذلك.. وعد يفى به المؤلف نفسه أو غيره من المؤرخين. فالكتاب قد أشار إلى كثير. ولكنه لم يقل الكثير عن الرجل ولا عن المعانى الكثيرة التى اضطرمت واضطربت فى نفسه.. والتى خبرها وهزته ثم اقتلعته من الحياة الاجتماعية والأدبية فى عصره..

وكل ما فعله د. كمال نشأت فى كتابه الصغير هو أنه اقتلع شجرة الرافعى.. ووضعها غصنا إلى جانب غصن.. ثم ورقة إلى جوار ورقة. وقال: هذه هى كل الشجرة.

لقد صدق. هذه كل الشجرة ولكنها ليست شجرة!

الشيخ سلامة

الذين يكتبون التأريخ لموضوع علمى يخافون أن يجىء التاريخ جافا. ولذلك يرفعون درجة حرارة العبارة ويستعيرون أساليب الأدباء ورجال الأخلاق. فيجىء الكتاب التاريخى عملا أدبيا فنيًا. وبذلك يستطيع أقل الناس تخصصا أن يقرأ هذا الكتاب. وفى نفس الوقت لا يقسون على المتخصصين. فالذين يكتبون عن الموسيقى يقتصدون فى نشر النوتة الموسيقية.. والذين يكتبون عن الرياضيات يقتصدون فى نشر المعادلات.

والكتاب الذى أصدره الدكتور محمود أحمد الحفنى عن «الشيخ سلامة حجازى - رائد المسرح العربى» نموذج لهذا الموقف الذى يتخذه المؤرخون.. فالموضوع فنى متخصص. والمؤلف يريد أن يعرض الحياة الفنية للشيخ سلامة حجازى. وهو لابد أن ينشر تطور الموسيقى والغناء عنده.. ومن الضرورى أن يلجأ إلى النوتة الموسيقية وأن يناقش أساليبه اللحنية.. والحقيقة أن الدكتور الحفنى لم يضايق القارئ غير المتخصص بالمصطلحات الفنية ولا بالنوتات الموسيقية.. وإنما ساق التاريخ والأغانى أمامه فى كل الفصول. وبارك الشيخ سلامة حجازى فى كل الصفحات. فهو يرى أن الشيخ سلامة كان من بيئة طيبة متدينة.. وأن الصفاء النفسى هو صورة للصفاء الاجتماعى. وأن التماسك الإبداعى، هو صورة للتماسك العائلى.

ولقد أعرب الدكتور الحفنى عن امتنانه ـ بحسن نية ـ لأن اسم الشيخ سلامة حجازى قد أطلق على شارع اسمه شارع الحوض المرصود، ولا يمكن أن يكون هناك فساد فى الذوق أكثر من اطلاق اسم هذا الفنان الكبير على شارع له دلالة شائنة.

والعيب الوحيد الذى آخذه على الدكتور الحفنى ـ رغم أن الكتاب وثيقة تاريخية وفنية مفيدة ـ هو أن المؤلف قد نظر إلى الموهبة الفنية على أنها مكافأة أخلاقية على حسن السير والسلوك اللذين اتصف بهما الشيخ سلامة وأسرته. مع أن الموهبة الفنية الفريدة ليس لها تفسير.. وكان من الممكن أن تولد فى بيئة فاسدة منحلة.. ولكن الموهبة نفسها ضد الفساد والانحلال لأنها تقوم على التماسك والتكامل والإبداع.. فالموهبة تضىء وتضيف.. وقد أضاء الشيخ سلامة للمسرح وعلى المسرح.. وأضاف أكثر مما جاء فى كتاب الدكتور الحفنى.. أضاف إلى المصريين أبناء الشعب رصيدًا من الشجاعة على الخلق، وعلى أن يتجاوزوا حدود الإقليمية والقومية إلى عالمية الفن والإبداع الفنى!

هذا الكتاب تحفة أدبية!

صدر الجزء الأول

من أعظم كتب التاريخ!

من مائتى سنة صدر أعظم كتاب فى التاريخ العام واسمه «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» للمؤرخ إدوارد جبون. ترجمة محمد على أبو درة ومراجعة وتقديم أحمد نجيب هاشم.. والإنجليز يرون أن جبون هذا أعظم من المؤرخين ماكولى وكارليل وفرود وريتشارد جرين. وكثير من كتب تاريخ الأدب تتحدث عن المؤرخ جبون باعتباره من أصحاب الأساليب فى الأدب. وهو بالفعل صاحب عبارة قوية مليئة ساخرة.

والمؤرخ جبون قد ولد فى عصر الموسوعات وعصر الشك. وهو من المؤكد أنه ابن عصره. فقد تحير بين المذاهب المسيحية، كما احتار بين المسيحية والإسلام أيضًا. واختار المسيحية، وقد أتعب والده فى جميع الأحوال. وبعث به أبوه إلى سويسرا يدرس ويحب ويتقدم لخطبة فتاة.. فاعترض أبوه. وتزوجت الفتاة وزيرا فرنسيا وأنجبت الأديبة مدام دى ستايل المعروفة.. ويقول جبون: عندما طلب منى أبى أن أعدل عن هذا الزواج تنهدت كعاشق وأطعت كطفل!

وقد صدر الجزء الأول من هذا العمل التاريخى العظيم ومن ترجمة محمد على أبو درة وتقديم ومراجعة أحمد نجيب هاشم. والكتاب كله يتحدث عن ١٤ قرنا من تاريخ الإمبراطورية منذ

قيامها حتى انهارت وفى نفس الوقت يتعرض للدول التى كانت على حدود الإمبراطورية.

ويناقش المسيحية التى قوضت الإمبراطورية، فأغضب بذلك رجال الدين فى عصره.. ويتعرض للإسلام والصفحات التى كتبها عن الرسول عليه السلام من أقوى وأروع ما جاء بقلم رجل أوروبى ولد ومات فى عصر فولتير وديديرو وكوندروسيه ورسو وكان المؤرخ العظيم جبون ١٧٣٧ - ١٧٩٤ مريضا طوال عمره، ويبدو أن إخوته الستة قد ماتوا فى سن مبكرة بسبب الضعف العام.

وقد أقعده مرضه عن الانتظام فى الدراسة.. فقرأ كثيرًا جدًا فى الفراش. وكان بدينا يشكو من النقرس. ويشكو من آلام حادة فى جانب من الرأس. واشتغل بالسياسة عضوًا فى البرلمان.. ثم عاد إلى سويسرا ليكتب وليموت.

والاكتشافات الحديثة بعد جبون لم تغير الكثير من نظراته النافذة الثاقبة فى فهم التاريخ ومتابعة مساراته المختلفة.

ولاشك أن نقل هذا العمل الهائل إلى اللغة العربية حتى عن نسخة منقحة، جهد عظيم يستحق التقدير وقد استطاع المترجم محمد على أبودرة أن يستبقى للمؤلف الكبير عبارته المليئة بالحيوية والذكاء والسخرية.. ونحن نتطلع إلى صدور بقية هذه الموسوعة الأدبية التاريخية.

فهى نموذج للنظرة العميقة والعقلية المستوعبة.. ونموذج «لتأديب» التاريخ!

رائد القصة القصيرة!

نشرت «أخبار الأدب» أن الأديب على كامل فيضى قد اكتشف الأديب الفنان المرحوم محمود عزى كرائد للقصة المصرية. والحقيقة أن هذا الأديب لم يكن مجهولاً.

ولكنه كان ذا شهرة فى محيطه الأدبى وهو الذى ترجم مسرحية «غادة الكاميليا» ومثلت على مسارح مصر مئات المرات، وشارك فى تحرير مجلة «روز اليوسف» عند إنشائها وكانت تصدر أدبية، ونشر الكثير من القصص المؤلفة والمترجمة الأسبوعية وكان من أبرز تلامذة المدرسة الحديثة التى تضم القاص الخالد محمود طاهر لاشين وأحمد خيرى سعيد وإبراهيم المصرى وحسين فوزى والممثل العظيم أحمد علام وغيرهم من الأدباء الموهوبين.

ومشكلة محمود عزى الكبرى جاءته من اسمه فإن عمال جمع الحروف فى المطابع المصرية لم يكونوا يعترفون بهذا الاسم.

كان يوجد المرحوم الصحفى محمود عزى وهو ذو شهرة مستفيضة. فإذا كتب محمود عزى قصة أو مقالا نسبوه إلى محمود عزى..

وذات مرة أحبت إحدى المجلات الأسبوعية أن تصحح هذا الخطأ فجاء التصحيح كما يأتى.. «نشرنا فى العدد الماضى

مقالا عن الأدب المعاصر وقلنا إنه بقلم محمود عزمى.. والصحيح أنه بقلم محمود عزى».

ولقد سعدت بصداقة رائد القصة المصرية وكان أديبا ممتازًا وعلى خلق كريم ومن أقرب أصدقائه الأديب والصحفى الممتاز محمد على حماد وكنا نسهر معا فى «قهوة الفن» التى تقف فى وجه مسرح رمسيس «الريحانى الآن» - وكانا يسكنان متقاربين فى حى الجمالية - ثم نمضى فيقفان أمام محطة الأتوبيس وكان كلاهما ضعيف البصر وبعد قليل يقول حماد:

- أظن أن هذا هو الأتوبيس! ويتطلع محمود عزى إلى الطريق ثم يقول:

- أنا لا شايف أتوبيس ولا لورى.. وبعد ثوان يحضر الأتوبيس فيركبان إلى بيتيهما مع سلامة الله. هذا هو محمود عزى رائد القصة المصرية القصيرة، والكلام عنه وعن حياته يحتاج إلى مطولات..

أخطاء تلميذة!

هذا الذى اسمه:

معهد البحوث والدراسات العربية! وكان اسمه من قبل «معهد الدراسات العربية العالية» ولم يقنع بهذه التسمية، واعتبرها غير صادقة التعبير عن رسالته التى ينهض أو يريد أن ينهض بها، وأطلق على نفسه «معهد البحوث والدراسات العربية»، وأراد قسم الدراسات الفلسطينية برئاسة الدكتور إسحق موسى الحسينى تدشين هذه الأمنية، فأصدر رسالة موضوعها «أوراق فى القضية الفلسطينية» بقلم: تهانى سلامة هلسة. وهذه الأوراق التى قدمتها الطالبة عبارة عن بحوث طالبها بها الدكتور إسحق موسى الحسينى، وأعجب بها، وتقول الطالبة فى مقدمتها. «وأرجو القارئ الكريم أن ينظر إلى هذه البحوث بشىء من التسامح لأنها باكورة عملى، ولأنى كتبتها لأستاذى لا للنشر، وأن يسعنى بحلمه ويغفر زلتى».

وهذا القارئ الذى يقدم إليه الدكتور إسحق موسى الحسينى والطالبة تهانى سلامة هلسة يستولى عليه الفزع من هول ما تقع عليه عيناه فلا يجد منهجا للبحث ولا أسلوبًا فى الكتابة وجهلا بالعبرية وافتئاتا على الحقائق التاريخية.

فمن حيث المنهج فالطالبة تذكر فى الصفحات ١٢ و٢٩ و٥٣ مؤلفا يدعى «إليكس بين» وتستشهد بأقواله فى كتابه دون ذكر اسم هذا الكتاب. وفى الصفحة ٧١ تعرض للهستدروت وتقرر أن

هذا اللفظ هو اختصار للاتحاد العام للعمال اليهود، والواقع أن هذا اللفظ هو بعض الاسم الكامل «هستدروت هغو بديم» أى مؤسسة العمال.

أما عدم إلمام الطالبة والدكتور باللغة العبرية والتى هى حجر الأساس فى هذه الدراسات لغويا وأدبيا وعقائديا وتاريخيا فنتبينه من الأمثلة الآتية:

فى صحيفة ٣٠ جاء «وأهمها جمعية كاديما» والصواب «قدماء» أى إلى الشرق.

وفى صحيفة ٧٤ جاء «هادوت أفودا» والصواب «أحدوت عبودا» أى اتحاد العمل.

وفى صفحة ٨٠ جاء «فى الكيبوتز» والصواب «القبوص».. وفى صفحة ٩١ جاء «ورئيس الكهنة جشوا والصواب يشوع.. وفى صفحة ٩٤ جاء «الهاسمونيين» والصواب «حشمونايم» وفى صفحة ٩٨ جاء فى «جبنه» والصواب «يبنه» وفى صفحة ١٠٢ جاء «جوانا» والصواب «جاون».. وفى صفحة ١١٢ جاء «هاسيد» والصواب «حاسيد».

هذا قليل من كثير. أما الأسلوب العربى فركيك كما أن الحقائق التاريخية قد طمست تماماً وختاما أرجو إدارة معهد البحوث والدراسات العربية تلافى مثل هذا النقص للعلم والحقيقة العلمية ولسمعة المعهد العلمية. فهل من دقة البحث أن الطالبة تذكر ولا يتنبه الأستاذ فى صفحة ٢٥ «أخاف أن يصرخ واحد فى أعقابى ـ هيب هيب» «وهذه كلمة تقليدية يقصد بها احتقار اليهود ولا يعرف أصلها» وتذكر من مراجعها كتاب «من الأدب العبرى لى

معهد الدراسات العربية العالية». ورجعت إليه فى أكثر من موضع كما تدعى وتغفل عما جاء حول هذه الكلمة فى صفحة ١٠ حيث يذكر كلمة هب مختصر عبارة «هيروشيليما است برديتا» أى سقطت أورشليم.

الإنسان مهموم بالموت

.. كما يخرج المنديل الحرير من الجيب الصغير!

عند ولادة أى طفل لا تستطيع أن تتنبأ له بأى شىء.. لا بأنه سوف يعيش طويلاً أو قصيرًا.. غنيًا أو فقيرًا.. أميرًا أو خفيرًا. ولكن تستطيع أن تتنبأ له وأنت فى غاية الاطمئنان بأنه: سوف يموت!

لا أحد يستريح إذا قيل له أنه سيعيش ويموت كأى كلب؛ لأن الإنسان يريد أن يتصور أنه شىء مهم جدًا. فى بيته وفى عمله وفى هذه الدنيا. وأنه يملأ فراغا هاما. وأنه إذا اختفى اختفت النواة التى تسند الزير.. والإنسان حريص - وهو حى - على أن يستمع إلى ذلك وإلى من يقول له ذلك.

ولكن بعد أن يموت، فهو لا يعرف ما الذى يحدث له.. أو لغيره.. أو لسيرته.. ولكن من المؤكد أنه لا يدرى شيئًا إذا أهانه الناس أو كرموه.. ولا كم عدد الناس الذين يذكرونه. ولماذا؟ وأين؟ ولا كم عدد الذين يلعنونه ويلعنون اسمه وجسمه، وسيرته وصورته.. ولا شىء يبقى بعد أن يموت أو تموت.. أو أموت.. «أرجو أن تلاحظ أننى ذكرت موتى أنا بعد موتك أنت، فأنا أيضًا أريد أن أعيش بعدك ولو لحظة؟!».

وأن يموت الإنسان فى فراشه هو أهدأ أنواع الموت، ولكن هناك الموت بالإكراه. أى القتل. والقتل الفردى جريمة. والقتل

الجماعى ليس جريمة، فقتل الإنسان أثناء الحروب ليس جريمة. لأن الحرب إرادة عامة، وكل ما هو إرادة جماعية شعبية هو حق. ولذلك فالقتل أثناء الحرب لا يعتبر جريمة.

وكانت المسيحية فى عصورها الأولى تحرم القتل حتى أثناء الحرب - ثم عدلت عن ذلك.

وكان اشتراك المرأة فى الحروب حرامًا، ثم عيبًا، ولكن قتل المرأة أثناء الحرب لا هو حرام ولا عيب.

وكان من الضرورى أن يرتدى المقاتلون ملابسهم العسكرية ونياشينهم أيضًا. كما حدث فى القرن الخامس عشر فى إيطاليا قبل غزو فرنسا لإيطاليا سنة ١٤٩٤.. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبل غزو الألمان لبلجيكا سنة ١٩١٤.

ومنذ نهاية الحروب الدينية فى أوربا حتى الحرب العالمية الأولى كانت المعارك مباراة فى القتل بين رجال يرتدون الملابس العسكرية. ولا دخل للمدنيين فى هذه المباراة ولكن بعد حروب القرن التاسع عشر أصبح من المألوف أن القوات العسكرية عندما تستولى على قلعة أو مدينة تنهبها وتعتدى على أهلها.. وأوضح نموذج لذلك ما فعله الإنجليز عندما احتلوا مدينة باداخوس الأسبانية يوم ٦ ابريل سنة ١٨١٢.

ويمكن أن يقال إن حروب القرن السابع عشر لم تكن دينية.. وإنما ضد الدين.. وحروب القرن الثامن عشر كانت نوعًا من الهوس.. ولكن الأسباب الحقيقية اقتصادية.

وجاءت الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية تحاولان سد الفراغ الدينى العميق.. وجاءت هذه الثورات الشعبية فى قوة

الحروب السابقة على ظهور المسيحية عند الرومان والإغريق والسومريين - أى العراقيين القدماء - والصين.

ويمكن أن يقال الآن أن ٩٠٪ من الحروب الحديثة والتى تمثل ٩٠٪ من الكرة الأرضية لأسباب قومية. والقومية هى الدين الجديد الذى استولى على الفكر الإنسانى..

ولقد صدم العالم كله فى أغسطس سنة ١٩١٤ عندما ضرب الألمان المدنيين وصدم العالم مرة أخرى عندما ضربت مدينة جورنيكا الأسبانية من الجو يوم ٢٦ إبريل سنة ١٩٣٧.

وأصابت القنابل العسكريين والمدنيين من النساء والأطفال!

والمصيبة الكبرى الآن: أن مذابح الحرب العالمية الثانية لم تعد تهز أعصاب الشعوب الآن. فالذين يشاهدون التليفزيون والسينما فى الدنيا يرون أفلام رعاة البقر. وأفلام الحروب جنبا إلى جنب ويعجبون بالمعارك التى يقوم بها رعاة البقر. وإن كانوا يعلمون أنها تمثيل فى تمثيل.. ولا تهزهم أفلام الحرب فى فيتنام مع أنهم يعلمون أنها حقيقة!

إنها كارثة كبرى أن يتفرج الأطفال على هذه المعارك ولا تهزهم. ولا تفزعهم ولا تخيفهم من الحرب.. ومن المألوف أن يصابوا بشىء من البلادة. ومنظر الأطفال الصغار وهم يشربون اللبن ويأكلون السندوتش والدماء تسيل على الشاشة يجعلنا نتساءل: ما هذا الذى يشربه الأطفال؟ ما هذا الذى يأكله الأطفال؟ ما هذا الذى نلقنه للأطفال؟

ومن العدل أن نقول إن كل الشعوب التى ساهمت فى الحرب العالمية الأولى كانت أقل حرصًا على الاشتراك فى الحرب الثانية..

الإنجليز كانوا أكثر من الفرنسيين ترددًا فى دخول الحرب! والإيطاليون أيضًا لولا موسولينى! والألمان كذلك كانوا أقل رغبة من الجميع رغم كثرة ضحاياهم فى الحرب العالمية الأولى. ولكن الألمان كانوا متعطشين للانتقام، ومتعطشين أكثر للانتصار!

وكان الفرنسيون والإيطاليون أول من انهزم!

ولكن الروس والألمان والإنجليز صمدوا حتى النهاية!

أما الأمريكان فكانوا يتحرقون للانتقام من هجوم اليابان على ميناء بيرل هاربور وإحراق الأسطول الأمريكى وبعد أن أسقط الأمريكان قنابلهم الذرية على اليابان لم يعد ذلك السلاح التقليدى الذى استخدمه الإنسان فى القتال ألوف السنين سلاحًا قاتلاً.. وإنما أصبح سلاحًا انتحاريًا.. ففى الحرب النووية لا غالب ولا مغلوب.. فالكل فى الفناء سواء!

والموقف العالمى الآن أن هناك سياسة عريضة هى توازن القوى بين أمريكا وروسيا وسياسة توازن القوى هى نفسها السياسة التى أدت إلى انقراض كثير من الحضارات فى التاريخ.. وقد رأينا ذلك فى حضارات المدن السومرية قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة. واليوم نجد أن فى العالم ١٢٥ دولة صغيرة أو متوسطة وهى جميعًا تحاول أن تمشى فى طريق الدولتين الكبيرتين. ومع الأسف لا نجد نجاحًا واضحًا.. ومحاولة التوازن بين أمريكا وروسيا تؤدى إلى أن تكون هناك نقط للمواجهة فيما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٦٧: فى برلين وكوريا وكوبا والشرق الأوسط.. ثم فى فيتنام.. والمواجهة فى فيتنام أكثرها خطورة لأنها ربما أدت إلى اشتراك الصين فى حرب طويلة الأجل أو حرب شاملة!

ومن المؤكد أن أمريكا وروسيا لا تريدان الاشتباك فى حرب ذرية أو حرب بالأسلحة التقليدية، لأن الحرب التقليدية من الممكن أن تؤدى إلى حرب نووية. وربما كانت أمريكا ذات مزاج ملتهب وتريد نوعًا من الحرب.. لكن من المؤكد أن الروس لا ينسون أن بلادهم قد هدمت ودمرت مرتين.. أما أمريكا فلم تعرف هذا الدمار إلا فى الحروب الأهلية فيما بين ١٨٦١ و١٨٦٥. ولا يزال الجنوب فى أمريكا ميالا إلى القتال وإشعال الحروب لأنه أكثر جهلاً. ولكن الرجل الأمريكى عندما ينظر إلى تاريخه يجد أنه سلسلة من الانتصارات الداخلية والانتصارات على بريطانيا وعلى ألمانيا.

وربما كانت حرب فيتنام هى الحرب الوحيدة التى تخوضها أمريكا بقوات من المتطوعين لا من المحترفين. ولذلك نجد عددًا هائلاً من الأمريكان على استعداد لأن يحارب ولأن يلقى بأبنائه إلى النار.. تمامًا كما كان أهل كنعان وأهل الأزتيك الذين يتبركون بالتضحية بأبنائهم على مذبح الإله مولوخ!

ولم يحدث أن أصيبت الإنسانية الحديثة بفزع على مصيرها كما حدث سنة ١٩٤٥ عندما عرفنا القنابل الذرية.. إن الإنسانية قد عرفت الموت من الوحوش ربما من ثلاثين ألف سنة. ولكن الإنسانية هذه المرة لا تخاف من وحوش.. وإنما تخاف من نفسها.. تخاف من الوحوش الإنسانية.. وتخاف من أسلحة جديدة متوحشة اسمها: الميكروبات!

ويبدو أن الإنسانية لم تفزع بما فيه الكفاية بما فعله هتلر فى مواطنيه وفى غيرهم، وما فعله المغول فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر. وما فعله تيمورلنك فى القرن الرابع عشر. ولذلك فالإنسان يفكر فى أسلحة أخرى أكثر وحشية وأكثر فتكا بالإنسان والحضارة الإنسانية!

** ومن الغريب أن الأدب والفن والفلسفة قد هونت على الإنسان حياته وموته.. ولذلك رأينا الناس يقبلون على أفلام وقصص الفزع.. ورأينا كاتبة كبيرة مثل أجاثا كريستى تنسج قصصها من أولها لآخرها لكى تجعل الموت حدثا محبوكا.. فالموت عندها مشروع.. أو خطة مدروسة.

والكاتبة الوجودية سيمون دى بوفوار عندما وصفت وفاة أمها فى مقال لها بعنوان «موتة هادئة جدًا» لم تبك على أمها ولا أنزلت دمعة واحدة.. وإنما ظلت تتفرج على أمها وتسجل ما ترى.. ولا فرق بين أن تكون هذه أمها وأم أية امرأة أخرى.. أو أنثى حيوان آخر!

والفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر قد قال عبارته المشهورة: إنما ولدنا لنموت. وكل إنسان يموت وحده. فالموت خاص بكل إنسان. وهو عام على رقاب العباد. ومن المؤكد أنه سيجىء. ومن المؤكد أننا لا نعرف أين ومتى وكيف.

ولا شىء أغرب من هذه العبارة: أنا أموت!

إن أحدًا لا يموت. وإنما كل إنسان يقدر له أن يموت. ومن الغريب أن يقول الإنسان: أنا آكل وأنا أشرب وأنا أموت - كأن الموت كالأكل والشرب فعل اختيارى.

وهنا فارق بين الموت وبين الوفاة فالموت هو حادثة. ولكن الوفاة تجربة.. عملية.. فالإنسان ينطلق عليه عيار نارى فيموت.

ولكن الوفاة هى أن يشعر بأنه سوف يموت.. أو فى الطريق إلى الموت.

والإنسان لا يخاف من الموت. وإنما يخاف من الوفاة.

ولكن عندما تجيء الوفاة فإن شيئًا غريبا يحدث للإنسان.. فكثير من الذين ماتوا انتهوا فى راحة وهدوء وأحيانًا فى سعادة وجاءت على ألسنتهم عبارات مثل: النور.. والعطر.. والراحة.. والملائكة.

ومن عجائب الموت أن كثيرين يدفنون وهم أحياء.. بسبب جهل الطبيب أو الحانوتى.. أو أهل المتوفى.. فقد نشر الطبيب جون برييه فى القرن التاسع عشر عن ٥٢ دفنوا أحياء.. وعن ٩٠ شهادة وفاة لأناس لم يموتوا. كما نشر أن عددًا من الحانوتية عندما ذهبوا يفتحون المقابر وجدوا الموتى قد نهضوا ثم تمددوا من جديد عند مدخل القبر!

ولندن لا تنسى الحادثة المشهورة، لطفل صغير ذهب للطبيب يخبره أن جده مات وذهب الطبيب ووجد الرجل ممدًا على السرير فكتب له شهادة الوفاة وتركها إلى جوار السرير ، وعندما ذهب الحانوتى وجد الرجل جالسًا على السرير يقرأ شهادة الوفاة، ويوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٦٧ نقلت إحدى الوحدات الطبية الأمريكية جنديا إلى المشرحة وفوجئ الأطباء بأن الجندى يتقلب حيًا بين الجثث! وفى مسرحية الملك لير للشاعر شكسبير يقول: أعطوها مرآة.. واجعلوا المرآة بالقرب من أنفها، فإذا ظهر على المرآة ضباب فهى لاتزال حية!! ولم يتسع وقت للأطباء والحانوتية لوضع المرآة عند أنف المريض أو المتوفى!

وفى سنة ١٨٨٤ نشرت المجلة الطبية «لانست» أن ألوفا من الناس قد دفنوا أحياء لا بسبب الكوليرا، ولكن بسبب إهمال الأطباء!

وهؤلاء المساكين لا ندرى عن مشاعرهم أثناء الوفاة.. كيف أحسوا وبماذا؟ إنهم ذهبوا. وسوف يذهب غيرهم.. وكل الناس!

ولكن من المؤكد أن هناك حالة غريبة شفافة نورانية صافية تملأ المتوفى.. تملأ قلبه أو عقله.. أو تجرده من جسمه وتجعله يسمو على كل شيء.. حتى على جسمه.

كثيرون من رجال الدين ومن الصوفية ومن الفلاسفة قد وصفوا هذه الحالة السابقة على الوفاة.

وقد نشرت صحيفة «التيمس» الإنجليزية بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٦٢ هذه الرسالة من أحد الجنود يصف فيها حالة غريبة وهو ممدد على فراش الموت.. وإن كان لم يمت بعد ذلك.. يقول: أصابتنى شظية من إحدى قنابل الألمان فى الصحراء الغربية. فسقطت على الرمال فاقدًا الوعى. وكان شعورى هو أننى بلا جسم. وأننى أشهد الموقعة كلها من فوق.. من أعلى.. فأرى الرمال وأرى جثتى.. وأرى الدماء تسيل مِنِّى.. وكأننى فوق الأرض بعشرين قدمًا. وكان فى استطاعتى أن أميز أصوات زملائى، وشكل الطائرات، والقنابل وفى استطاعتى أن أقول لهم بالضبط كيف كانوا.. وكان واضحا جدًا أننى أرى جسمى بكل دقة.. وكان لابد أن أعود إلى جسمى.. وعدت. وجدت صعوبة فى تحريك ذراعى وساقى.. وعينى.. وظللت جثة هامدة جامدة أسبوعين. وكان فى استطاعتى أن أحكى لزملائى بالتفصيل كل ما دار

حولى وحولهم فى تلك اللحظة.. فلم يكن هناك إلا الوضوح والصفاء وإلا... أنا هناك فوق.. كأننى بلا جسم!

أما أديب أمريكا أرنست همنجواى فعندما أصيب بجراح دامية عميقة قبل وفاته بسنوات فقد وصف إحساسه بالوفاة بقوله: إننى أحس كأن روحى منديل حرير يتسلل بخفة ونعومة من جيبى الصغير.

وأنت ما رأيك؟!

العلم نور.. واللعب أيضًا

فى المعرض الدولى ببروكسل سنة ١٩٥٧ عرضت روسيا نموذجًا صغيرًا لأول قمر صناعى.. وعرضت كلبة مشابهة للكلبة لايكا ومعها السيدة التى دربتها.. وعرضت أمريكا نموذجًا للإنسان الآلى وعرضت السينراما.. وألمانيا الغربية عرضت لوحة عليها أسماء خمسين فائزًا بجائزة نوبل.. وبلجيكا عرضت جناحًا للكونغو.. وهولندا عرضت جبالا من الجبن والزبد.. وفرنسا عرضت أجمل الأزياء والعطور.. وعرضنا نحن نموذجًا للمرور فى قناة السويس.

أما النمسا فقد عرضت شيئًا رائعًا لقد أقامت نموذجًا حيًا لإحدى دور الحضانة.. وأتت بأطفال صغار يتعلمون ويلعبون ويأكلون وينامون، ونحن نتفرج عليهم من وراء الجدران الزجاجية لعل النمسا ترى أن أعظم صناعة هى صناعة المستقبل والأطفال هم المستقبل.. أو لعل النمسا أرادت أن تؤكد لأبنائها أن أحدًا من أطفالها لن يتعذب كما تعذب الموسيقار العبقرى موتسارت.. أو لعلها قررت ألا يكون من أطفالها طفل يعيش مثل هتلر. لقد كانت طفولته قاسية مرة، وعلماء النفس يؤكدون أن هتلر لم يعرف اللعب.. لا اللعب الفردى ولا اللعب الجماعى.. فكانت لعبته المفضلة بعد ذلك: الأطفال والشبان وقلوب الأمهات..

ولم يعد أحد يختلف حول: هل يتعلم الطفل.. أو لا يتعلم؟ ولكن الخلاف الآن: هل يلعب الطفل؟

والأطفال يلعبون فى كل العصور. وجدران المعابد والمصاطب والمقابر الفرعونية تبين لنا أطفالا يلعبون، والتماثيل الفرعونية والبابلية أيضًا تبين لنا رجالاً فى غاية الرشاقة والصحة. فالقوام مشدود والخصور نحيلة والأكتاف عريضة. والنساء رشيقات نحيفات وفى القصور كانت تجرى مباريات للأطفال وللشباب من الجنسين..

وأقدم لعبة عرفها الإنسان هى: الكرة.. المصنوعة من القماش أو الخشب أو من جلود الحيوانات.. وكذلك لعبة «النحلة».. وقد عرفها الفراعنة وعرفها الإغريق أيضًا، فالفيلسوف أفلاطون قد ذكرها فى كتابه «الجمهورية».. والمؤلف المسرحى أريستافانس قد ذكرها فى مسرحية «الطيور».. والشاعر اللاتينى فرجيل وصف الحياة بأنها نحلة: نضربها بالخيوط ومع ذلك تدور وترقص!

والأطفال يلعبون فى الشارع وفى الغابات وعلى ضفاف الأنهار وفى الحدائق العامة والخاصة..

ومن أهم معالم الثورات أنها تأخذ قصور الملوك وتعطيها للشعب. وشىء آخر هام: أنها تستولى على حدائق الملوك والأمراء والأغنياء وتفتحها للأطفال.. وبعد ذلك يكافئ الشعب نفسه مرة أخرى فيقيم الحدائق للأطفال الصغار.. وكذلك الملاعب والساحات الشعبية..

وإذا كان التطور الصناعى قد دفع المرأة إلى العمل، فقد أصبحت

الراحة والرياضة والنزهة ضرورة حيوية للأسرة، وتحولت الرياضة إلى صناعة وتجارة. وأصبحت الرحلات والسياحة علمًا وفنًا.

وكان من نتائج اشتغال المرأة، أن ضاق وقتها عن تربية الطفل والاهتمام به. ولذلك كان لابد أن يهتم بالطفل إنسان آخر غير الأم، وأسرة أخرى غير أسرته. وبعد الحروب زاد عدد الأطفال اليتامى والأطفال اللقطاء وأبناء الفقراء وأبناء المسجونين والأسرى والمرضى والمدمنين.. وكان لابد أن تتولى الدولة مهمة تربية الأطفال.

وأول دار للحضانة أنشئت فى العالم كانت فى ألمانيا، أنشأها مدرس ألمانى اسمه فريبل سنة ١٨٤٠. وهو الذى اختار لها اسم «روضة الأطفال» وكانت تضم عددًا من اليتامى. وكان شعار هذا المدرس: «لا يمكن أن يكون لأى إنسان أب واحد فقط ولا أم واحدة فقط ولا بيت واحد ولا مدرس واحد.. إن مدرستى هذه تحل مثل هذه المشاكل».

وبعد وفاة هذا المدرس قامت أرملته بإكمال رسالته، فأدخلت أطفالها فى هذه المدرسة.. وراحت تطالب كل الناس أن يكونوا آباء لليتامى والمساكين..

وأهم ما فى رياضة الأطفال أنها إدماج للمدرسة والملعب.. وأن المدرس أو المدرسة لا تصبح أما فقط وإنما تصبح شريكة فى اللعب أيضًا. وأهم ما فى هذه اللعب التى يقلبها الطفل بين أصابعه أن هذه اللعب ليست إلا نوعًا من الكتب.. نوعًا من الحروف والكلمات.. نوعًا من الأسطوانات التى يسجل عليها أفكاره بأصابعه..

فاللعب هذا النشاط الغريزى عند الطفل هو أسهل أسلوب يعبر

به الطفل عن نفسه. فنحن لا نعرف ما يدور فى رأس الطفل إلا عن طريق اللعب. نحن لا نعرف مزاجه وقدراته إلا عن طريق اللعب.. فهو يختار اللعبة الفردية أو اللعبة الجماعية.. يختار اللعبة الصغيرة أو الكبيرة الثابتة أو المتحركة..

وما دامت هذه اللعب هى وسيلته للتعبير عما يدور فى نفسه، فإنه يمكن توجيه الطفل وعلاجه عن طريق اللعب. فعلماء النفس يعالجون الأطفال عن طريق الألعاب.. فالطفل الذى يشكو من اضطرابات عاطفية أو اضطربات فى الشخصية لابد أن يلعب تحت رقابة الأطباء. فيقدمون له نماذج خشبية لأفراد أسرته.

ويطلبون إليه أن يصف كل واحد منهم.. فينطلق الطفل تلقائيًا يتحدث ويصف ويلعن ويمرح.. ويضرب ويعانق.. إنه يروى قصة أعماقه هو.. يصف أوجاعه ويطلق نزعاته المكبوتة.. ويساعد الأطباء على تشخيص مرضه..

وكذلك يمكن تعليم الطفل عن طريق اللعب.. فيصبح أحيانًا قادرًا على معالجة الأشياء المادية.. ويصبح خياله نشيطًا.. فيبنى ويهدم.. ويصمم ويحفظ ويبدع.. وكل لعب الأطفال ذات طابع نضالى.. فالأطفال يلعبون بالأسلحة من أقدم العصور.. بالعصا والسيف والسهم.. والصواريخ والبمب قد عرفتها الصين من ألوف السنين.. وأطفال اليوم يلعبون بالطائرات والدبابات والغواصات..

والذى ينظر إلى الحيوانات الصغيرة وهى تلعب، يجد أن لعبها نوع من القتال العنيف إنها تتدرب على الدفاع عن نفسها..

وليست الرياضة إلا نوعًا من التسامى بغريزة القتال والمنافسة والحرص على البقاء..

والفرق بين طفل الإنسان وأطفال الحيوانات والطيور أن الطفل الإنسانى يعيش فترات طفولة طويلة. وبعض الدول لا ترى خطرًا فى إطالة الطفولة ما دامت لا تعوق نمو الشخصية..

ففى اليابان مثلاً يحتفلون بأعياد الطفولة حتى الخامسة عشرة من العمر.. فى كل مايو من كل سنة!

بل إن العروس إذا ذهبت إلى بيتها الجديد حملت معها كل لعبها وعرائسها وأقامت لها معرضًا خاصًا فى بيتها..

وإذا كانت التربية تؤكد الخلاف بين الجنسين.. فإن الألعاب توضح ذلك.. فالذكور يختارون الألعاب العضلية أو الألعاب الميكانيكية.. أما الإناث فيخترن العرائس وتدبير البيت..

ولكن لابد أن تكون هناك ألعاب تؤكد ضرورة التعاون بين الجنسين فى سن مبكرة أو فى سن متأخرة..

وفى اليابان يذهب الأطفال إلى المعابد ومعهم العرائس أو الخيول.. وفى المعبد يطلب الطفل أن تتحقق له أمنية.. فإذا نزع رأس اللعب، ووجد تحتها ورقة بيضاء فيها بقع سوداء، فمعنى ذلك أن أمنيته تحققت.. وكل الأطفال يجدون هذه الورقة طبعًا والأم هى التى تضعها فإذا وجدها الطفل كان ذلك مكافأة عن الطاعة التامة لأمه وأبيه..

والذى يعلِّم الطفل أن يطيع يستطيع أن يعلمه أى شىء آخر.. والذى يلعب مع الطفل يستطيع أن يطلب منه أى شىء.. ومن هنا كانت أهمية اللعب وكانت أهمية التوجيه أثناء اللعب.. أو عن طريق استخدام اللعب..

وربما كان الفيلسوف الفرنسى روسو هو أول من نبَّه إلى

ضرورة توجيه الطفل أثناء اللعب، فقد نصح المدرسين بأن يرافقوا الأطفال فى كل مكان وأن يصبروا على الأسئلة الكثيرة التى يصوبها الأطفال بحسن نية.. وكان شعار روسو: «امش وراء الطفل ووجهه دون أن يلحظ ذلك!».

والطفل لا يحب قصص الأطفال.. إنه يحب قصص الأبطال والعمالقة والجبال العالية والوديان العميقة ووحوش الغابة.. إنه يريد الذى يثيره ويلهب شعوره ويحرر خياله ويطوح به من السماء إلى الأرض وإلى ما تحت الأرض..

وقد أقامت كثير من الدول مدنًا للملاهى.. يذهب إليها الطفل يلهو ويتعلم.. ولكن ليس فى استطاعة كل الدول أن تقيم مثل هذه المدن.

ولا فى استطاعة كل الأطفال أن يذهبوا فليس أمام الأطفال إلا أن يشتروا اللعب واللعب يختارها الأبوان عادة ولكن الآباء لا يختارون إلا فى حدود ضيقة.. هى الحدود التى يفرضها تاجر اللعب وصانعها، وصانع اللعب لا يريد إلا الكسب ولا يهمه بعد ذلك أثر هذه اللعب فى نفوس الأطفال.

ولذلك كان من الضرورى الإشراف على توجيه اللعب.. وعلى اختيار أنسبها للأطفال من كل جنس وفى كل مرحلة من مراحل النمو..

ولابد أن يكون الإشراف علميًا أى على أساس تربوى سليم... والدول الاشتراكية هى التى فى استطاعتها أن تشرف على هذه الصناعة والتجارة والتربية..؛ ولذلك امتلأت دور الحضانة ورياض الأطفال باللعب..

ولكن المشكلة تبدأ عندما يفكر آباء الأطفال أن يشتروا لعبًا لأبنائهم يلهون بها فى بيوتهم والمشكلة تواجه غير القادرين.

ففى مصر - مثلاً - نجد أن أسعار لعب الأطفال غالية جدًا؛ اللعب المستوردة باهظة الثمن فإذا انكسرت لعبة - ولابد أن تنكسر؛ لأن تكسيرها متعة عند الأطفال - كان من الصعب شراء لعبة أخرى.. أما اللعب التى ننتجها محليا فهى غالية أيضا، وهى فقيرة فى تنوعها ولا ينتجها إلا نجارون عاديون وهى لا تنشط خيال الطفل ولا تضيف إليه شيئًا جديدًا ومعنى ذلك أن الطفل المصرى لا يجد ما يلعب به.. أى لا يجد وسيلة للتعبير عن نفسه.. ولا نجد نحن وسيلة كافية لتوجيهه فيشب على نحو أفضل.

وحتى عندما ذهبت لزيارة «مركز التدريب النموذجى للعاملين مع الطفولة والأسرة» بإمبابة.. لم أجد ما يريحنى، فالمركز قد أقيم منذ خمس سنوات لتدريب المشرفات على تربية الأطفال والمشرفات متوسطات الثقافة، والمبنى صحى وفى حالة جيدة، ومديره الأستاذ عبد المحسن عفيفى، وهو صاحب أفكار ولكن اليد قصيرة والعين بصيرة.. أو هو لا يستطيع أن يرى أبعد من يديه ويداه قصيرتان، فهو يعيش على صدقات وبركات وزارة الشئون وقد زار المركز خبير دنماركى من الأمم المتحدة وعاش سنتين، رأى وكتب وسافر وترك وراءه ورشة صغيرة لصناعة لعب الأطفال من الخشب الحبيبى، والعمل محدود وبطىء واللعب هزيلة وغير متنوعة، ومن المفروض أن هذا المركز يصمم النماذج المناسبة للعب الأطفال، ويبعث بهذه النماذج وأوصافها إلى المحافظات، وتتولى المحافظات المختلفة إنتاجها أو طلب

إنتاجها، ويبعث أيضا إلى صناع اللعب ـ مساعدة منه ـ بنماذج مناسبة للأطفال من كل سن!

أما التجارب التى يقوم بها المركز على أطفاله فتسجلها المشرفات فى كشوف. وعن طريق هذه الكشوف يعرف ما الذى يهم الطفل من لون اللعبة وشكلها ونوعها.. وبعد الاختبارات والتجارب يستقر المركز على لون وحجم اللعبة.. ولا أعتقد أن هذا المركز قادر على أن يقدم شيئًا خطيرًا؛ لأنه محدود ماديًا وأدبيًا، وربما استطاع هذا المركز أن يفيد المشرفات بالمحاضرات التى يلقيها متخصصون فى الدراسات النفسية والتربوية.. ولكن هذه الدراسات توسع المسافة بين النظرية والتطبيق.. أو بين نظريات التربية والرغبة فى تطبيقها على رياض الأطفال وتبقى المشكلة كما هى: لا توجد عندنا لعب متنوعة ورخيصة للأطفال.

ويمكن تفسير الأعمال العنيفة التى يقوم بها الأطفال فى الشوارع على أنه من اللعب المحترف.. ككسر فوانيس السيارات.. وخربشة الجدران والأبواب.. والكتابة على الحائط.. وتفجير البمب الصغير.. وإلقاء الماء من النوافذ.. وغيرها من الألعاب الضارة، لابد أنها نوع من «التنفيس» عن رغبة طبيعية فى اللعب.. ولعب الأطفال مسألة تربوية ولذلك فهى مسألة جادة.. وإذا كان العلم نورًا، فاللعب علم وهو نور أيضًا، وإذا كان بعض العلم نارًا محرقة، فهناك ألعاب ضارة بالجسم والنفس والمجتمع.. ومستقبل أى بلد.

ولذلك يجب أن نهتم بالتربية عن طريق اللعب.. لعب الأطفال ولعب الكبار أيضًا.

وليس أمامنا إلا التوسع فى صناعة اللعب.. إلا رفع الجمارك نهائيًا عن كل اللعب المستوردة.. تمامًا كما نرفعها عن الكتب والأجهزة العلمية.. فكلها وسائل مختلفة لنشر الوعى الصحى بين المواطنين.

ومنذ خمسة وعشرين قرنًا أمسك الفيلسوف اليونانى ديوجين عصاه وضرب بها رجلاً كان يلعب مع ابنه فى أحد الميادين، وتوقف الرجل ليسأل فقال له الفيلسوف: سمعت ابنك يقسم كاذبًا، ولابد أنه تعلم ذلك منك، أو تعلم هذه العادة السيئة من غيرك ولكنك سكت على ذلك!

ولا أعرف كم عصا نحتاج إليها فى مصر، إننا فى حاجة إلى أن نزرع غابة ونقلعها بعد ذلك وننزل بفروعها على رؤوس الألوف من الذين لا يفرقون بين أن يلعب الطفل بالنور أو بالنار.. أو بين أن يلعب وهو يتعلم أو يتعلم وهو يلعب!

هذا رأيى ومشاهدى ودراستى وغربتى.

وأنت ما رأيك فى كل هذا الذى رويت..

المحتويات